بسم الله الرحمن الرحيم

الصابر المنتصر

صلى الله عليه وسلم

ـ سرد حديث للسيرة العطرة ـ

فخرى فايد

أهدى إلى أحب خلق الله إلى الله :

محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم تسليما.

محبة فى الحبيب الأعظم : الله رب العالمين .

الجزء الأول

اعتذار واجب

يا حبيبى أعتذر إليك ..
عن الأجداد أعتذر إليك ..
عن قسوة القلوب أعتذر إليك ..
عن جهال وجهلة زماننا وكل الأزمان من الناقمين والكارهين لحق الله أعتذر إليك ..
فكثيرا ما توجهت باللوم والعتاب إلى أرواح من قيل لى إنهم أجدادى ..
وكثيرا ما وجهت اللوم إلى القلوب الغلف لمن يتطاولون الآن عليك ..
فكيف لهم أن يفعلوا بك ما فعلوا ؟!! .
وكيف لهم أن ينصرفوا عن حبك كما انصرفوا ؟!! .
إلا جهلا منهم لقدرك وفضلك، أو حسدا من عند أنفسهم ..
فلولاك يا حبيبى ما نعمنا براحة البال التى أوصلتها إلينا ، بصبرك على الأجداد لكى يكونوا مسلمين ، فأورثونا الرسالة، فتعلمنا من القرآن ومن السنة أن الأمر بيد الله وحده فاستقر اليقين، ورضينا بما قسم لنا فى دنيانا، وطمحنا فيما يختزنه لنا ربنا فى الآخرة التى هى خير وأبقى .

.. فتقبل يا حبيبى اعتذار الأحفاد عما صنع الأجداد .
وتقبل اعتذارى عن هذا الجهل بالدين الذى أصاب الكثرة من هذه الأجيال التى نعيش بينها، حتى أصبح إسلامهم مجرد ديانة ولدوا عليها من آباء مسلمين، ولم يعد الإسلام منهاجا وحياة، ولكنه صار مناسك تقوم بها الأجساد ، وكلمات لا تتخطى الحناجر، وأمسى المسلمون لا يتدبرون القرآن، ولا يتأسون بك يا حبيبى .

ولأن الله هو الهادى، وهو المصلح، لا ينقطع بنا الأمل ـ رغم كل هذا التغريب بالإسلام ـ من أنه سوف تفد أجيال تحيى كلام الله وسنتك عملا وإقتداء وتدبرا، فيعود الإسلام إلى الحياة ليعمل فيها شرعته، ويجعلها صفاء رخاء وأمنا وسلاما .

..وتقبل اعتذارى يا حبيبى عن أى تقصير أو قصور فى أية نأمة قد تكون قد صدرت منى فى هذا الاجتهاد نتيجة عجزى، وقلة حيلتى، وتواضع علمى إلى جانب ما علمك ربك، ولعظمة قدرك، وخفاء أسرارك .
.. وعذرى أننى محب أراد أن يعبر عن مكنونات نفسه تجاه من أحب ، فطاوعته الكلمات أو خذلته.
فتقبل يا حبيبى عملى هذا فما قصدت به سوى رضا المرتجى الأعظم : الله رب العالمين .
ولك العتبى حتى ترضى .
وصلى اللهم وسلم تسليما على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته.

الفصل الأول : **رب يحميه**

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

سورة الفيل

- ١ -

هذا يوم غريب من أيام مكة ..

..ورغم ما اعتادت عليه من شدة الحر، فإنه لم يكن فى أيامها السابقات يوم أشد حرا من هذا اليوم؛ فمنذ الشروق والشمس قاسية أشد ما تكون القسوة، وكلما مر الوقت ازدادت أشعتها ضراوة ، حتى صارت مع حلول الظهيرة سهاما مسومة تخترق كل ما تقع عليه من شيء ، فتعمل فيه الفساد والدمار، وأصبح أهل مكة يهرولون ملتمسين الظل حتى لو كان تحت شاة أو بعير .

ووراء سلسلة الجبال التى تحيط مكة كالسوار، تناثرت بحيرات الماء فوق الرمال، وقد اشتد لمعانها حتى أنها لتخدع اعتى العارفين بطبيعة الصحراء، فهذا الانعكاس اللامع لوهج الشمس يؤكد فى حسم أن ما تراه العينان ماءا وليس سرابا .

فى هذا اللظى توقف ثعبان أسود هائل فوق الرمال ينتفض يمنة ويسرة، بعد أن أرهقه الزحف، فى محاولة لالتقاط نشقة هواء رطبة، أو خالية من ذرات التراب التى يثيرها أثناء حركته ؛ ولم يدم توقفه طويلا، فالهدف قد أصبح على مرمى البصر، فسرعان ما عاد إلى زحفه فى إصرار، مخلفا وراءه مجرى عميقا لنهر بلا ماء، مثيرا لزوابع من الغبار تصاعدت إلى عنان السماء، وتخطت ذرا الجبال الشامخات، لتزيد الصورة جهامة على جهامة .

تصايح أهل مكة فى هلع حين رأوا سحابة الغبار تجتاز قمم الجبال :

- يا قوم لقد أصبح أبرهة الأشرم وجيشه ، على مرمى القوس من أبواب مكة .

- ٢ -

فى دار الندوة جلس كبار القوم يتشاورون فى أمر هذا الشر الوافد ، أما الجمهرة من العامة ، فقد وقفت تترقب فى لهفة صدور قرار الحرب ، فهم لم يعتادوا الخنوع أو الخوف مهما كان شأن عدوهم .

وبينما الجمع فى حمية النقاش ، إذا بغريب يبرز إليهم معلنا أنه رسول أبرهة إليهم ، صمت الحاضرون ، وران على الجمع سكون مترقب تقطعه همهمات غاضبة ، بينما استمر الغريب يشق طريقه غير عابئ بالوكزات ، ولا برذاذ البصاق الذى تناثر حوله فى تحد ، إلى أن دخل دار الندوة ثم صاح :

- من فيكم سيد القوم وحكيمهم ؟! .

أشاروا كلهم دون تردد إلى رجل مهيب الطلعة، وضاء الوجه، يتوسط مجلسهم وقالوا :

- هذا عبد المطلب بن هاشم صاحب الكلمة فينا .

اتجه الغريب إلى عبد المطلب، ثم انحنى محييا ، وهو يقول :

- إن الملك أرسلنى إليك لأبلغ قومك بأنه ليس فى حاجة إلى حربكم ، ولا سفك دمائكم، ولكنه أتى قاصدا هدم الكعبة وبعدها يخلى عنكم، ويرجع إلى ملكه، إن أنتم لم تعلنوا حربه، ولم تعترضوا سبيل جنده .

زمجرت الجموع مستنكرة غاضبة ، فكيف يطالبهم أبرهة بأن يسالموه ، ويقفوا متفرجين عليه وهو يهدم البيت الحرام رمز عزتهم ، ومصدر فخارهم بين القبائل ، وموطن ألهتهم التى يعبدون ؟! .

ولكن إشارة من يد عبد المطلب أسكتتهم، ثم أشار على رسول أبرهة بأن يستريح بدار الضيافة، إلى أن يتشاور مع قومه فى الأمر .

وما إن اختفى الغريب، حتى قام عبد المطلب فى قومه خطيبا ، قائلا والصدق يجعل كلماته كالسهام، تنغرس فى هدفها فلا تغادره :

ـ ورب البيت إنا لآيسون من حرب أبرهة الأشرم، فلقد أتانا فى جند يزيدون عنا عددا وعدة ولقد استقدم معه فيلا إن وطئت قدمه رجلا أو إبلا صرعته وحطمت عظامه، ولقد سبقنا واستنفر ذا نفر فرسان قومه لحربه حين مر بديارهم ، لكن أبرهة هزمهم ، وغلب أبطالهم ، ثم قاتله نفيل بن حبيب الخثعمى وقومه فدمر ديارهم، وسبى نساءهم، ويتم عيالهم ، وإنتهب أموالهم و أقواتهم، وإنى أرى أن نسالمه مادام وقد بدأنا هو بالسلام ، أما البيت فورب البيت ما قصده ظالم بانتهاك إلا وقصمه الله، هذا ما أرى، فانظروا ماذا أنتم فاعلين؟

لم يكن هناك رأى يرى بعد ما قال عبد المطلب ، ولهذا أجابوه والمرارة تجعل الكلمات تتعثر فى حلوقهم، وتخرج على شفاههم مرتعدة بالهزيمة والانكسار :

ـ افعل ما ترى، ونحن لك تبعا .

أمر عبد المطلب بإحضار رسول أبرهة، وحين مثل بين يديه قال له :

ـ أبلغ مليكك أننا سنمتنع عن قتاله مادام حافظ جنده على حرمة ديارنا .

.. استمع الرسول إلى قرار عبد المطلب وعيناه تلمعان بالانتصار، لكنه لم يغادرهم منصرفا، بل قال :

ـ لقد أمرنى الملك أن أصحب سيد القوم إليه إذا ما أجبتم مطلبه .

أجابه عبد المطلب دون تردد .

ـ وإنى ذاهب معك إليه فلى عنده مساءلة .

كانت استجابة عبد المطلب لدعوة أبرهة ، مفاجأة زلزلت وجدان القوم ، فإن ما تناقلته القبائل من روايات عن أبرهة يؤكد خيانته للعهود ، ونقضه للمواثيق : فلماذا لا يكون طلبه مكرا بهم ، ليسلبهم القائد فتسهل عليه السيطرة عليهم واجتياح ديارهم ؟!.

.. وكما عرفوا عن عدوهم مكره وخداعه ، فهم يعرفون صلابة عبد المطلب وجسارته ، وإصراره على تنفيذ ما عاهد عليه ، منذ قاتلهم جميعا لكى يحفر بئر زمزم وفاء للرؤيا التى رأى ، وللهاتف الذى هتف به أن أحفر زمزم التى طمرت فيتدفق منها الماء سقاية لحجيج بيت الله .

كانوا يقاتلونه ليمنعوه خوفا من غضب أصنامهم التى يعبدون ، فلقد كان يحفر تحت أقدامها ، وضربات معوله تهز الأوثان هزا حتى لتوشك أن تنكفئ ، لكنه أصر ودافعهم وضاربهم ، وهو ليس له من الأبناء غير ابن واحد هو الحارث ، ولذا فلقد صاح فيهم زاجرا :

ـ أولو كان لى من الأبناء كثرة ، أو كنتم تقاتلوننى فيما أنا صانع ؟.. والله إنى لناذر أن أقدم للآلهة أحد أبنائى قربانا ، لو رزقت بعشرة ذكور يحموننى ، ويدفعون عنى أذى سفهاء مكة .

وحين تسامعت قريش بما قال عبد المطلب ، انفضوا عنه لا يقاتلونه ، وقد أخذهم الخزى كل مأخذ ، وتقاسموا ألا يقاتلوا عبد المطلب أبدا .

وحفرت زمزم ، وتفجر ماؤها، وتأكدت قريش من رجاحة عقل عبد المطلب وشفافية روحه ؛ ومنذ ذاك الحادث وهم لا ينازعونه فى رأى ، ولا يخالفونه فى مشورة .

إذن فليكلوا أمرهم لرب البيت ، وليلجئوا إلى أصنامهم يسألونها العون ليعود إليهم عبد المطلب سالما ، وإلا فأى عار ذاك الذى سيلاحقهم لو غدر به الحبشى ، وهم جلوس فى ديارهم لم يحملوا سيفا و لم يرموا نبلا ؟!.

انطلق عبد المطلب على فرسه الأشهب مع رسول أبرهة حتى وصلا إلى خيمة الملك ، وقد عسكر حولها الجند يسمرون وقد تحوطوا النار يطهون .

كان الوقت مساء ، والهواء ثقيل خانق ، والسماء سوداء مكفهرة جهمة ، حالها كحال الشمس بالنهار : غريب .. غريب ، لم تعتده عينا عبد المطلب ، وها هى ذى النجوم خابية أنوارها ، وقد دنت من الأرض وتدلت ، حتى لتخال يدك واصلة إليها ممسكة بها .

قال عبد المطلب لنفسه : ورب البيت إن هذه السماء لتبيتن لأمر جلل .

وقال رسول أبرهة :

- سأستأذن لك الملك .

صاح أبرهة ونبرة النصر تلون صوته بالكبر :

- أدخلوا الهاشمى صاحب زمزم ومطعم الحجيج .

. . وحين أطل وجه عبد المطلب من باب الخيمة ، انتابت أبرهة خشية عظيمة لتلك المهابة التى طالعته ، وذاك النور الذى يضئ الوجه بالطمأنينة ، فلا قلق يبدو تأثرا من رؤية لذاك الحشد الحاشد من الجند ، ولا انبهار بهذا الترف والبذخ الذى يملأ الخيمة ، بل هناك سكينة لم يشهد مثلها من قبل ، حتى فى وجوه القسس والرهبان .

نهض أبرهة مضطربا لا يدرى ما هو فاعل ؟..

: هل تراه سيدعو الهاشمى لارتقاء العرش والجلوس إلى جواره ، فيقال : لقد جلس القرشى على عرش اليمن ، وآه له من غضبة سيده إمبراطور الحبشة حين يسمع بهذا ، وهو باليقين سامعه ، فلسيده فى كل ركن أذن تسمع ، وفى كل مخدع عين ترى .

: أم هو مجلسه تحت قدميه كما يجلس غيره ؟ .

: لا.. لا.. محال أن يفعل هذا بعبد المطلب .

هكذا أخذ أبرهة يردد لنفسه رافضا الفكرة ، رغم كونه يتمنى أن يفعل هذا إذلالا لمن دنس رجل من قومه حرمة كنيسته ؛ والفرصة سانحة ، وهو مالك للأمر ، لكنه غير مستطيع .

: كيف ؟! .

: لا يدرى .

فها هو ذا يجلس على الأرض ، بينما هو يريد أن يكون جالسا هناك بأعلى ، ثم ها هو ذا يشير إلى عبد المطلب ليقترب ويجلس إلى جانبه ، بينما هو يريد أن يبعده ، ولا يدنيه .

أسرع المترجم يقف خلفهما ، قال أبرهة :

- سل الهاشمى بماذا يأمر فيطاع ؟ .

ذهل المترجم ، ظن أن سمعه قد خانه ، فلم يقل مثلما قال مليكه ، بل قال لعبد المطلب :

- مولاى يسأل إن كانت لك حاجة عنده فيجيبك إليها .

قال عبد المطلب :

- قل لمولاك إن جنده قد نالوا مائتين من إبلى بالأمس ، فليردها على .

تغير لون أبرهة ، وبدت الدهشة على وجهه الذى ازداد سوادا ، حين سمع من المترجم ما قاله عبد المطلب ، سكت قليلا ثم قال :

- كنت قد أكبرتك حين رأيتك ، وظننتك ستتوسل إلى ألا أهدم البيت ، فإذا أنت تطلب أن أرد إليك مائتين من الإبل !!.

أجابه عبد المطلب فى هدوء :

- لأننى أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .

تزلزل كيان أبرهة : ما هذا الذى يسمع ، ما بال هذا الإعرابى لا يزال يصيبنى بالرهبة والخوف ، ويفزعنى بسكينته ورباطة جأشه ، إنه يقابل إقدامى على هدم البيت بهدوء ، وأنا من أصابه الهياج واجتاحه الغضب ، وجيش الجيوش ، وقطع الفيافى والقفار ، ووصل الليل بالنهار ، لمجرد أنى سمعت بأن إعرابيا قضى حاجته فى كنيستى التى بنيتها باليمن تقربا لمولاى إمبراطور الحبشة ، وطلبا لرضاه، وإعلاء لشأن الصليب، وإبهارا للعرب حتى ينفضوا عن الحج إلى الكعبة ، ليحجوا إلى كنيستى التى بنيتها سامقة تكاد تناطح السحاب حين علمت بأن الكعبة التى يحجون إليها لا يرتفع بناؤها عن بيوتهم و خيامهم إلا أشبارا ، وزينت جدرها باللؤلؤ والمرجان ، وجعلت سقفها من ماء الذهب والفضة ، وصلبانها من الذهب والياقوت ، بينما هم يحيطون كعبتهم بتماثيل يعبدونها يصنعونها من الحجار الطين ، بل ومن الرطب والعسل ـ ورغم هذا جميعه ـ لم يهجروا كعبتهم ، ولم يغيروا عادتهم ، بل اجترءوا على كنيستى استخفافا وتحقيرا ، فلم يكتفوا بهجرها ، بل لقد فعل أحدهم فعلته التى فعل ، فلم يعد أمامى إلا حد السيف أجتث به رمزهم ومزارهم ، ثم ها هو ذا رئيسهم لا يطلب منى غير بضع من النوق ؛ فيالهم من قوم أمرهم عجب من عجب !!.

طال انتظار المترجم لرد سيده على مساءلة عبد المطلب ، فأعاد السؤال على مولاه ؛ انتبه أبرهة من استغراقه فى دوامة الأفكار ، قال فى نبرة حاول أن يغلفها بالغطرسة :

ـ ردوا إليه إبله .

ثم استطرد فى غيظ وضيق :

ـ أكد عليه أيها الترجمان ، أننى مع شروق الشمس آت إلى قريتهم ، ومدمر بيتهم بضربة واحدة من قدم فيل مولاى الإمبراطور ، وعليهم أن يلزموا دورهم مبتعدين عن طريق جندى .

ثم نهض مستديرا يصعد سلم العرش ، صارخا فى حراسه :

ـ أروا الأعرابى الفيل .

خرج عبد المطلب إلى معسكر الجند ، فى همة من أجيبت حاجته ، ثم هو يرغب فى مشاهدة هذا الفيل الذى تتناقل عنه الإعراب قصصا تفوق الخيال ، كما وأنه لم ير فى حياته فيلا ، فحين قال ما قال لقومه كان ناقلا عن ما جاءه من أخبار ، وها هو ذا قد قدر له أن يرى ، ويا هول ما يرى : فكأنما هو جبل ، وحين تحرك ، مادت الأرض تحت قدميه ، وحين صرخ أصم أذنيه .

غادر عبد المطلب مكان الفيل عائدا إلى قومه ، يسوق إبله ، وقد أصابه هم عظيم : فماذا هو مستطيع أمام هذا البلاء ؟!.

أطلق عبد المطلب الإبل فى ساحة الكعبة ، وأعلن أنه واهبها لله إذا نجى البيت من مكيدة الحبشى ، ثم تعلق بحلقة باب الكعبة ، وراح يدعو وقد انسابت دموعه تضمخ لحيته ، وحوله جموع من القرشيين يرددون وراءه ويبكون لبكائه :

ـ يا رب لا نرجو لهم سواك ، فامنعهم يا رب أن يخربوا قراك ، فعدو البيت يا رب من عاداك .

وظل عبد المطلب على حاله ، حتى أشفق عليه من حوله ، وتوسلوا إليه أن يرحم شيبته ، ويكف عن تعلقه بالباب وعن البكاء ، فاستجاب لهم ، واتجه إلى بطون قريش ينصحهم بالفرار إلى الجبال .

أوقدت المشاعل وتصايح القوم ، وجرت الأمهات لهفى على أطفالهن يوقظونهم ويحملونهم خارج الدور ، بينما أخذ الرجال يسوقون الدواب وقد حملوها بكل غال ونفيس متجهين إلى الجبال يتسلقونها ، ويتدافعون إلى شعابها .

كان المنظر حزينا يدمى القلوب ..

قوم مقهورون يهجرون ديارهم وسط الظلمات ، ويلجون مسارب الجبال ، وهم لا يعلمون ماذا ينتظرهم فيها ، وما أكثر ما تخفيه بين سراديبها وصخورها من أهوال ومخاطر ، فهى مرتع للحيوانات المفترسة ، وللزواحف الخطرة من ثعابين وحيات ، بينما هم يرون بالكاد ما هو تحت أقدامهم ، وقد تصاعدت أنات المرضى والمسنين ، ونداءات الأمهات على صغارهن الذين علا بكاؤهم من شدة الفزع .

وحين اطمأن الرجال على أسرهم ، التفت أبناء عبد المطلب يبحثون عن أبيهم ، فلم يجدوه ، فتدافعوا ومعهم أقوام منحدرين إلى حيث يوقنون بوجوده .

.. فى الكعبة كان واقفا يبكى ، وقد رفع أكف الضراعة إلى السماء ، اقتربوا منه ، وقالوا فى رجاء :

ـ هلم معنا .

رد عليهم فى حسم :

ـ لن أغادر الكعبة ، سأبقى منتظرا قضاء ربى ، ولا أقطع الأمل فى رحمته.

توسلوا إليه قائلين :

ـ من أجل أبنائك تعال معنا إلى الجبال ، فمكة لن تكون آمنة ، فأبرهة كاره لقريتنا ، وجنده شرهين للدماء ، وفيله يصبح مهووسا ملووسا ، إذا ما غرسوا الحراب فى جلده ، فهو يطيح بقدميه وخرطومه يمنة ويسرة ، يدمر كل ما يقع فى طريقه ، حتى وإن دمر نفسه .

أجابهم لينهى كل حوار :

ـ أبنائى أبناؤكم ، خذوهم على ما تأخذون عليه عيالكم .

ثم استدار مواجها الكعبة ، وراح يجأر بالدعاء لله ، لا يأبه بشىء .

انصرف الرجال عائدين إلى أسرهم ، وهم فى حال من عدم الرضى لانصرافهم عنه ، فهم لم يعتادوا من أنفسهم مثل هذا التصرف عند نشوب الشدائد ، واستفحال الأزمات ، فهى تجعلهم يزدادون قربا وتماسكا وتوحدا ، لكن ماذا تراهم فاعلين ، والوقت يمر ونذير الشؤم آت مع أول خيوط النهار ؟!.

كان عبد الله هو آخر من تبعهم ، فترك ساحة الكعبة ، وإن ظل قلبه معلقا بأبي فهو أصغر الأبناء : قريب إلى نفسه ، محبب إليه ؛ وبنفس درجة حب الأب ، كان مكنون القلب عند الابن ، و لذلك كان عبد الله منقبض الفؤاد ، كسيف البال ، فهو لا يستطيع أن يبقى مع الحبيب كما يتمنى ، لأنه لن يسمح له بالبقاء ، بل هو سيزجره ويصرفه ، كما أنه لو ترك زوجته آمنة وبقى ، فمن يحقق لها الأمن وهى حامل فى ابنهما الأول ، فلو سبا أبرهة وجنده أى امرأة لصارت أمة يبيعونها ويبيعون عيالها ، والموت أهون من أن يحدث هذا لزوجه ، أو لابنه الذى لم يره بعد ، ويشتاق لرؤياه غاية الاشتياق .

وتتعثر خطوات عبد الله فى صخور الجبل فتدمى قدماه ، ففكره الشارد لا يجعله منتبها للأخطار المحيطة به ، ويصل عبد الله إلى حيث عسكر القوم ؛ وتتلقفه آمنة فى لهفة بعد أن أقلقها تخلفه عن أقرانه ، وتراه شاردا فتسأله :

ـ فيم تفكر يا أبو الفتى ؟! .

فيجيبها :

ـ ورب البيت ، إن الموت لأهون على مما طاف بفكرى .

وتدرك آمنة بفطرتها أنه كان قلقا عليها ، وعلى الجنين الذى يتحرك هونا فى أحشائها وتغمرها حركته بسعادة وطمأنينة ، فتنحنى عليه هامسة :

ـ والله يا عبد الله إننا لفى حمى الله ، ولقد بشرت فى منامى بأن ابننا سيكون له شأن عظيم ، وسوف يتفجر لمولده النور حتى يعم قصور بصرى بالشام ، فأبشر يا ابن عم ، ولا تقلق عليه ، فإن الله حافظه من كل سوء .

ويضىء وجه عبد الله بالبشر ، فقد نزل كلام آمنة على قلبه بردا وسلاما .

ـ ٥ ـ

انصرم الليل ..

ومكة هامدة كسابق عهدها منذ هجرها أهلها .

فى حب عميق ، جلس الإنسان الوحيد الذي بقى بمكة ، دامع العينين ينظر إلي ذلك البناء الحبيب الذي تقاتل العرب من أجل أن يكون لهم شرف خدمته وخدمة زواره .

.. مبني مربع بسيط لا زخارف فيه ولا زينة ، من يراه بداية يعجب من أمر ذلك الحب والتعلق الذى يربط قلوب العرب به ، ولكن من يراه مرارا ، سيكون أكثر منهم تعلقا وتشوقا لزيارته ، والطواف به : مهللا ملبيا وداعيا رب البيت ، متوسلا إليه بما يريد قضاءه .

لقد ظل هذا حال البيت منذ كانت الحياة بخلق آدم عليه السلام ، ويقال إن البيت كان موجودا أيضا قبل أن يخلق الله آدم من طين ، وأن البيت كان ياقوتة حمراء ، وكانت الملائكة ـ ومازالت ـ تطوف حوله مسبحة لله ليل نهار ، فى خشوع العابدين العارفين بقدر الخالق .

.. وحين رفعت الياقوتة من الأرض ، بقيت قواعد البيت فأعاد جد العرب الأكبر إبراهيم عليه السلام بناءه من حجارة الجبال ، وعاونه ابنه إسماعيل ، الذى فجر له الله ماء زمزم حين كان طفلا ، رحمة به وبأمه ، حين تركهما إبراهيم بصحراء مكة ، هذه البئر التى رأيت فى منامك أنك تقوم بإعادة حفرها ، بعد أن طمرتها السنوات ، وعندما قصصت رؤياك على أهل مكة ، سخروا منك ، واستهزءوا بك، ولكنك أصررت على حفرها تنفيذا للأمر الذى أمرت به فى منامك ، وحين تكشف ما طمر بها من دروع وذهب أرادوا أن يشاركوك الحفر، ولكنك رفضت أن ينال ذلك الشرف أحد غيرك ، ورحت تحفر ، ولا يصدهم ، ولا يردهم عنك سوى ابنك الحارث ، هنا أقسمت : لئن رزقك الله بعشرة من الأبناء ليذودوا عنك ، ويردوا أذى قريش فإنك ذابح أحدهم قربانا لله .

ومرت السنون ..

ومن الله عليك بالأبناء العشرة ..

وكان عليك الوفاء بالنذر ..

وليكون العدل هو الشرعة ، قبلت الاحتكام إلى هبل ..

وضربت القداح و بها أسماء أبناؤك العشرة ..

وحتى يكون الابتلاء شديدا ، خرجت القداح على اسم : عبد الله .

وكان الوفاء صعبا ..

وكان الحنث أصعب ..

وما أشد الشبه بما حدث لجدك إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، وما هو حادث لك يا عبد المطلب ، حين أخذت عبد الله بيد ، وباليد الأخرى السكين ، وها أنت ذا تتجه بعبد الله إلى حيث تقدم قريش قرابينها و تذبحها تحت قدمى : إساف ونائلة ، وأبناؤك حولك يبكون .

وانتشر الخبر بسرعة انتشار الرمال حين تحركها الزوابع بين من كانوا بالكعبة ، ثم سرى بسرعة الريح فى أنحاء مكة ، فالتف من حولك الناس ، وتحوطوا بك ، فأصبحت تشق طريقك بصعوبة ، وأبناؤك لا يذودون عنك ، ولا يقرونك على ما تريد فعله بأخيهم .

وحين تمكنت من الوصول إلى أسفل الصنمين ، وأنخت عبد الله ، ووضعت خده فوق الثرى ، وارتفعت السكين يلمع نصلها تحت أشعة الشمس الحارقة ؛ إذا بابنك الحارث يلتاث ويجأر بالصراخ ، ثم يجذب أخاه من تحت ساقك ، فيخمش التراب خده ويسيل الدم على وجه عبد الله الطيب ، ويذوب قلبك ألما وحزنا ..

: ألا يرحموك من محاولة الذبح ، فمن أدراهم أنك لست الذابح ، ولكنك أنت الذبيح ؟! .

ورغم آلام نفسك الشديدة ، تصر على معاودة الإمساك بعبد الله مرة أخرى لتذبحه؛ وفى هذه المرة لم يكن أولادك فقط هم مانعوك ، ولكن قريشا كلها أصبحت مانعتك حتى لا تستن سنة تروع مكة ومن فيها ، فيباح للرجل ذبح أولاده الذكور قرابين .

: أفلا يكفيك ويكفيهم أنكم تئدون البنات ، وتدفنوهن أحياء خشية العار والفاقة ؟! .

وتنادى الجميع بالاحتكام إلى كاهنة من طيبة ، تستطيع أن تفتى بالرأى فى مثل هذه المواقف ، وقد كان ، وزحفت الجموع إلى حافة الجبل حيث تقيم الكاهنة ، وحين عرض الأمر عليها ، قالت :

ـ كم فداء الرجل فيكم ؟ .

قالوا :

ـ عشرة من الإبل .

قالت :

ـ إذا فاحتكموا إلى القداح ، وزيدوا الفداء حتى تخرج الأسهم على الإبل .

وتنادى القرشيون :

ـ الفداء .. الفداء .

وبدأ الفداء بعشرة من الإبل ، وخرجت القداح على عبد الله ، وأخذ رقم الفداء يكبر ويكبر ، حتى وصل إلى مائة من الإبل ، عندئذ خرجت القداح على الإبل ، فذبحت جميعها فى ساحة الكعبة ، وتركت لمن يريد أن يأكل من : إنسان ، أو وحش وطير .

كل هذه الأحداث جرت بهذا المكان ..

.. وكل ما مضى من العمر ، قضيت أكثره بهذا الركن من الكعبة ، فى خدمة البيت ، وخدمة زوار البيت ، تقدم الطعام والشراب والكساء ، لمن يريد ، فإن إكرام ضيوف الرحمن واجب ، بل هو شرف لا يطاوله شرف آخر .

فهذا بيت الله ، وهو لله ..

أما هذا الحبشى الذى رام هدم البيت غيرة وحقدا ، ليحج العرب إلى كنيسته التى بناها بتسخير الناس ، وجبرهم على البناء تحت نار البطش والخوف ، فلقد بناها تفاخرا بنفسه ، وتقربا لمليكه ؛ فهو بناها لإمبراطوره ، ولم يبنها لله ؛ أما هذا البيت فمنذ وجد وهو لله .

لقد دعا جدنا الأكبر إبراهيم ، وهو يرفع القواعد من البيت : أن رب اجعل هذا البلد آمنا ، وارزق أهله من الثمرات ، واجعل يا رب أفئدة من الناس تهوى قلوبها وتحن وتئن شوقا وحنينا إليه ، فتسعى ملهوفة لزيارته ، تبحث حوله عن التطهر والطمأنينة .

وحقق الله الدعاء والرجاء ..

وتعلقت القلوب بالبيت ، وبقيت على تعلقها لا تحيد ، ولم تصرفهم الطواغيت أو الأصنام عنه : فهم يبدءون طائفين به ، ثم يذهبون إلى أصنامهم ، وقبل أن يغادروا مكة يعاودون الطواف مستأذنين قبيل الرحيل ؛ فالبيت هو البدء وهو الانتهاء .

: اللهم زد بيتك تكريما ومعزة وفخرا .

: اللهم أنزل بأبرهة غضبك وسخطك .

: اللهم إن البيت بيتك والحرم حرمك .

: اللهم لا تمكن من بيتك ظالما أو جبارا ، واجعله اللهم آمنا وأمانا للناس .

- ٦ -

أشرقت الشمس بنور ربها ..

وعبد المطلب ماكث بالكعبة ، لم يغادر الحجر، ولم تنم له عين ، ولم يتوقف لسانه عن طلب الغوث من الله، ولم ينتبه إلى شروق الشمس ، إلا حين تناهت إلى سمعه أصوات أعجمية آتية من بعد ليس بالبعيد ، كانت الأصوات مختلطة بصوت صراخ ثاقب ، ليس بحال صراخ إنسان أو حيوان ، فهو صراخ تقشعر منه الأبدان ، وتكتئب له النفوس ، صراخ شؤم ، ونذير خراب .

رفع عبد المطلب رأسه إلى السماء ينظر ، وقد حجبت الشمس فجأة ، وكادت الظلمة أن تحل فى غير ميعاد ، ولكن سرعان ما تبين له السبب ، فلقد اندفعت أسراب من طير سود ، فى أفواج متلاحمة يتقدمها قائد فى صدره حمرة كأنها الدم ، طوفت فوق مكة .

وخر عبد المطلب ساجدا ينتحب ، فلم تحتمل أذناه صراخ الطيور الغاضب ، ولم تحتمل نفسه المرهفة ما جال بخاطره من أنه قد جاء أهل مكة الهلاك ، لتقاعسهم عن حرب أبرهة دفاعا عن بيت الله .

ولكن الطيور لم تبق فوق مكة ، بل اتجهت إلى حيث جيش أبرهة ، وبدأ عصف الرياح يشتد ، ويشتد ، وأصبح وقوع بلاء عظيم ، أمر لا مفر منه .

وهدأت نفس عبد المطلب ، وهرول إلى باب الكعبة ، يتعلق بالأستار ، ويجأر مستغيثا بالله :

- اللهم اجعل غضبك على من عاداك ، فنحن رب نعيش فى ظل حماك .

- ٧ -

حمل العبيد بقايا طعام الإفطار من أمام أبرهة ، لكنهم تساقطوا فجأة حين وصلوا إلى باب الخيمة ، لقد فاجأتهم ريح عاصف ، اعتذر كبير الخدم للملك ، وأسرع إلى أتباعه يضربهم بالسوط ، ويستحثهم على الوقوف ، والعبيد يكافحون الريح ما وسعهم ، ويلتقطون الأوانى من فوق الأرض فى سرعة باحثين عن ملاذ يبعدهم عن غضبة الملك .

اندفع قائد الجند يعلن للملك ، وهو فى قمة الخوف والعجب:

- إن الفيل لا يريد أن يتحرك من مكانه يا مولاى !! .

صاح أبرهة فى حنق :

- اضربوه .

قال قائد الجند فى كمد :

- ضربناه يا مولاى فنهض يجرى مبتعدا عن مكة .

زمجر أبرهة ، وهو يستعيد الوجه الهادئ للهاشمى ، وصاح قائلا :

- سخنوا الرماح وأحرقوا بها جلده .

طحن قائد الجند ضروسه من الغيظ ، وتمتم :

- فعلنا به ما هو أشد وأنكى ، ولكنه انكفأ على وجهه لا يريد حراكا .

اشتد صوت الصراخ بالخارج ، بعد أن كان يفد ضعيفا ، استدار الملك يصعد هودجه معلنا بدء التحرك لاجتياح مكة ، وتدمير البيت ، وهو يتساءل غاضبا :

- ما هذا الصراخ المزعج يا قائد الجند ؟! .

- إنه صراخ الفيل يا مولاى .

ـ ليس الفيل وحده الذى يصرخ ، فأنا أسمع الجند أيضا يصرخون ؟! .. وما بالك أنت أيضا تصرخ يا قائد الجند ؟! .
لم يرد قائد الجند على مليكه، خرق كل الأعراف، ولم يرد، فلقد اخترق حجر أسود مسوم جدار رأسه فقتله.

كانت الحجارة تتساقط من السماء ، ترمى بها الطير الأبابيل فتخترق كل ما يقف فى طريقها ، وكان الجند يفرون متخبطين فى كل الاتجاهات يبحثون عن ملاذ ، أو سبيل إلى فرار ، ولكن أين المفر من قضاء الله ؟ .

.. لحظات .
ثم أصبح الثعبان الضخم ، أشلاء مبعثرة فوق رمال الصحراء كعصف مأكول .

ـ ٨ ـ

كان عبد المطلب ما زال قابعا أمام باب الكعبة ينظر إلى السماء ، وقد اغتسلت شعيرات ذقنه من كثرة ما سال عليها من دمع ، وإن كان قد غادره الروع القديم ، فلقد تيقن من كون الطير لن تعود إلى قريتهم ، وإن ظل يعجب لتواصل صراخها ولارتفاعها ثم انقضاضها على الصحراء حول مكة ؛ وزاد عجبه حين لحظ أن أبرهة لم يفد إلى مكة ، ولم يبدو على مدى البصر أثر لجنده ، فهل تراه عدل عن جنونه وعاد إلى دياره ، ولم لا : فها هو ذا السكون قد عم ، وها هى ذى الشمس قد عادت تشرق فى زهو من جديد .
استدار عبد المطلب يخطو متجها حيث ربط فرسه ، فركبها ، ثم اندفع بها إلى حيث عسكر بالأمس جند الحبشى ، وهو واثق من كون غوث الله قد حل ؛ وكأن ريحا قد نقلته فى لحظات معدودات ، فلقد وجد نفسه وسط مشهد مهول : لقد تحول معسكر الأمس إلى نثار مبعثرة فوق الرمال ، أما الجند فلقد أصبحوا كأعجاز نخل خاوية ، وتناثرت جثثهم على مدى اتساع الصحراء .
أخذ ينظر مشدوها ، فلو أنه تخيل انتقاما يحل بأعداء بيت الله ، ما وصل به خياله مهما بلغ به الشطط ، إلى هذه الصورة التى يراها رأى العين ، وقد حلت بجند أبرهة ؛ وحين استعاد نفسه من شدة الهول الذى رأى ، صاح مكبرا مهللا ، ثم عاد ينهب الأرض بفرسه نهبا ، ليحمل البشرى إلى من لم يدركوا قوله حين قال : إن للبيت ربا يحميه .
صعد عبد المطلب ذرا جبل حراء وراح يجأر بالبشرى ، والجبال تؤوب معه :
ـ يا أهل مكة عودوا إلى دياركم لقد أتم الله نصره ، وأهلك أبرهة وجنده ، وبيت الله آمن ، وأنتم آمنون بأمنه.
انحدر أهل مكة من فوق الجبال والتلال يتكفأون ، وقد ذبلت جفونهم وتقرحت نتيجة ليل طويل قضوه ، لم تغمض لهم فيه عين ، وهو ما لم تخفه صيحات الفرحة والتهليل التى أطلقوها .
وما إن عادت الدور إلى سابق عهدها ، حتى سارع أهلها بهجرها ثانية ، ولكن ياله من حال غير الحال ؛ لقد كانوا فى هجرتهم الأولى منكسرين حزانى يتعثر بهم الخطو ، أما فى هجرتهم الآن فهم يلغطون ويهمون ، بل يتسابقون إلى الأرض التى أعمل الله فيها القتل بجند أبرهة ، وسبحان الله العلى القدير : هاهم أولاء أهل مكة الذين فروا ونأوا عن القتال ، يغنمون جند الغزو .

عبد الله بن عبد المطلب ، هو وحده الذى لم يندفع مع الذين تدافعوا يتقاتلون على غنم ما تناثر فوق الرمال من سلاح ومال وملبس ، و كان هذا أمرا معتادا منه ، فهذا حاله دائما منذ الفداء ، فهو دائم الشرود ، راغب عن الدنيا ومتاعها ؛ لذا راح أقرانه ينادون عليه ، قائلين :

ـ هلم عبد الله لتنال لوليدك مغنما .

ولكنه لم يكن منتبها لندائهم ، فلقد كان فكره مشغولا بسؤال لم تنتبه قريش إليه ، قفز يؤرق باله : كيف ستدفن قريش كل هذه الجثث قبل أن يدركها العفن ، فتنشر الأوبئة والبلاء ليفتك بهم ؟.

وتمزق فؤاد عبد الله خوفا على من يسكن بطن زوجه ، فتأوه زافر : وا طفلاه .

وكأنما تجاوبت السماء لزفرته ، فلقد زأرت الريح ونفرت ، وهاج البحر البعيد هياجا عظيما ، حتى أصبح زئير الموج يصل إلى آذانهم ؛ و تصايح الرعاة من فوق قمم الجبال محذرين :

ـ الطوفان .. الطوفان .

ـ ٩ ـ

أصاب القوم خوف شديد ، حين وصل إلى آذانهم صوت النذير مختلطا بزئير البحر ، فاندفعوا يهربون متدافعين بما غنموا ، لائذين بديارهم ، بل لقد داس بعضهم بعضهم بعضا ، وهم يتصايحون :

ـ النجاة .. النجاة .

وفى سرعة البرق خلت الصحراء من كل تلك الآلاف المتصايحة ، وران عليها صمت عظيم ، صمت البشر حين تكاد أنفاسهم أن تتوقف ترقبا لهول لا يستطيعون له دفعا ، وقد أحاط بهم من كل جانب ؛ والسؤال الملح لا ينفك يطرق بالعنف عقولهم :

.. أتراه الطوفان سيهلكهم كما أهلك قوم نوح ؟! .

أسرع الرجال إلى دار الندوة ، يلتمسون عبد المطلب فلم يجدوه ، وعثروا به متعلقا بباب الكعبة ، يطلب رحمة الله وعفوه ، تركوه حتى انتهى من دعائه ثم التفوا حوله متصايحين :

ـ يا عبد المطلب ، لقد منعتنا عن حرب أبرهة .

ـ وهل كانت لكم القدرة على حربه ؟ .

ـ كنا سنناوشه ، نكر عليه و نفر .

ـ ثم ماذا ؟! .

ـ ينزل عليه غضب السماء فنتفاخر بهزيمته بين العرب .

ـ ومن أدراكم بأن الله كان سيرسل عليه طيرا أبابيل إذا ما كررتم عليه وفررتم ؛ هل كنتم ستنالون الفخار ، أو الهزيمة والعار ؟! .

ـ ولكن رب البيت غاضب علينا لعدم حربنا آبرهة ، وها هو ذا قد أرسل علينا الطوفان ليهدم بيوتنا ، وليدمر قريتنا .

ـ يا قوم ثوبوا إلى رشدكم والتزموا دوركم ، فلو كان ما سيحيق بنا الطوفان لهلكنا من لحظتنا ، كما أهلك قوم نوح ، وكما أهلك فرعون وجنوده .

.. ولم يكن أمامهم إلا أن ينصرفوا عنه .

فماذا تراهم فاعلين ؟! .

وماذا يملكون غير الترقب والانتظار ؟ .

دون نوم ..
ولليلة الثانية ..
عاش أهل مكة يتسمعون أصوات الحراس الذين بثوهم فوق كل مرتفع ، يرقبون حركة الماء لينبهوهم ليفروا إلى رؤوس الجبال قبل أن يدركهم الماء فيغرقهم .
ظلت الرياح تزمجر ، وعواء الموج يزداد اقترابا من آذانهم ، لكن الحراس لم ينبهوا إلى إحداق الخطر بهم ، فلعله الوهم يجسم مخاوفهم ، ويوقع الرعب فى قلوبهم .
مع إشراقة الفجر ..
هدأت الرياح ، ثم همدت ، ولم يعد يسمع إلا صوت غثاء الغنم والإبل ، ثم بدأت الديكة صياحها المعتاد مع تساقط حبات المطر .
.. وحلت السكينة بالنفوس .
.. وانهارت الأجساد المنهكة تبحث عن نوم مطمئن طال الشوق إليه ، أما الرمال فقد عادت إلى صفرتها واستوائها بعد أن جرفت الأمواج فى عودتها جثث الموتى من جند أبرهة لتدفن فى قاع البحر ، بينما استمرت السماء تبج المطر بجا ، فكأنما الصحراء تتطهر من دنس أعداء بيت الله .
.. وأوفى عبد المطلب بما عاهد عليه ، ونحر الإبل التى استعادها من الأشرم ، وتركها مباحة لكل محتاج للحومها أو لجلودها يأخذ منها ما شاء حين يشاء .
.. وفى شموخ ، كانت الكعبة تستقبل الطائفين والعاكفين ، وقد زاد قدرها وسمت منزلتها ، وظل عبد المطلب لا يمل مرددا لكل من يفد من الحجيج :
- ألم أقل لكم إن للبيت ربا يحميه ، وأنه لن يناله ظالم بظلم ، ولا معتد بإثم .
وكانت آمنة زوجة عبد الله لا تنى تتلمس جنينها فى حب شديد ، وتقول لأبيه فى يقين كامل :
- ورب البيت إن كل هذه المعجزات التى تحدث لتمهد للرؤيا التى رأيتها ، ولكرامة ابننا الذى ستنير لمولده قصور بصرى .
.. أما القسيسون والرهبان فلقد رأوا فيما حدث البشارة الأولى لقرب الميلاد العظيم لأحمد الذى هو مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل ، وأضمروها نارا تأكل قلوبهم حقدا وغيرة ، ولم يعلنوها ، بعد أن تبين لهم أن وفوده سيكون من مكة .

.. وعن أبرهة فيروى التاريخ أن الطاعون قد أصابه وهو فى طريق عودته ، وأن لحمه كان يتساقط نتفا ، وعاش ما عاش من أيام منبوذا ، حتى من خدمه الذين كانوا يفرون منه ، خوفا من أن يصيبهم ما أصابه من بلاء ، إلى أن انفجر قلبه ، وانفرطت عظامه رميما .

الفصل الثانى : **اليتيم**

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سورة الضحى

- ١ -

.. لا يدرى عبد الله سببا لذلك الحزن الذى سكن قلبه ، منذ عرف بأنه مسافر إلى الشام فى تجارة لقومه .

فرغم هربه من قيظ مكة إلى صيف الشام الرطب ، ورغم المغنم المالى الذى سيعود عليه ، ورغم كون اختياره من بين آل هاشم لهذه الرحلة يعد شرفا كبيرا له : فهو لم يزل بعد على مشارف العشرين من عمره ، وهناك من اخوته وأبناء عمومته ، من هم أكبر منه سنا ، واعظم حنكة ، وأكثر منه استحقاقا لهذا الشرف ؛ ثم إن هذه الرحلة لها تميز خاص ، فهى أول رحلة تخرج من مكة إلى غيرها من القرى ، بعد هلاك أبرهة وجنده ، وهو أمر سوف تتساءل عنه الأقوام ، وتحيط أصحابه من القرشيين بما هم أهل له من الكرامة التى أظهرها الله فيهم .

لذا كان القرشيون يعرفون بأن وصول قافلتهم إلى الشام ، سوف يكون مثار اهتمام أهلها ، ويجعل أفرادها الأولى بالرعاية من دون كل قوافل الدنيا التى تفد إليهم .

وهكذا سيكون عبد الله وأقرانه محط الأنظار ، وهو ما يدفع بدفء الفخار فى الأوصال ، فيثير فيهم الحمية والإقبال على السفر ، ويهون عليهم من آلام البعاد عن الأهل .

.. ورغم معرفة عبد الله بهذا جميعه ، فإن المشاعر الحزينة ، كانت تغلف كل كيانه ، وتنثر الحزن والكآبة فى حنايا نفسه .

راح عبد الله يبحث فى أعماقه عن سبب هذا الشعور ، الذى يشذ به عمن حوله من مظاهر الفرح والحبور ؛ فلعله حزين لفراق زوجته آمنة وحنة العرس مازالت تضمخ كفيها ؟.. ولم لا يكون سبب ذلك هو فراقه للجنين الذى بدأ يتحرك فى بطنها ، وهو يغادره ولا يعرف له جنسا ولا كنية ، انه وليده الأول ، ويكفى أى أب أن يعرف بأنه سوف يرزق بالخلف فلا يتلقفه بين يديه ، ولا تكون عيناه أول من تحتضن ملامحه بين الجفنين ، لتنمو داخله لحظة السفر كل مشاعر الكره لهذا الرحيل ..

: ترى كيف ستكون ملامحه ؟..

: هل ستكون مثل ملامح أبيه ، أم ستكون كملامح أمه ؟!.

: ترى هل سيتحقق ما قالت به آمنة ، من أنه ستضىء لمقدمه قصور بصرى بالشام ، وهل سيرى هذا النور الذى سيغمر الكون وهو هناك ؟!.

: وا لهفتاه على صغيرى .

.. فاض الوجد بعبد الله ، فقال يوصى زوجه :

- يا آمنة أوصيك بوليدنا خيرا ، كونى له حبا ، وأرضعيه شجاعة وفخرا .

وقال لأبيه وهو يضمه إلى صدره مودعا :

- يا أبت أوصيك بوليدى خيرا ، كن له خير أب ، وخير معين على قدر ما سوف أغيب .

.. ثم أسرع عبد الله مبتعدا قبل أن تفيض عبراته .

تحركت قافلة الجمال إلى خارج مكة ، وكان القرشيون على عادتهم فى وداع قوافلهم ، قد تجمعوا رجالا ونساء ، أطفالا وشيوخا ، يهزجون ويتنادون .

وحين اختفت ملامح الأحبة مبتعدة ، حتى صارت خيالات ضبابية مبهمة بلا ملامح ولا تفاصيل ، كفت أصوات الدفوف عن الدوى ، والتصقت أكف الضاربين فوق جلدها ، وكأنها تتحسس جلد من رحلوا .

لحظات ، ولحظات من المتابعة ، ثم بدأت الأرجل تشعر بثقل الأجساد فوقها ، فتحرك الجمع عائدا إلى مكة بأحزان من انفصلت عنهم أكبادهم ، ليواجهوا المجهول الذى يتربص بمن فارقوا ، فالطريق إلى الشام شاق .. شاق ، والمخاطر فيه جمة : فهى إن لم تأت من عصابات القتل والنهب والسلب ، جاءت من وحوش الصحراء ، أو من الصحراء ذاتها برمالها

المتحركة التى تبتلع من يلجها من إنسان أو حيوان ، أو من خداع مسالكها ، فإذا ما حادت قافلة عن الدرب هلكت.

توارت أشعة الشمس مسرعة ، وكأنها تؤكد أن الرحيل من سمات الحياة ، فها هى ذى خيوط النور تنسحب وتأفل ، لتترك خيوط الظلمة تغذ وتسيطر ، وما أقساها ظلمة الليل على النسوة اللائى فقدن الائتناس بغياب الولد أو الزوج ، فالنوم يمسى كافتراش شوك الصبار ، فيصير النوم على رمال الصحراء فى الهجير أهون منه بكثير .

كانت آمنة تعيش لحظات وحدتها ، تتأمل ذكريات رواجها من عبد الله ، وكيف جاء عبد المطلب سيد قريش يطلبها لابنه من أبيها ، وكيف أدخلت طلعة عبد الله من النظرة الأولى البهجة على قلبها ، ولما عرفت بأنه عبد الله المفتدى ، اشتعل قلبها حبا ، وامتلأت فخرا بأن تكون زوجا لأغلى شباب قريش وأعزهم : فمن من بين شبابها جميعا تم فداؤه بمائة من الإبل ، غير عبد الله ؟.. ومن من شباب قريش تنافست عليه بناتها ، ورفضهن جميعا ، بمن فيهن تلك اليهودية ذات الحسب والنسب ، والتى عرضت عليه أن تهبه مهرا مائتين من الإبل ليطأها ، غير عبد الله ؛ ثم أتاها هى ، وهى وحدها من دونهن جميعا ، وتزوجها ، وأودع فى أحشائها أغلى هدية ..

: ولكن ها هو ذا عبد الله قد بعد عنها ، وآه يا عبد الله من فراق الأحبة .

: ولكن لم اختاروك أنت من بين شباب قريش ، وهم بالمئات ، ولم يختاروا غيرك ؟.

.. هل يريدون منك أن تحكى فى الشام قصة الفداء ، أو يريدون أن تروى قصة اندحار أبرهة ؟!.

ولما فاض بآمنة الوجد ، قامت من جلستها متجهة إلى فراشها ، فلعل النوم مدركها برحمة الله ، وأثناء بحثها عن النوم راحت تتلمس ما ببطنها ، فلقد كانت تجد فى ذلك الجنين الذى حملته هونا على هون الأمن والراحة ، وقبل أن يستغرقها النوم ، تمتمت بمكنون قلبها ، فتنهدت قائلة :

- لهفى أنا على عودتك يا عبد الله .

- ٢ -

كان عبد الله فى طريق عودته من الشام إلى مكة ، وقد ساد أفراد القافلة حال من الحبور والفرحة ، فلقد باعوا ما كانوا يحملونه للبيع ، وربحت تجارتهم ربحا وفيرا ، واشتروا ما طلب منهم شراؤه ، مما يحتاج إليه أهلهم بمكة لأنفسهم أو ليبيعوه لأهل اليمن فى رحلة الشتاء ، بأرخص الأسعار ، ولقد تم هذا فى أيام قليلات ، هى أقل بكثير مما قيل لهم إنها استغرقت القوافل السابقة .

.. ركب من ركب الجمال فوق الأحمال ، وسار على قدميه من فضل المسير ، وارتفع حداء قائد القافلة ، يستحث الإبل على الإسراع ، ويبثها شوقه إلى الديار والأحبة الذين فارقوهم منذ أسابيع ؛ كان الصوت شجيا ، أثار فى عبد الله مشاعر الألم والحزن التى كمنت بداخله منذ غادر مكة ، وباعدت بينه وبين أماكن اللهو والسمر ، وجعلته مصدرا للكآبة بين أقرانه ، ثم ها هو ذا غناء الحادى يؤجج مشاعر الحنين لأولئك الذين فارقهم على غير هواه ، بدلا من أن يبعث فى نفسه الفرحة بقرب العودة ، فعبد الله لم يعد يطيق استمرار البعاد ولو للحظة واحدة ، حتى انه كلما تطلع ببصره إلى السماء يتمنى لو كان صقرا يشق الفضاء بجناحيه ، فيقطع المسافات التى تفصله عن آمنة فى طرفة عين ، بدلا من هذا الزحف البطىء للإبل الذى يأكل العمر أكلا .

غشيت عينى عبد الله سحابة من الدمع ، فراح يخفيها بطرف عباءته عمن حوله ، بينما أخذت أصابعه تخترق كومة الأقمشة التى يجلس فوقها ، متحسسة ملمس الحرير ، فذاك هو

الثوب الذى اشتراه لآمنة ، وهذا ملمس البردة الدمشقية التى تخيرها من بين عشرات لابنه ، الذى لم تنقطع صورته التى تمناه عليها ، عن عينيه فى صحوه ونومه ، وفاضت دموع عبد الله مرة ثانية ، وملأه شعور قوى بأنه لن يعود إلى داره ، ولن يرى زوجته ، ولن يشهد لحظة مولد ابنه !!.

.. وعندما لاحت مشارف طيبة للعيون ، ارتفعت حرارة جسد عبد الله ، وبدأ يشعر بآلام شديدة تنمو وتشتد وتنتشر داخل جسده وتوهن قواه ، وما إن وصلت القافلة إلى طيبة حتى انهار تحت شدة المرض ، ولم يعد قادرا على مواصلة طريق العودة .

قرر سادة القافلة أن يخلفوه عند أخواله من بنى النجار بطيبة ، ليعتنوا به حتى يشفى ويستطيع مواصلة السفر ، ولما تم لهم ما أرادوا ، ومع أول خيوط الظلام ، بدأت القافلة تشق ليل الصحراء إلى مكة ، ولم ينس عبد الله ، رغم الآلام الرهيبة التى تفتت عظامه وتسحقه سحقا ، أن يرسل مع الذين كان حظهم أحسن منه ، بالهدايا التى اشتراها لآمنة وللوليد .

ـ ٣ ـ

طاف البشير بدور قريش يعلن عن قرب وصول القافلة ، ولما آن الأوان ، خرج سكان القرية عن بكرة أبيهم يستقبلون بالفرحة الذين طال الشوق إلى عودتهم ، معبرين عن فرحتهم بالغناء ، تشاركهم الدفوف والأكف فى ضبط الإيقاع .

جالت العينان الكليلتان فى لهفة بالموجودين ، مرات .. ومرات ، بحثا عن عبد الله فلم تبصرا به بين الوجوه ، ثم لم تعد هناك طاقة على الصبر ، وانفجر اللسان بالسؤال :

ـ أين عبد الله ، أين ولدى ؟!.

سكت سادة القافلة للحظات ، وحين تكرر السؤال ، أجابوه مشفقين على الكهل ، فهم يعرفون شدة حبه للغائب، قالوا :

ـ خلفناه عند أخواله بطيبة .. مريضا .

تباطأت دقات قلب آمنة ، حين سمعت بغياب زوجها ، انسحب الشوق وانفعالات اللقاء ، وتحول وجيب القلب إلى عويل مكتوم ، لكنه انفلت فى صرخة داوية حين ناولوها هداياه ، وأوجعها سؤال دوى فى أعماقها ..

: أيولد ولدى فلا تشرق بالرضا فى وجهى بسمة عبد الله ؟.

بكت وتوسلت إلى عبد المطلب أن يرسل إلى طيبة بمن يطفئ نار القلق على الغائب ، ولم يكن الشيخ فى حاجة إلى من يستنفره ، فلقد كان فؤاده ينتفض ألما بعد أن ذبحه خبر المريض ذبحا ، صاح باللوعة قائلا :

ـ بأبى أنت وأمى يا عبد الله .

.. ثم أسرع إلى مجلسه بالكعبة ، فوجد أبناءه قد تجمعوا فى حزن يتناجون ، وقد أصابهم النبأ بالغم فلم يعبئوا بما وصلهم من مال وفير ، ولم يفضوا أغطية ما ابتاع لهم أخوهم من بضاعة طلبوا منه شراءها من الشام ، وكانوا لا ينقطعون عن الحديث فى لهفة حول موعد وصولها ، وكيف لهم أن يفرحوا وقد أصر عبد الله على أن يرسل مع القافلة مالهم من متاع ومال ، وكأنه يقول لهم : لقد برأت ذمتى أمامكم ، ولن أعود .

قال عبد المطلب :

ـ أخوكم مريض عند أخواله بطيبة ، وقلبى لا يجد راحة فى بعاده ، فبماذا تشيرون ؟.

قال عبد العزى معقبا فى همس كالفحيح :

ـ أليس هو من كنت تريد ذبحه يا أبانا ؟!.

زجره الحارث ، يأمره بالسكوت ، قائلا :

ـ صه .. صه ، واللات والعزى ، إذا كان هناك من يستحق الذبح ، فهو أنت يا ميت القلب .

أشار عبد المطلب على أبنائه بالصمت ، فلقد رأى بوادر خلاف توشك أن تدب بينهم ، وكان عليه أن يفاجأهم بما يربك عقولهم ، ويوقف المشاحنة بينهم ، فأعلن قائلا:

ـ إننى راحل للحظتى إلى حيث ولدى .

.. ولكن الحارث اعترض قائلا :

ـ يا أبت إنك شيخ كبير ، ونحن عصبة ، فإن تأذن لى فإنى ذاهب إلى حيث تأمر .

قال عبد المطلب :

ـ بورك فيك يا حارث ، اذهب أنت إلى أخيك ، فأنت أحقنا به ، فلقد قاتلتنى يوم الذبح حتى تنجيه .

ـ ٤ ـ

ذهب الحارث إلى طيبة .

وكما ذهب عاد ..

ولكن شتان بين الحال والحال :

لقد ذهب يرافقه الأمل والشوق ، الأمل فى أن يجد عبد الله قد شفى ، والشوق لرؤية أحب الاخوة إلى قلبه .

.. وعاد والألم والحزن يعتصران فؤاده : الألم من أجل أخيه الذى رحل صغيرا ، فلم يتمتع بحياته فلم يصخب للدنيا ولم تصخب له ؛ والحزن من أجل الأب الذى جعله الأمل فى عودة الغائب لا يطيق مكوث الحارث بينهم للحظة ، بعد أن أعلن عن استعداده للسفر ، وطالبه بسرعة الرحيل وسرعة الإياب ، وزاد من مرارة الموقف ذلك اليتيم الذى ذاق مرارة اليتم وهو بعد جنين فى بطن آمنة ، وآه لو جاء أنثى فإن أكثر الأعمام لا محالة سيسارعون إلى مواراتها التراب ، فمن سيكون حاميا لها من بعد عبد الله .. وقد مات .

حين لاح الحارث مقبلا من بعد يقدم رجلا ويؤخر الأخرى ، هش الشيخ لمقدمه ، حتى أوشك أن ينهض لاستقباله ، ولكن ساقيه لم تسعفاه ، فظل جالسا يترقب ، ولما اكتشف أن الحارث يقف صامتا دون أن يذكر أخيه ، جف لعابه ، وتشققت حنجرته ، وتحشرج صوته سائلا :

ـ أراك قد عدت وخلفت أخاك ؟!.

اشرأبت الأعناق منتظرة ما سيقال ، حاول الحارث أن يناور ويؤخر الرد ، تحرك يبحث عن مكان يجلس فيه، وإن كان وجهه الحزين يفضح حقيقة ما حدث ، لكنه الأمل يمسح كل حقيقة لا يجهر بها ، جعل الأب يقول ، يستعجله :

ـ لم لم تأت بعبد الله يا حارث ؟!.

غمغم الحارث بكلمات متباعدة لا تكاد تبين :

ـ لقد اشتد عليه المرض ، وأعجز الأطبة ..

فى لهفة اليائس المشتاق لأن تدمره قسوة ما يخفيه الصمت ، قال عبد المطلب :

ـ قل الحقيقة ، وأوجعنا بها يا حارث .

خرجت الكلمات من فم الحارث فى سرعة ، فهو على حال من يحمل أثقالا ترهقه ، ويريد أن يرمى بها ليستريح :

ـ لقد مات عبد الله ، ودفنه أخواله بطيبة .

أصابت كلماته عبد المطلب بصدمة عظيمة ، فغاية ما كان ينتظر سماعه ، أن عبد الله لم يبرأ بعد من مرضه، أما أن يكون قد مات ، فهذا ما لم يكن فى الحسبان ، لذا فح متوجعا يقول لائما الحارث :

ـ ليتك ما أطعتنى ، ليتك ما أجبتنى ، ولا قلت .

.. وشهق الشيخ شهقة عظيمة ، واتسعت حدقتاه ، واحمر وجهه احمرارا شديدا ، حتى ظن أبناؤه أنه هالك لا محالة ، ولكنه تنهد تنهيدة طويلة وصرخ فى التياع :
- وا ذبيحاه .
وانكفأ وجه الشيخ مدفونا بين كفيه الكبيرتين ، وأجهش فى البكاء .
.. هنا فقط أدرك الأبناء أنهم لم يعودوا عشرة ، وأن أخا لهم قد مات ، فسالت الدموع تبلل شعر الذقون .

- ٥ -

.. كأنما وصلت صرخة عبد المطلب إلى أذنى آمنة ، ففى ذات اللحظة انهمرت دموعها وهى لا تدرى لبكائها سببا ، ولا لانقباض قلبها تبريرا ، وحين جاءتها النسوة صاخبات نائحات معزيات ، عرفت لدموعها تبريرا ، ولانقباض قلبها سببا ، فزاد نحيبها ، وراحت تنظر إلى ما ببطنها ، وهى تولول قائلة :
- وا زوجاه .. وا وليداه .. وا يتيماه .
زادت كلماتها نواح النسوة ،فلقد تجاوبت أعماقهن مع ألمها ، فهن يعلمن حال اليتيم فى قريش : فلا ميراث ولا حقوق ، ولا رعاية ، وآه .. آه لو ولدت آمنة بنتا، فإن وليدتها موءودة بلا رحمة، ولا شفقة بمن حملت وحلمت .
.. وأصبحت الباكيات النائحات ، يبكين حالهن لا حال آمنة ، وإن كان نداء الأعماق واحدا ..
: يا لغلظة قلوبكم يا رجال قريش ، تعطون للعبيد حقوقا أكثر مما تعطونه لنسائكم .
بعد وقت طال ، انفض موكب النائحات من حولها ، وجدت آمنة نفسها وحيدة ، ذاهلة ، لا تكاد تصدق أن ما سمعت ورأت حقيقة واقعة ، أو أنه حدث وكان ..
: أمعقول أن عبد الله قد رحل عن دنياها إلى الأبد ؟!.
: أهكذا سريعا تصبح أرملة لا عائل لها ، ولا بعل ، وهى فى لحظة وضع تكون فيها المرأة أحوج ما تكون للزوج .
.. انفرط قلبها حزنا ، ملأتها قتامة كادت تفجر كيانها ،ولكن تلك المخلوقات التى تأتيها منذ حملت ، وتشعر بها تحيطها وتحوم من حولها ، فأنست بها وأصبحت تهش لحضورها ، بعد أن كانت تخافها ويقشعر منها جلدها ، فهى لا تراها ولكنها تشعر بوجودها ، وتشم رائحتها عطرا رائعا يفوق رائحة المسك ؛ ها هى ذى تأتى لتملأ بالعطر خياشيمها ، وبالسكينة نفسها ، حتى أنها استكثرت على نفسها حال الهدوء الذى أصبحت عليه ، وخجلت منه وهى على ما هى عليه من حال الحزن ، وقد ألح عليها السؤال ..
: إلى أى مصير ستأخذ ابنى أيام اليتم ؟.
وجاءتها أجابتهم سريعة ..
: اطمانى ، ولا تأسى عليه .
قالت ..
: أخاف عليه من ظلم القرشيين ، وغلظة قلوبهم ، وهو ابن واحد وحيد بلا نصير من الاخوة ، ولا سند من الأب .
: لا تخافى فهو سيكون سيد هذه الأمة .
: ابنى سيد الأمة ، اليتيم ؟!!.
: يتمه لحكمة ، هو يتيم حتى لا يكون لإنسان فضل عليه ، فهو فى فضل الله ورعايته .
: أهو إلهكم .
: إلهنا وإله آبائنا ، وإله وليدك الذى سيدعو إلى عبادته .

: عبادة من ؟.
: الله الواحد ، خالق كل شئ .
: الله .
: الرزاق ، الكريم ، الرحمن ، الرحيم ، المحيى ،المميت ، يختص من يشاء بما يشاء ، ويجتبى من يشاء لما يشاء ، وهو على كل شئ قدير .
: سبحانه .
: سبحانه وتعالى علوا كبيرا .
: قلبى يقول لى كلما حضرتم ألا أخاف عليه ، ألا أخاف ؟.
: أبعد ما عرفت تخافين ؟.
: لا والله ، ما لى أن أخاف .
انتابت آمنة فرحة عظيمة ، حتى أنها تمنت لو ترى ابنها بين يديها، وقد كبر وساد قريشا، تساءلت فى شوق ..
: متى يجئ ؟.
: الاثنين ، ذلك القابل ؛ فإذا ما أهل قولى : أعيذه بالله الواحد من شر كل حاسد .

ـ ٦ ـ

اليــوم : الاثنين ـ الثانى عشر .
الشهـر : ربيع الأول .
السنـة : ٥٢ قبل الهجرة .
يا أيها الليل ما أعجبك ..
رأيناك قدر ما رأينا ..
ولكن على مثل هذه الحال ما رأيناك : فنجومك لا ترسل بنورها على حياء كما تعودنا ، ولكنها نجوم تتألق وتسطع متوهجة وكأنها الثريا ، حتى بدا نور القمر فى مواجهتا واهنا ، ثم ها هى ذى النجوم تقترب من الأرض : تدنو وتتدلى ، حتى باتت من الأرض قاب قوسين أو أدنى .
.. حين رفع الكاهن بصره إلى السماء ، ورأى حالها ، صرخ ملتاعا ، يقول :
ـ إنها والله ليلة مولده .
ثم أخذ يخور ويمور ويزأر ، ويجأر قائلا :
ـ ولد الهادى البشير ، ولد نبى الأمة الخاتم ، ولد إمام الحامدين .
منذ زمن ليس ببعيد ، جاء هذا الكاهن ، واستقر بين أهل مكة لا يغادرها ، وهم لا يعرفون له بلدا ، ولا اسما ، ولا يدرون لإقامته بينهم سببا ، وظلت غرابة تصرفاته ، وتقلب أطواره ، تلفت أنظارهم ، وتشد انتباههم إليه ، وإن ألفوا أفعاله ، وأكبروا فيه اهتمامه بحياتهم ، وكثرة سؤاله عن أحوالهم ، وكان أكثر ما يسأل عنه ، ويجذب اهتمامه خبر من يرزقون بالبنين ، ثم كشفت فراستهم ستره ، وأيقنوا أنه يترقب طفلا بذاته يعرف بشارته .
فلما كانت ليلتنا هذه ، أصابه ما أصابه ، وخرج عن وقاره المعهود ، وراح يجرى فى الطرقات ، يعترض طريق كل من يراه سائلا فى صراخ مخيف :
ـ هل ظهر فيكم الليلة مولود ؟.
فيجيبونه وهم ينأون عن طريقه :
ـ والله ما نعلمه .
ولم تكن إجاباتهم لتطفئ من ظمأ بحثه عن الحقيقة التى يعلم أنها واقعة فى هذه الليلة ، إن لم تكن قد وقعت ، فكل ما يرى حوله من المظاهر والآيات يؤكد مولد النبى المنتظر .

وكما أثارت العلامات مشاعر الكاهن وهيجته ، أثارت حاله حب الاستطلاع لدى القرشيين ، فراح من سألهم يسألون من يرونه ، قائلين :

ـ ألم يرزق أحد بطفل ؟.

حتى علموا بمولد طفل بدار عبد الله بن عبد المطلب ، أسرعوا إلى الكاهن يزفون إليه البشرى ، قائلين :

ـ لقد ولد اليتيم .

صاح فيهم متوسلا :

ـ خذونى إليه .

قالوا له :

ـ واللات والعزى ، إنا لأخذوك إلى جده .

ـ ٧ ـ

جاءت أم أيمن جارية آمنة إلى عبد المطلب بالكعبة ، مهللة تزف إليه البشرى ، قائلة:

ـ يا سيد قريش ، لقد رزقت بابن هو خير عوض لك عن ابنك عبد الله .

رفع عبد المطلب يديه إلى السماء شاكرا لله فضله ، ثم أسرع مع الجارية إلى بيت آمنة ، وهو يقول فى نفسه : يا لفرحة قلبى بمولد ابنى .

بالحب أودعت آمنة وليدها يدى جده ، فلما أخذه منها ذاب عبد المطلب وجدا ، وقد شعر بكل ذرات جسده تتقافز وتتحول إلى حب عظيم لذلك القادم للدنيا يتيما ، حتى لقد فاقت مشاعره فى هذه اللحظة ، ما شعر به لحظة احتضن عبد الله أحب الأبناء وأعزهم ، بعد أن أنقذ من الذبح ، وتم الفداء .

لقد تأجج كيان عبد المطلب بالوجد ،فراح ينتفض ، وتصطك أسنانه ، وكأنما أصابته الحمى ، حتى خاف أن يسقط الطفل من بين يديه ، فضمه إلى صدره بقوة ، وهو يتمنى لو ينشق صدره ، ليحتويه بداخله بعيدا عن كل تلك الدنايا ، فيحميه ويحتمى به من غدر الأيام .

.. كانت آمنة ترقب حال الجد بعين الرضا ، وهى تطمئن نفسها قائلة :

ـ والله إن ابنى ليجتاح القلوب بحبه ، وان له ربا يحميه .

.. ولما هدأ روع عبد المطلب ، قصت عليه آمنة ما جاءها من الهواتف ، وما رأت من رؤى ، وعبد المطلب ينصت إليها بكل جوارحه ، فلم يقاطعها بكلمة ، ولم يعارضها فى قول قالته ، هانئ بما يسمع ، منتش بما يحمل بين يديه ، وحين فرغت آمنة من كلامها ، قال :

ـ هو بإذن الله محمد ، وهو أحمد ، ومحمود ، وما رأيت يا آمنة هو تفسير لرؤياى التى رأيت فيها أنه قد خرجت من ظهرى سلسلة من فضة لتمتد عبر السماوات والأرض .

: سبحانك يا فعال لما تريد ، يا منطق مخلوقاتك بالحق حين تشاء .

: سبحانك يا من أنطقت عبد المطلب بما أمرت ، فأسمى حفيده محمدا ، وهو الشيخ الذى أنجب عشرة من الذكور ، فلم يخطر له أن يسمى أحدا منهم بالاسم الذى اخترته لنبيك ، فهو إمام الحامدون لله .

: .. وكيف لا يكون إمام الحامدين محمدا ؟.

: .. وكيف لا يفعل عبد المطلب هذا ، وقد جعلته يسمى الأب عبد الله ، حتى يكون الابن بالتبعية هو أيضا عبدا لله ، وهكذا جعلت محمدا : محمد عبد الله .

: سبحانك يا مالك الملك ، أبنت طريق نبيك منذ مولده .

فهل من متبصر ، ليبصر ؟.

حين هم عبد المطلب بالخروج إلى الكعبة ليطوف باليتيم ، إذا بالكاهن يقبل وخلفه قد تجمع الناس بالعشرات ، فما إن رأى الوليد بين يدى عبد المطلب، حتى انقض عليه يتفحصه فى لهفة، ثم استدار إلى الناس يصيح قائلا :

ـ والله إنه هو أحمد ، وإنه لجاعل لكم ولقريتكم شأنا وأى شأن .

ثم خر الكاهن على الأرض مغشيا عليه .

اخترق عبد المطلب الجموع الملتفة حول جسد الكاهن ، مبتعدا بحفيده وهو يحمله بين يديه ، بعيدا عن هذا الصخب ، وفى اعتزاز كان يقول لكل من يقابله :

ـ لقد رزقنا محمدا .

طاف عبد المطلب حول الكعبة بمحمد سبعة أشواط ، مهللا مكبرا ، متوسلا لله أن يحمى حفيده من كل شر وسوء، منشدا ما تفيض به عواطفه من جميل الشعر، وحين انتهى نحر العقيقة ووهبها لفقراء قريش ولأثريائها.

ـ ٨ ـ

مرت شهور ..

وكعادة شرفاء مكة مع أبنائهم ..

حملت أم أيمن محمدا وصحبتها سيدتها آمنة ، واتجهتا إلى سوق مكة ، حيث تتجمع المرضعات من قبيلة بنى سعد بن بكر ليصحبن مواليد سادة قريش معهن إلى مضاربهن ، حيث الهواء النقى واللسان الفصيح ، فيشب الأطفال فى جو يساعد -أبدانهم على أن تنمو معافاة ، وعلى سلامة لسان تجعل منهم الفصحاء ، نظير أجر يقضى إليهن ، ولقد كان عامهن هذا غير أى عام آخر ، فلقد انقطع المطر عن السقوط ، فامتنع الماء ، وندر الكلأ فجفت ضروع الأغنام ، وهزلت سنام الإبل ، وأصبح العثور على الطعام أمر نادر شحيح ، لهذا كانت مرضعات بنو سعد متلهفات على أن يصبن خيرا من وراء أطفال قريش ، فرحن يتنافسن على حضانة من يبدو عليهم الغنى من الأطفال ؛ وحين عرضت آمنة ابنها عليهن أبين أن يأخذنه ، فما حملته آمنة معها من زاد يبدو قليلا ، ويشى بضيق ذات اليد ، كما أنهن قد عرفن بموت أبيه ، فكلما سألن :

ـ من أبو الطفل ؟.

قالت آمنة :

ـ هو يتيم .

.. ومن هى التى تقدر على تحمل فم يزيد من همها ؟!.

كان محمد ملتصقا بصدر آمنة ، بعد أن أخذته من أم أيمن ، وهى بأخذه منها ، كانت تريد أن تخفف عنه مرارة الرفض والجفوة ، وأن تسقيه من حبها الصامت الذى يمور فى جوفها كالبركان مشتدا متحديا ، بعد أن نال الحبيب رفض المرضعات ، تتمنى لو أنه يدرك أنه أعظم ، وأغلى ، وأعز، من كل أولئك الأطفال المتدثرين فى الحرير ، ولكن إذا كانت آمنة تعرف بهذا ، وتوقن بصدقه ، من أين لأولئك المرضعات العجفاوات أن يعرفن ؟!.

كادت آمنة أن تستدير لتغادر السوق، راجعة بحبيبها، وقد ملأ الدمع عينيها، فكفاها ما لاقت من مهانة، لذا راحت تتمتم لنفسها قائلة :

ـ والله ما ابنى بحاجة إلى نقاء هواء دياركم ، ولا إلى تعلم فصاحتكم ، فهو محفوظ من خالقه ، وسيعلمه ربه ويربيه فيحسن تعليمه وتربيته .

.. ولكن مع استدارتها للرحيل ، انتبهت إلى أن تلك المرضعة العجفاء التى لم تحول عينيها لحظة عن محمد ، تشير إليها فى تردد ، لكى تقبل عليها .

كانت حليمة منذ وفدت إلى السوق ، ترغب فى أخذ محمد ، ولكن : حمارها الأعجف ، وناقتها المتهالكة ، ومعدتها الخاوية ، وبكاء ابنها الذى لا يجد فى ثدييها ما يسكت جوعه ؛ كل هذا كان يمنعها من الإقدام على تنفيذ ما تريد ، ولكنها فى النهاية لم تستطع أن تقاوم ، ومدت يديها تتناوله من أمه فى لهفة وشوق ، لا تدرى لهما سببا ، فلقد حنت إليه كحنينها إلى ابنها أو أشد .

حين استقر الحبيب محمد على صدر حليمة ، شعرت بالأسف لأجله ،فلكم كانت تتمنى لو أن حالها كان خيرا مما هى فيه ، لتستطيع أن تغدق عليه من الخير تعبيرا عن تعلقها به ؛ ولقد تمنت آمنة ـ فى تلك اللحظة ـ لو أن لديها الكثير من الزاد لتغدق به على تلك التى أحبت ابنها !!.

كان الحياء يلجم لسان المرأتين ، فلم تنطقا بكلمة ، وإن تبادلتا نظرات تفيض بالخجل والشفقة ، ولكن قلب آمنة لم يطاوعها على طول الصمت ، وقد بدأت المرضعات يعلن بالرحيل ، قالت فى رجاء :

ـ كونى له خير أم ، وإنك ورب البيت لن تكونى على أخذه نادمة .

ضمته حليمة بالإخلاص إلى صدرها ، وكأنها تدعوها لأن تطمئن ، ففاض صدرها منتفضا بالحياة ، حتى أنها لم تعد تحتمل الفيض ، فألقمت اليتيم ثديها فرضع وارتوى ، وهى ذاهلة مما اعتراها ، وآمنة ترقب ما يحدث ، وقد أضاء وجهها بنور الرضا ، واقتربت تربت على كتف حليمة ، وهى تعيد ما قالت مؤكدة :

ـ ألم أقل لك ، انك لن تكونى على أخذه نادمة .

حيتها حليمة بابتسامة ، واستدارت تركب حمارها ، لتلحق بمن سبقنها عائدات إلى مضاربهم ، ولم تنصرف آمنة إلا بعد أن غابت حليمة ومحمد عن عينيها ، وإن لم يغب الحبيب عن فؤادها .

انطلقت الأتان كالريح بحليمة وولدها ، وهى فى عجب مما يحدث لها من خوارق منذ أخذت الطفل اليتيم : فها هو ذا صدرها قد فاض باللبن بعد أيام من الجدب ، ثم ها هو ذا أتانها يلحق بكل من سبقنها بالمسير ، بل ويسبقهن ، بل ها هى ذى ناقتهم العجفاء تتابع أتانها نشطة لا تشكو عرجا ، ولا تنيخ تعبا من حمل زوجها وابنها ، ولم تكن الدهشة والعجب هما حال حليمة وحدها ، بعد أن أصاب ما يحدث الركب كله بالذهول .

.. وسبحان مغير الأحوال .

ـ ٩ ـ

تقول حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية :

ـ حين رجعنا إلى مضاربنا ، ودخلنا دارنا ، كان الجوع والعطش قد اشتدا علينا ، فقلت لزوجى : قم فالتمس لنا قليلا من اللبن فى ضرع الناقة ، فنرتوى ونطعم .

ضحك صاحبى ساخرا من قولى ، فأى ناقة تلك التى ستدر اللبن ، وهى بالمعجزة استطاعت أن تحمله إلى مضاربنا ؟!!.

لكنه أطاعنى وقام على مضض ، وحمل معه إناء فارغا ، وغادرنا إلى حيث وقفت الناقة ، وحين عاد وجدت شدقيه مخضبين باللبن يلتمع عليهما الدسم فهللت .

قال زوجى وهو يناولنى الإناء ممتلئا حتى حافتيه ، ويرمق ابنى محمدا بنظرة شاكرة :

ـ أتعلمين يا حليمة ، والله انك قد جئتنا بنسمة مباركة .

قلت سعيدة :

ـ والله وإنى لأرجو ذلك .

.. وبتنا ليلتنا بخير حال .

فى الصباح خرج الرعيان بالأغنام ، إلى الأرض التى أجدبت ، فلم يصيبوا إلا الخيبة والبوار ، لكن غنمى حين عادت كانت شبعى ، وقد امتلأت ضروعها لبنا ، وظل هذا حالها على مدى الأيام : نحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان من بنى سعد قطرة لبن ، فكنا نعطيهم مما يفيض عندنا ؛ فكانوا يزجرون رعيانهم قائلين : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى ابنة أبى ذؤيب .

ومرت بنا الأيام ، ونحن على خير حال ، ومحمد ابنى لا أجد منه ما ينغصنى ، حتى تمنيت لو أضمه ابنا مع ابنى فلا يفارقنى .

وحين شب ، بعد عامين ، وبلغ سن الفطام ، ذهبت إلى أمه وقلت لها :

ـ ألا تتركين ابنى أرعاه حتى لا يصيبه ما أصاب أهل مكة من وباء ؟.

.. وظللت بها أحاورها ، حتى ردته معى .

.. كان يشب سريعا ، وينمو بديعا ، حتى فاق نموه نمو أخيه ، بل كان أكثر منه فطنة ، وأكثر ذكاء ، إلى أن كان ذلك اليوم ، وقد بلغ من العمر خمس سنين أو يزيد قليلا ، وخرج وأخوه يرعيان أغنامنا ، وما هى إلا سويعات وجاءنى ابنى يتكفأ مرعوبا وقد امتقع لونه ، وتقطعت أنفاسه فرقا على أخيه ، وقال :

ـ إن أخى محمدا قد جاءه رجلان فى ثياب بيض ، وبعدا به فى الصحراء ، ثم شقا بطنه .

فخرجت ومعى أبيه إلى حيث أشار ، نولول وناديه ، فوجدناه قد أضجع على الأرض ، فحملناه وعدنا به نسأله عن ما به ، فأكد ما قال أخوه ، وأضاف قائلا : إن الرجلين قد غسلا جوفه بالماء والبرد ، وأنه لم يشعر لذلك بوجع .

.. ولم ننم ليلتنا ، وبت وصاحبى نتشاور حتى طلع علينا النهار ، ثم قر قرارى وزوجى على أن نعيده إلى أمه ، قبل أن يظهر عليه سوء مما أصابه به الرجلان .

وحين دخلنا به على أمه ، دهشت من ردنا المفاجئ لولدها، وقالت :

ـ ما حملك على أن تعيديه ، وقد كنت حريصة على مكثه عندك ؟!.

حاولت أن أتجنب إخبارها بما حدث ، حتى لا تتهمنى بإهمال أو تقصير ، لكنها اشتدت فى طلب ما خوفنى من إبقائه ، فقصصت عليها ما كان ، فلم أجد منها فرقا ولا ملامة ، بل إنها قالت متسائلة فى استنكار :

ـ أوقد خشيت أن يكون ما فعل به من الشيطان ؟!!.

قلت صادقة :

ـ هو ذاك .

قالت تطمئننى وتهون على :

ـ لا بأس عليك ولا عليه ، لقد أردت منذ البداية أن أنبئك بما أخبرت عنه ، ولكنى سكت فما كنت لتدركى معنى ما أقول، ولكن بعد ما رأيت ما رأيت ، وقد أصبحت أما لمحمد ، فلا بأس من أن تعلمى : إننى حين حملت به رأيت أنه خرج منى نور ، أضاء قصور بصرى بأرض الشام ، ثم إننى ما رأيت عنتا ولا مشقة فى حمله ، ولم أجد مما تحدثت به من سبقننى إلى الحمل شيئا ، فحمله كان يسرا فى يسر ، ولقد وقع حين ولدته ، وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، مختونا ، نظيفا ، لا تشوب جسده أية دماء ..

وحين انتهت من الكلام ، أخذت منى ولدى ، وقالت لى :

ـ دعيه وانطلقى راشدة .

وودعت ولدى ، وتركته غير راغبة فى تركه ، فكأنى ودعت السعادة والخير كله .

ـ ١٠ ـ

استقر المقام باليتيم فى كنف جده عبد المطلب ،ولقد وجد الجد فى سلوك الحفيد ما قربه من قلبه ، حتى صار أحب إليه من أبنائه ، ومن كل أحفاده ، وكان يقول عنه :

ـ هذا ابنى محمد .

تعلق محمد بجده تعلقا شديدا ، فلم يجد له أبا سواه ، فكان لا يفارقه إلا إذا غلبه النعاس ، فيأمر عبد المطلب أعمامه فيحمله أحدهم ويذهب به إلى أمه .

ذات يوم ، تفقد محمد جده ، فلم يجده فى مجلسه بالكعبة ، فأخذه الخوف كل مأخذ ، وراح يناديه ، ثم جرى فى كل درب يبحث عنه ، حتى ضل طريقه إلى خارج مكة .

وحين عاد عبد المطلب علم بما حدث لمحمد ، فغضب غضبا شديدا من أبنائه لأنهم لم يهدئوا روعه ، وأرسل يبحث عنه فى كل مكان ، وخرج هو وصاحبه ورقة بن نوفل ، يبحثان عنه ، حتى أبلغ بأن بعض الرعيان قد عثروا عليه ، وأعادوه إلى دار آمنة ، فأسرع الجد إليه ، وحين أمسك به راح يضمه إلى صدره ، ويغطه غطا شديدا ، ثم أقسم ألا يبعد عنه ابنه ما عاش .

ولكن عبد المطلب نكث فى عهده بعد أيام قليلات ، فلقد كان مضطرا لذلك ، بعد ما أبلغته آمنة بأنها ترغب فى أن تصحب ابنها معها لزيارة أهلها بطيبة ، ولتزور قبر زوجها الحبيب عبد الله .

لم يكن أمام عبد المطلب إلا أن يجيبها إلى طلبها ، فهو يرى أمامه زوجة أخلصت لزوجها كل الإخلاص حتى صارت من شدة الوجد جلدا على عظم ، فلعلها واجدة فى زيارة قبر عبد الله ما يهون عليها مصابها، فقال لها :

ـ والله يا ابنتى ، لو بذلت الغالى والنفيس ، فداء لنقضى لعهدى فلا أبالى ، فى سبيل تحقيق ما طلبت ، فنعم الزوجة أنت ، ونعم الأم ، فاذهبى راشدة بابنى أنى شئت .

رحلت آمنة إلى طيبة ، ومعها وحيده وجاريتها أم أيمن ، وقبل دخولها إلى ديار بنى النجار ، زارت قبر عبد الله ، وساخ دمعها ، وتناثرت نفسها وجدا وحزنا ، وشردت وطال شرودها ، وحين يكلمها الأهل ، ليخرجوها مما هى عليه ، فلا حديث لها إلا عن الحبيب عبد الله :

.. ماذا قال ؟..

.. ماذا كان يفعل ؟..

.. كيف قود قافلة التجارة ؟..

.. وبماذا أوصاها قبل أن يرحل ؟.

وحين استأذنت فى العودة بابنها إلى جده ، مرت فى طريق عودتها بقبر زوجها ، فتمكن الحزن منها ، وازدادت صمتا على صمتها ، وأصبحت فى حال من الشرود ، جعلها لا تدرى شيئا عما حولها ، ولا حديث لها إلا بهذيان عن الزوج الذى رحل .

تقطع فؤاد محمد ألما ، وهو يرى أمه الحبيبة تذوى وتذبل أمام عينيه ، فرجاها أن تستمع إلى أم أيمن ويجنحوا إلى الراحة ، ولتأكل بعد أن صامت عن الطعام أياما ، ولكنها لم تكن تسمعه حتى تستجيب لرجائه ، وواصلت القافلة الحزينة طريق العودة .

.. وكلما مر يوم ، زادت حال آمنة سوءا ، وراحت تنهار وتذبل أمام الصبى ، وهو لا يملك أن يفعل شيئا من أجل إنقاذها ، ولا كانت أم أيمن هى أيضا تستطيع شيئا ، وهو وهى لا يملكان غير البكاء على الشابة النضرة التى تسرع بها خطى الأيام إلى الموت .

.. ماتت آمنة .

وحزن عليها محمد حزنا عظيما ، فهو للمرة الأولى فى حياته ، يدرك الشعور باليتم ، ويعرف معنى الفقد ، وناحت عليها أم أيمن نواحا هو كالعويل ، فهى تدرى ما وراء موت الأم قبل أن ترى ما تمنت لابنها يتحقق ، هو شعور لا تعرفه إلا من هن مثل أم أيمن من اللاتى عايشن حياة العبودية ، وتعلمن أنه لا سلطان لهن على شئ : لا الابن ، ولا الزوج ، فهن لا تملكن لهم بقاءا أو رحيلا ، فأمرهم ملك يمين من يشترونهم من السادة ، يبقون من يريدون ، ويبيعون ما يشاءون ، ولا مبالاة بالنفوس ، ولا بالمشاعر ، ولا بالأحلام التى يدمرونها بقسوة أفعالهم .

.. زفرت أم أيمن فى حسرة وألم ، وهى تضم محمد إليها ، وتمسح دمعه ، قائلة :
ـ لك الله يا ولدى ، لك الله يا محمد .
وابتعدت تحفر الرمال فى ظل جبل ، وساعدها محمد ودموعه لا تتوقف ، ثم دفنا الأم .

حين دخل الموكب الحزين مكة ، أسرع عبد المطلب لاستقبال ابنه ، بعد أن شاع فى مكة ما حدث ، من الركبان التى مرت بهم ، وسبقتهم فى العودة ، وأدرك الشيخ بحنكته مدى المأساة التى عاشها محمد ، حين نظر إليه ، قرأها على وجهه الذى لم تجف عنه الدموع ، فقرحت بشرته بخطوط محمرة ، وإن أخفى تراب السفر بعضا من شدتها ، وتقطع قلب عبد المطلب لكل ما لقيه الصبى من صدمات وأهوال ، هو بعد أصغر وأضعف من أن يحتملها ، فلقد فقد الأب وهو لم يزل بعد جنينا فى بطن أمه ، ثم ها هو ذا يفقد الأم وهو لم يبلغ السابعة من عمره ..
: ياله من ألم ، ويا لها من حياة شديدة القسوة ، كتب عليك أن تحياها يا محمد .
انحنى الشيخ يحتضن محمدا ، واختلطت دموعهما فى نحيب صامت ، ولم يجد الصبى ملجأ إلا بدفن جسده فى ذلك الجسد الفانى ليستشعر الأمان ، والألفة اللتين أفتقدهما منذ ماتت أمه .

.. ولم يتوقف مسلسل الفقد ، إلا لسنتين اثنتين ، عاشهما الصبى فى كنف جده عبد المطلب ، لا يفترقان أبد ، ثم أرسل الجد ذات يوم يستدعى ابنه أبو طالب ، وقد شعر بدنو الأجل ، وأوصاه بمحمد خيرا ، ثم مات بعد أيام قليلات .
.. وبكاه محمد بكاءا مرا ..
.. وحزن عليه حزنا عظيما .
.. فلقد عرف بموت جده معنى فقد الأب .
.. وهكذا أطبق اليتم على اليتيم ، وهو بعد على أبواب الصبا .

الفصل الثالث : **المعصــوم**

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

سورة الحجر

انتقل محمد ليعيش فى بيت عمه أبى طالب ، ولقد وجد أبو طالب نفسه تتعلق بمحمد لذكره الدائم لجده بالخير والعرفان ، ولقد تنزل حب الصبى فى قلبه حتى تمكن منه ، فكان يحاول أن لا يحرمه من أمر كان له أيام عبد المطلب ، فها هو ذا عمه يجعله قريبا من مجلسه بالكعبة ، وها هو ذا يرافق عمه فى رحلته بالتجارة إلى الشام ، رغم تألمه من ذكريات وفاة أخيه عبد الله فى رحلة مشابهة ، وتطيره منها ، ولكن كيف لا يرق قلبه للصبى المثخن بجراح الفقد ، وهو يتعلق ببردته متوسلا ألا يتركه فى مكة وحيدا .

.. سافر محمد رحلته الأولى إلى الشام ، وحين أناخت القافلة لتستريح العير والرجال، بجوار غار يطل على الطريق يقيم فيه راهب ، ما كاد يراهم حتى هرول إليهم تاركا صومعته على غير ما عودهم ، فلقد كانوا فى السابق يحادثونه ويحادثهم دون أن يظهر نفسه لهم ، ولكنه هذه المرة غير من عادته ، وتقدم ينشد أباطالب ، وقد أخذ يحدق فى محمد باهتمام ، ثم سأله :

ـ أهذا الصبى ، ابنك يا أخا العرب ؟ .

ـ حقا هو ابنى .

ويحمر وجه الراهب من الغضب ، وهو يسأل أبا طالب زاجرا ، يطالبه بقول الحقيقة :

ـ أهو نكاحك ؟!.

ـ لا .. فهو ابن أخ لى مات ، والصبى بعد جنين فى بطن أمه .

ويتهلل وجه الراهب بالبشر ، و يهمس وكأنه يحادث نفسه :

ـ هو إذن اليتيم الذى يكفله الله ، ويعصمه .

ثم طلب الراهب من أبى طالب راجيا ، أن يقبل مرافقته هو والصبى إلى صومعته ، ويستجيب أبو طالب ، وهو فى دهشة من حال الاضطراب التى أصبح عليها الراهب .

فى الغار يكشف الراهب بيد مرتعشة عن ظهر محمد ، ثم يرد الرداء بسرعة ، وهو يهتف :

ـ قدوس ، قدوس ، إنه لهو ، وهذا هو الزمان الذى يظله.

ثم استدار إلى أبى طالب ، وقال فى رجاء :

ـ اكتم أمر الفتى ، وعد به إلى قريتكم ، فإنه لو علم به اليهود لقتلوه .

واستأذن أبو طالب من رفاقه فى التخلف ، لعدم القدرة على مواصلة السفر لمرض طارئ ألم بابن أخيه ، وأوكل لأحد رفاقه أن ينوب عنه فى تجارته ، ثم عاد بمحمد إلى مكة ، والخوف عليه يملأ عليه حناياه .

.. ولم تتم سفرة محمد إلى الشام .

مع مرور الأيام ..

عمل محمد برعى الأغنام ليكتسب قوته ، فعمه أبو طالب كان كثير العيال ، محدود الرزق ، ورغم معاشرته لرعاة من كل الطبائع ، فإنه كان لا يفعل فعلهم ، فهو أقرب إلى العزلة منه إلى الإقبال على مباهج الحياة ولهوها ؛ فلقد كانت أسعد لحظاته ، هى تلك التى يخلو فيها إلى نفسه بعد أن يفرغ من متابعة حركة غنيماته ، حين تهدأ لانهماكها فى الطعام ، أو حين ركونها إلى النوم ؛ هنا ينصرف إلى تأمل السماء : بروعة زرقتها ، وتوهج شمسها ، ومرور كسف السحاب شفيفة تمشى هونا فتحجب الشمس فى وضح النهار ، أو النجوم والقمر فى وقب الليل ، ويتدبر فى الأرض وما عليها من : جبال ورمال وصخور وشجر ورياح ومطر وكلأ ، ولعل ذهنه كان يجول متأملا فى ما حوله ، باحثا فى روعة خلقه ، وعظمة الصانع القدير الذى قدر وفعل ، فجعل الليل ثباتا والنهار معاشا ، وباليقين فإنه حين يصل إلى هذا الحد من التأمل ، يتساءل : هل يعقل أن تكون تلك الأحجار الصماء العمياء التى يتقرب إليها أهله زلفى ، هى

ذاك الصانع لكل ما حوله من سماء وأرض ومخلوقات ، أو حتى تصلح لتكون بصممها وعماها وعجزها واسطة بين قومه وبين الله ؟! .
: محال ، أن تكون هى الصانعة ، أو الواسطة التى تقربهم إلى الخالق ، فهى أعجز من أن تهش الذباب عن أنوفها ، أو تبعد العير عن البول على أقدامها !! .
ولقناعة محمد بما أوصله إليه تدبره ، كان لا يقبل على الطقوس التى يقيمونها تبركا وتمسحا بالأوثان ، بل كان شديد النفور منها لا يقرب أماكنها ، ولا يسجد لها ، وهو نهج رباه عليه من اصطفاه منذ الصغر ، فكثيرا ما ألحت عليه عماته ليشاركهن أعيادهن التى يتقربن فيها زلفى إلى أصنامهن ، وكان إلحاحهن إشفاقا عليه ، لخوفهن من أن يكون عزوفه عن حضور تلك الأعياد ، بسبب شعوره باليتم ، لكنه كان يقابل دعوتهن بالرفض ، ولما أجبرنه ذات مرة على أن يصحبهن ، فر هاربا فى رعب من أمام الصنم ، وهو يقسم لعماته بأن رجلا أبيض الثياب ، قد وقف يحول بينه وبين الاقتراب ، ثم زجره حتى يبتعد .
.. أما بالنسبة لأترابه فلم يدهشوا من أفعاله ، فلقد بدت لهم عادية ، فهم يرون أنه ليس مثلهم : فهو لا يسرق لبن الغنيمات ، ولا يجلس فى أماكن اللهو والغناء ، ولا يلعب الميسر ، ولا يشرب الخمر ، ولا يسعى إلى ملاطفة الفتيات ؛ فلم وهو كذلك ، لا يختلف عنهم فى نظرته إلى الأوثان ، فلا يقربها أو يتمسح بها ؟!!.
.. ذات ليلة ألح عليه رفيق من الرعاة إلحاحا شديدا ، فى أن يترك له أمر حراسة غنيماته ، وينزل إلى دور مكة ليلهو فهناك عرس لثرى من أثريائها ، والفرصة سانحة لكى يملأ بطنه بالطعام الشهى ، ويطرب سمعه بالغناء ، ويمتع عينيه بمشاهدة الغيد الحسان ؛ وبعد طول تمنع قبل ، فلقد منعه حياؤه أن يستمر فى الرفض ، فنزل إلى الديار يتلمس أماكن الغناء ، ولكن الله عصمه ، فضرب على أذنيه فنام قبل أن يرى رقصا أو يسمع نغما ، ولم يوقظه من النوم سوى وخز أشعة شمس الظهيرة ؛ ولما أعلم صاحبه بما حدث له ، طلب منه أن يعيد المحاولة ، وينزل إلى دور مكة مرة أخرى فيلهو ويسمر ، فلهو أهلها لا ينقطع ، ولكن المعصوم لم يحظ فى ليلته هذه بأكثر من حظه فى الليلة الأولى ، وحين قفل راجعا طلب من زميله ألا يعاود الإلحاح عليه ، فلقد عزم على ألا يعود إلى ذلك مرة أخرى ، وليذهب رفيقه إذا شاء ليلهو ، وليتركه لشأنه .

ـ ٢ ـ

حين تخطى محمد سن الصبا إلى الشباب عمل بالتجارة ، وكان فألا طيبا لمن يتاجر لهم ، فيربح الكثير ، وينجز عمله بإتقان ميزه عن أقرانه ، كما اشتهر بأمانته ، حتى أسمته قريش : الأمين .
كان قنوعا ، يرضى بالقليل ، ولم تكن له أحلام فى الدنيا وزخرفها من : غنى ونفوذ وجاه ، ولم يحدث أن تفاخر بعظمة نسبه كغيره من الشباب ، ولقد أثار سلوكه هذا عطف عمه أبى طالب لظنه أن ذاك التواضع مرجعه إحساسه المبكر بافتقاده لنصرة الأب والاخوة ، ولقد سأله يوما :
ـ ألا تفكر يا ابن أخى فى التجارة للأثرياء حتى تصيب بعض حاجات الشباب ، فتتزوج ، وتصبح صاحب دار ولك زوجة ؟! .
قال محمد :
ـ ما خطر لى هذا ببال يا عم .
قال أبو طالب وقد امتلأ شفقة على ابن أخيه الذى أورثه اليتم القناعة والرضا :
ـ ألا تتاجر لخديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فهى امرأة من أوفر أهل مكة شرفا ومالا ، وهى تستأجر لتجارتها رجالا ليقوموا بها عنها ، فيصيبوا منافع لأنفسهم ،

وأنت تاجر أمين ، ذاع أمرك فى القرية كلها ، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لفضلتك على غيرك، وأنا يا ابن أخى لو كنت أملك مالا لكفيتك، ولأخرجتك فى تجارة لى .
قال محمد فى تعفف وعزة نفس :
ـ يا عم لعلها أن ترسل لى فى ذلك .
.. وبلغ خديجة ما دار بينهما من حديث ، وكانت قد سمعت عن محمد وأمانته، وعن البركة التى تتغشى عمله ، فأرسلت تستدعيه ، وعرضت عليه أن يخرج متاجرا فى مالها إلى الشام ، قال وهو لا يرفع عينيه عن الأرض حياء :
ـ نعم إنى خارج بتجارتك .
وانصرف بعد أن حياها ، ولم يزد فى الحديث .
.. ولقد أعجبت خديجة منذ اللحظة الأولى ببهاء طلعته ، وتعجبت من شدة حيائه ، واختلافه عن كل من تعاملت معهم من الرجال ، فهو غيرهم ، فكأنما هو من مجتمع آخر غير مجتمع مكة الصاخب بالفساد .

..لما آن لرحلة الصيف أن تغادر مكة إلى الشام ، أرسلت خديجة غلامها ميسرة مع محمد فى سفره ليقوم على خدمته ، وليصف لها أحواله ، وتعلقت روح ميسرة بمحمد فلقد استراح لبشاشة وجهه ، واستراح له أكثر حين ذهب القرشيون قبل الرحيل إلى أصنامهم يتمسحون بها ، ويطلبون منها البركات ، بينما ظل هو بعيدا ينتظر ، فلقد كان ميسرة مسيحيا يكره نسك أهل مكة .
.. وحين عبرت القافلة أرض الشام، مرت قبل دخولها إلى "بصرى" بصومعة راهب كان ميسرة يتردد عليه، فلما أناخوا الجمال لتستريح ، وليستعيد الرجال بالراحة نشاطهم ، وليأخذوا زينتهم استعدادا لدخول المدينة .
استأذن ميسرة محمدا فى زيارة الراهب فأذن له ، من غير أن يثقل عليه باستفسار ، وما هى إلا لحظات ، وخرج إليهم الراهب مهيب الطلعة ممصوص العود خشن الملبس، وعلى مبعدة خطوات منه ، سار ميسرة مطأطئ الرأس فى تبجيل يهمس له ، كان من الواضح أن حديثهما الهامس يدور حول محمد ، فلقد اتجهت أبصارهما ثم خطواتهما ناحيته ، ولما جلسا إليه ، بدأ الراهب يتحدث إلي محمد حول أمور مولده ونشأته ، ثم استأذن منه أن يكشف البردة عن ظهره ففعل، وهو غير متعجب، فلقد تعود الناس أن يسمعوا ويروا من الرهبان مثل هذه الأفعال التى تبدو غريبة:ولم لا يريحونهم إذا كان الأمر هينا، والمطلب يسيرا لا شطط فيه؟.
ولما عاد الراهب إلى صومعته متكئا على كتف ميسرة ، صارحه بأن صاحبه فيه من العلامات والشواهد ما يشى بأنه هو النبى المنتظر ، ولم يدهش ميسرة مما سمع ، فلصاحبه أخلاق أهل يسوع ، وإن كان ليس على ملتهم ، فهو غير كل من صحبهم من رجال قريش فى حله وترحاله ، هو أيضا غير كل من تعامل معهم من تجار ، من مختلف الملل والأجناس : إنه إنسان فريد ، ليس مثله أى شخص آخر ، فهو حيى شديد الحياء ، صادق كل الصدق ، لا يرائى أو ينافق ، فهو يرى بذات الوجه الذى يواجه به من يواجه فى السر والعلن ؛ متواضع وكأنه ليس من أعز أنساب قريش ، حتى أنه لم يكلفه ـ وهو العبد المطيع لبنان سيده ـ بأى عمل يشق عليه ، بل هو يساعده فى عمله ، ويشعره بأنه هو أيضا سيد له من الكرامة والحقوق ما لسائر أفراد القافلة ، فإذا ما أدى عملا لم يسأله لماذا أداه على مثل ما أدى ، وإذا لم يؤده ، لم يزجره ، ولم يلمه على عدم أدائه له ، بل هو لا يسأله عنه أصلا ، لأنه إذا كانت هناك ضرورة لأدائه ، أداه هو فى صمت وإتقان ، وكأنه مسئوليته هو ؛ هو رحيم رءوف بالجميع ، حتى بالدواب ، فهو يوصى بها خيرا ، ويغضب ممن يقسو عليها ، أو يكلفها مالا طاقة لها به ، أو يقصر فى سقياها ، أو إطعامها .

: فما أحقك أيها السيد بأن تكون نبيا صديقا .
أسر ميسرة حديث الكاهن فى نفسه ، حتى أنه كتمه عن صاحبه ، فلقد أمره الكاهن بألا يظهره على أحد فيعجل لمحمد معاداة أهله وعشيرته ، وميسرة يرى بوادر الغيرة منه مضمرة فى نفوس رفقاء الرحلة ، يغضون بها ويظهرونها فى غيبته .
.. وحين بدء البيع والشراء ، لم يهول محمد من شأن بضاعته ويزكيها ، بل عرضها بالحسنى ، فأقبل عليه كل من أراد الشراء وأعرضوا عن غيره ، فباع سريعا وربح أكثر مما كان ينتظر أن يربح ، وحين أراد الشراء ، لم يبخس الناس أشياءهم، ولكنه عرض ثمنا يليق بما يبيعون، فباعوا له بأرخص الأسعار وهم راضون، فأزداد ميسرة حبا على حب لمحمد ، واشتد به الإعجاب حتى بات لا يرى له حياة بعيدا عنه .
.. ولقد أفصح ميسرة عن مشاعره هذه ، لسيدته خديجة حين عاد ، وسألته عن محمد ، وهى تعرف فى عبدها الصدق ، فقال لها :
ـ لم أر يا سيدتى بشرا بمثل خلق محمد ، حتى ليبدو كالزهاد ، ولقد تمنيت لو أن رحلة العودة لا تنتهى ، حتى لا أفارقه .
.. وحين جلست خديجة إلى محمد ، حدثها فى إيجاز وتواضع عن تجارتها وما تم فيها ، ولم يختلف حديثه عن ما قال به ميسرة ، وإن لم يزك نفسه ، فيتحدث عن جهده وتميزه عن أقرانه ، ثم وضع كل ما حصد من مال بين يديها، فلم يقتطع لنفسه أجرا ، برغم أن له نصيبا منه اتفقا عليه ، فلم تملك خديجة إلا أن تعبر عن عرفانها وتقديرها ، فأغدقت له العطاء ، وهى راضية كل الرضا .

ـ ٣ ـ

.. ازداد قدر محمد عند خديجة ، بعد ما سمعت ورأت ، فهى لم تجد ـ على مدى ما تعاملت مع التجار والرجال ـ من هو على هذا القدر من الصدق والزهد والحياء والأمانة ، ولم تستطع أن تخفى مشاعرها ، فنادت ميسرة وقد جاشت عواطفها ، وقالت له :
ـ لقد صدقتنى الحديث يا ميسرة فنعم الرجل محمد .
ثم كافأته بصرة من المال ، وانصرف ميسرة وهو يقول لنفسه : والله إن معرفتك يا محمد كلها خير .
.. ولم تكتم خديجة حديث الإعجاب بمحمد عن صويحباتها .
.. ولم يخف محمد عن عمه أبى طالب إعجابه بخديجة ، وبنبلها ، وعفتها ، ورجاحة عقلها .
قالت لها صاحبتها وهى تحاورها :
ـ لماذا لا تتزوجين منه ، وأنت مطلقة ، ولا رجل لك منذ سنوات ، بل أنت رافضة لكل من تقدموا لك ، لا يعجبك منهم عاجب ، ولم تتحدثى عن أحد منهم بمثل ما تحدثت عن محمد ، وهو من أكثر بطون قريش نسبا ، وأعزهم منزلة ، وأكثرهم شرفا ، وهو الصادق الأمين ، فإن هو أرادك لنفسه ، فلا مطمع له فى جاهك ، ولا كثرة مالك ، ككل من تقدموا إليك من رجال قريش .
.. وقال له عمه أبو طالب :
ـ يا ابن أخى إنك إن أردت نكاحا، فلن تجد من هى خير من خديجة ، فهى من أشراف قريش، عزيزة النفس، كريمة النشأة ، فلماذا لا تطلبها لنفسك ، فتفوز بالخير والنعمة ؟ .
ولم يمانع محمد فى الزواج من خديجة ، وذهب أبو طالب إلى أبيها فخطبها لابن أخيه .
ولم تمانع خديجة فى الزواج من محمد .
.. وتزوج الأمين من زهرة نساء قريش .

وازداد قدر محمد عند القرشيين ، فالثراء عندهم هيبة وسلطان ، والفقر مذلة وهوان ، ولم لا يعظمونه وقد ملك ثروة خديجة بزواجه منها ؟!.
ولكن الأمين تعفف عن مال زوجه ، ولم يفعل فعلهم ، وفضل أن يجوب الأسواق على قدميه متاجرا فى القليل مما يملك ، فهذا اكرم له من أن يمد يدا إلى مالها هى .
كانت قريش تنظر إلى تعففه متعجبة ، وتتهامس بأنه تظاهر ، فلم يكن يدور بخلد أى منهم ، أن هناك من يمتنع عن إغراء المال ، وإن صمد فلأيام معدودات ؛ لذا سعت إلى الثرى الجديد متوددة ، فأصر أثرياؤها على دعوته إلى مجالسهم ومنتدياتهم ، ولكن سرعان ما عافتهم نفسه ، وضجر من حياتهم ، وسفه أفعالهم لسخفها وهمجيتها ، وتدنيها إلى مستوى الهيم .
ترك محمد قريشا تعمه فى غيها ، وارتقى جبل حراء إلى الغار ، حيث كان يتعبد جده عبد المطلب ، فوجد فى وحدته بالغار راحة وصفاء ، لم يجدهما فى الأخلاء بمكة .

- ٤ -

أتاه أمر ربه : أن ارفع القواعد من البيت .
شمر الخليل عن ذراعيه ، نادى ابنه ، وراحا يحملان الأحجار من الجبل ، ويعملان بهمة فى بناء الكعبة ، وأخذ البناء فى الارتفاع مرتويا بعرق الخليل إبراهيم ، وابنه إسماعيل ، عليهما السلام .
.. وتمر السنوات متلاحقة .
.. وتتوالى الأمم .
وتكتسح السيول القرية .
ويتهدم جزء من بناء الكعبة العتيق .
.. فيسارع أحفاد الخليل بالترميم والبناء ، فهى المكان الأعز والأحق بالرعاية والاهتمام .
.. وها هم أولاء القرشيون يعيدون بناء ما تهدم من الكعبة ، ويتنافسون على من يكون له شرف المشاركة فى العمل ، وكل بطن من بطونها يريد أن يتميز عن غيره ، ليفاخر بما سينال من مجد .
.. وأى مجد يدانى مجد المشاركة فى بناء بيت الله العتيق .
وقد سارع الحكماء منهم وتعاهدوا ، على أن يكون العمل بين القبائل : عدلا وارتضاء ، تجنبا لإراقة الدماء .
.. بالحب كان يرتفع البناء .
.. ولكن ، هل لإبليس أن يرضى بأن تمضى الحياة فى سلام ، ويكف عن وسوسته للناس بالشر ، فيفسد حياتهم ؟! .
.. وإذا كف ، ماذا سيكون دوره فى هذه الحياة ؟ .
وما جدوى وجوده ؟ .
وكيف ينكص فى قسمه لرب العالمين ، بأن يطارد البشر بالوساوس ويبذر فيهم الغيرة والبغضاء ، ويفقدهم العقل ، فيسهل عليه أن يحل بينهم الكره والبغض ، ويقودهم إلى ظلمات الكفر والضلال ، ليصل بهم إلى مناه ، فتمسى حياة الإنسان خراب ودمار ، ويجعل مآلهم إلى النار ، فلا يتحقق لهم خير فى الدنيا أو الآخرة .
لقد كان إبليس يرى ما يحدث ، وهو يتقافز حولهم ، ويتلوى من الألم ، مما يرى من تآخ ؛ وكأنما عاد الزمن إلى الوراء ، ليواجه ثانية آدم الذى حصن ونبئ ، فأصبح لا سبيل له عليه .
ولكن خلق إبليس يجعله لا يكف عن المحاولة ، ولا ينى عن النزغ بينهم ، فيوسوس ، ويوسوس ، ثم يزداد هياجا وغضبا لعدم استجابتهم ، فيئز أزا ، لكنه لا يقنط : فلا بد وأن الفرصة آتية ، ولو بعد حين ، ومهما بعد هذا الحين .

.. اكتمل البناء إلى موضع الحجر الأسود ، وتسابقت القبائل ، كل قبيلة تريد أن تحظى دون غيرها بشرف رفع الحجر وتثبيته فى موضعه ، ويحتدم التنافس ، ويطول النقاش والتناظر تفاخرا بقديم الأمجاد ، ثم يبدأ التراشق بالألفاظ ، ليتحول إلى تهديد ونذير ، وقد لون الغضب بالقتامة كل شئ ، ويروح إبليس اللعين ينفخ مسرورا فى نار الخلاف ، فلقد أصبح جنى الثمار دان ، فما أسهل انقياد أبناء آدم لأوامر إبليس فى لحظات الغضب ، ويزداد إبليس نشوة ، فيروح ينفخ .. وينفخ ، فيغيب العقل ، وتسيطر همجية الشر ، وتنفلت الأبدان من سيطرة العقول ، فتستل السيوف من أغمادها ، وتتنادى القبائل للقتال .

ويصرخ إبليس من النشوة ، وقد رأى أن الدماء سوف تسيل أنهارا ، فالقتل يوشك أن يعمل ، والخراب يدق أبواب مكة ، بل ويدكها دكا .

.. ولأن البناء لله .

.. ولأن الأمر جميعه بيد الله تعالى ، نطق صوت الحق عاليا مدويا محذرا بلسان أبى طالب ، فأخرس أصوات إبليس التى راحت تنطق بينهم بالضلال :

ـ يا أهل قريش أبعد أن تعاهدتم على بناء بيت الله إكبارا لحرمته ، أراكم ، وقبل أن ينتهى البناء، تسعون لانتهاك هذه الحرمة، وتدنيس أرضه بدمائكم، أليس بينكم رجل رشيد ؟!.

.. وكأنما كانت صرخة أبى طالب زلزالا ، هز القلوب الغافلة بعنف فأفاقت على ما يحاك لها ، وما هى مساقة إليه من خراب ودمار ؛ هوت الأيدى إلى الأجناب ، وأعمل العقل ، وفكر الحكماء وتدبروا ، ثم كان القرار :

ـ لنرضى بما يحكم به بيننا أول رجل يفد على الكعبة .

.. وكان محمد أول من جاء .

وهلل الحضور فرحين مستبشرين :

ـ الأمين هو الحكم ، فأحكم بيننا ، أينا يكون له حق وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء ؟.

قالوا ما قالوا ، وأطبق صمت عميق على الجميع ، وعلقت الأبصار بشفتى محمد فى ترقب ، ووسوس لهم إبليس :

: حقيقة قد ارتضيتموه حكما ، وتسمونه الأمين ، ولكن أليس هو من آل هاشم ، فيفضلهم عليكم ، ويختصهم بهذا المجد ؟.

سكت محمد قليلا ، فتوترت الأعصاب قلقة ، واشرأبت الأعناق فى توجس ، لكن صمته لم يطل ، فلقد قال :

ـ هلموا إلى بثوب .

وسرعان ما تناثرت من حوله الأثواب ، رغم دهشتهم من طلبه ، فهو أهون من أن يحكم بتفضيل إحدى القبائل على غيرها ، أو يطلب من بنى هاشم تثبيت الحجر .

مد محمد يده وتناول أقرب ثوب إليه ، وفرده على الأرض، ثم اتجه إلى الحجر الأسود فحمله ، وصرخ إبليس يستنفرهم :

: يا لضيعة عقولكم ، لقد سخر منكم محمد وحمل الحجر وحده ، لتفوز بنى هاشم بالفخار بين العرب .

وقبل أن تستنفر الأبدان ، وضع محمد الحجر فى وسط الثوب ، فهدأت النفوس

المستثارة ، وإن ازدادوا دهشة مما يفعل ، قال :

ـ لتختار كل قبيلة رجلا من رجالها .

تفرقت القبائل ، كل قبيلة على حدة ، تتشاور ، ثم خرج من بين كل قبيلة رجلا ، فقال لهم محمد :

ـ تحلقوا حول الثوب ، وليمسك كل رجل منكم بأحد أطـرافه .
نفذوا ما قال ، وتجمع الرجال ملتفين فى دائرة حول الثوب، ثم أمسك كل واحـد بقطعـة منـه ، ولما فعلوا ، قال :
ـ لترفعوا جميعكم الحجر لأعلى ، ولتأتونى به .
ورفع الرجال الثوب ، واتجهـوا إلى حيث موضع الحجـر ، فصعد المعصوم وتناوله فثبته فى مكانه ، كل هذا وأعين الحاضرين تبرق بالإكبار والتقدير ، لابـن عبـد الله بـن عبـد المطلـب ، وحين انتهى ، ارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل .
.. وتصافحت الأيدى بالسلام .
.. وأعيدت السيـوف إلى أغمادها .
.. وعادت السواعد ترتفع بالبناء .
وهرب إبليس مدحورا أمام حكمة المعصوم .

ـ ٥ ـ

خلق الله آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، تحرك المخلوق الجديد وقد دبت فيه الحياة ، أمر الله الملائكة أن تسجد له تقديرا وتكريما ، سجدت الملائكـة أجمعـين إلا إبلـيس فقـد عـصى واستكبر ، وتذمر قائلا :
ـ أنا خير منه ، خلقتنى من مارج من نار ، وخلقته من طين .
أنزل الخالق العظيم غضبه على إبليس :
ـ عليك لعنتى إلى يوم الدين .
أصيب إبليس برعب شديد ، فلم يكن يتوقع أن يغضب الرب هذه الغضبة الـشديدة ، مـن أجـل مخلوق شانه مـن طـين ، خـر إبلـيس سـاجدا لله ، توقعـت كـل المخلوقـات أن يطلـب الـصفح ، ويتوب عن ذنبه ، ولكن الحقد والكراهية تمكنا من قلبه ، وأعمياه عن الصواب ، توسـل إبلـيس ذليلا يقول :
ـ رب لا تهلكنى للحظتى ، أمهلنى إلى يوم يبعثون .
.. ولأن إبليس خلق ليكون أداة اختبار لآدم وبنيه من بعده ، استجاب الخـالق لتوسـله ، فأمهلـه قائلا :
ـ اذهب فأنت من المنظرين إلى اليوم المعلوم .
.. ولكن كان الجزاء متوقعا ، فطرده رب العالمين مـن الجنـة مـذموما مـدحورا ، وتوعـده الله تعالى بالعذاب ، فأصبح إبليس من الملعونين .
قال إبليس فى غيظ :
ـ فبما أغويتنى ، لأقعدن لآدم وحواء وأبناءهما صراطك المستقيم ، ولآتيـنهم مـن بـين أيـديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين .
انتابت آدم مشاعر الخوف من توعد إبليس ووعيده ، وتعجب متسائلا : لـم يـضمر لـى إبلـيس كل هذا الكره ؟! .. ثم أردف قائلا :
ـ إنى إذن من الهالكين .
.. لكن الخالق العظيم أنزل السكينة على قلبه ، حين حذر إبليس من التمادى فـى وصـف قوتـه وقدرته على الإفساد قائلا:
ـ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من تبعك من الغاوين .
ثم حذر آدم من إبليس قائلا :
ـ يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى .

- ٦ -

كان آدم كلما تجول بين أشجار الجنة ليقطف من ثمارها ما يحب ، يتجنب قدر طاقته أن يقترب من الشجرة التى حرمها الله ، وهو لا يفتأ يقول لنفسه ..

: ويلك يا آدم أحذر فمن هذه الشجرة سيجىء إغواء إبليس .

.. ويوما من بعد يوم ، كان التحذير يخفت ، وبدأ النسيان يزحف شيئا فشيئا ، ووجد إبليس أن اللحظة قد اقتربت أسرع مما كان يتوقع ، وأن عليه أن يسرع بالعمل ، فاقترب من حواء وآدم هاشا باشا ، وعجبا من كل تلك البشاشة التى يبديها لهما ، قال إبليس وهو يمسك بأغصان الشجرة المحرمة ، ويقربها منهما فى إغراء وإغواء :

- ما بالى أراكما تبتعدان عن هذه الشجرة ، فلا تأكلان منها ؟!.

قال آدم فى تخاذل :

- لأننا نهينا عن ذلك .

قال إبليس وقد ملأ صوته بالأسف والحزن :

- يا لضيعة أحبائى ، إنها شجرة الخلد ، من يأكل منها لا يموت أبدا ، فإذا أكلتما تكونان من الخالدين .

ونظرت حواء إلى الشجرة .

ونظر آدم .

.. وكانت نظراتهما تشى بالرغبة فى أن يأكلا منها ، وتساءل آدم فى استسلام :

- أحقا ما تقول ؟!.

تنهد إبليس وقد ملئ حبورا ، وأقبل عليهما يقاسمهما انه لمن الصادقين ، والأمر لن يستغرق وقتا طويلا ليدركا صدقه إذا ما أكلا .

.. وأكلا .

.. وضحك إبليس طويلا .. طويلا فى نشوة المنتصرين ، ثم قال هازئا من آدم :

- ألا ما أضعفك يا غريمى .

.. ثم قهقه .. وقهقه ، حين تكشفت سؤتا آدم وحواء ، فطفقا يخصفان عليهما من أوراق الجنة ليواريا ما انكشف ، وكان الله قد ستره ، لكنهما فضحاه بنسيانهما .

لقد انهزم أبو البشر فى أول مواجهة .

.. وانتصر إبليس .

انهار آدم ساجدا لله تائبا مستغفرا ، طالبا رحمة الرحمن الرحيم ، وقد ملئت نفسه بالندم واللوم على ما فرط فى جنب الله .

وعفا العفو الرحيم .

.. وكان لابد من جزاء ، لتكتمل الإرادة الإلهية :

وطرد آدم وحواء من الجنة ليعمرا الأرض .

.. وعرف إبليس موقع الضعف فى آدم ، وأنه خلق نسيا .

- ٧ -

حين هبط آدم وحواء إلى الأرض ، أدركا أنهما عادا إلى الطين الذى كانت منه النشأة الأولى .

ولكن آدم لم ينس أن هناك من أغواه ويترقبه بالغواية والهلاك ، وكيف له أن ينسى وقد أخرجهما بوسوسته من الجنة ؟!!.

ولم تنس حواء مرارة تجربتها الأولى مع عصيان أوامر الله ، وما كانت ترضى أن تعرى مرة ثانية .

.. لذلك لم تذكر لهما خطيئة أخرى .
كان حصنهما الحصين ذكر الله : يذكرانه فى السر والعلن ، وإذا ما أراد إبليس أن يتقرب إليهما ، استعاذا بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فتضرب الاستعاذة حولهما سورا يتحصنان داخله من وسوسته ، فلم ينجح إبليس رغم كل محاولاته وتغييره فى أساليب الولوج إلى النفس ، فى إيقاعهما فى إساره ، ولم ينتصر عليهما ثانية ، وكيف له ذلك ، وهما فى حفظ الله ؟.
أصيب إبليس بالقنوط ، واشتدت نقمته وكراهيته لآدم وحواء ، ولكن فى لحظة واحدة انقلب يأسه إلى أمل ، وحزنه إلى سرور ، فلقد سمع حواء تقول لزوجها إنها قد حملت ، وأنها على وشك أن تلد أول الخلفاء .
انتعشت الكراهية فى إبليس ، وقد تأكد من صدق حواء ، حين تسمع إلى أخبار السماء ، فعرف أن الله سيرزقهما بتوءم : ذكر وأنثى ، وأنه سوف يتعاقب الحمل ، وفى كل مرة يرزقان بالولد والبنت ، ليتزوج كل ذكر من أنثى البطن الآخر ، ويتناسل الآدميون ، وتعمر الأرض ، ويكثر البشر ، وتكثر الخطايا .

ظل إبليس يحصى اللحظات مترقبا فى حقد متلظيا ، راغبا فى التنفيس عن كراهيته لأولئك القادمين ، ويزداد شبقه لعبور الحاضر إلى المستقبل ، حين يعرف من خبر السماء أنه سيكون لآدم أحفاد يعدون بالملايين ، ويئز فى نشوة يقول :
- والله لأغوينهم أجمعين ، ولأوردنهم موارد التهلكة ، ولأجعلن النار مثواهم ، ولبئس القرار .
.. كان آدم يعلم أن إغواء إبليس سوف يطارد أولاده وذريته إلى يوم الدين ، فحذر بنيه من إبليس وقبيلته ، ولم يبخل عليهم بعلم ، فعلمهم ما تعلمه من الملائكة ، ونبأهم بما نبأه به الله تعالى ، ولكن ماذا يستطيع ، وناموس الحياة يقول بأن هناك دائما : للخير أناسا ، وللشر أناسا .
.. واستطاع إبليس أن ينفذ إلى دم قابيل ، وأخذ يبذر فى نفسه بذور الغيرة ويغذيها بالأوهام والأكاذيب ، حتى نمت وتوحشت ، فأصبح قابيل وليا من أولياء الشيطان ، فلا يسمع إلا ما يريد له أن يسمعه ، ولا يرى إلا ما يشاء له أن يرى .
وجاءت لحظة الدفع للخطيئة الكبرى .
ودفع إبليس قابيل لقتل أخيه هابيل : فقتله !!.
واهتزت السماوات ألما لحادث القتل الأول ، فمن القاتل ، ومن القتيل ؟.
: القاتل قابيل ، والقتيل هابيل ، ابنا نبى الله آدم ، وبكارة البشر !!.
ويعلم الأب .
وتعلم الأم .
.. ويتمزق الفؤادان ألما ، من عظم الجرم ، وفداحة الإثم ، ويرفع آدم كفيه إلى عنان السماء متوسلا ، ودموعه تنساب مدرارا ، فما أشق أن يرى الأب أبناءه يقتل بعضهم بعضا ، قال :
- رب أنزل على حواء وعلى صبرا ، ولتحل بنا رحمتك يا أرحم الراحمين .
ثم أسرع آدم إلى بنيه يجمعهم ، وهو يستشعر الخطر المحدق بذريته ، فلقد أدرك أن إبليس قد عاد إلى الانتصار مرة أخرى ، قال لهم :
- أى بنى إن الشيطان لكم عدو مبين ، ولكم فيما حدث لى ولأمكم عظة وعبرة ، وفيما حدث لأخويكم نذير شؤم ، فانتبهوا إلى عدوكم ، الذى سيظل يتربص بكم الدوائر ، ليفسد حياتكم بالندم على طاعتكم له ، فهذا قابيل قد فعل فعلته وفر هائما بين الجبال نادما على ما جنته يداه ، مطاردا بالعذاب ، ممزق الفؤاد ؛ وهذا هو حصاد طاعة إبليس ، فالجانى يلقى

عذابه عن الخطيئة مرتين : مرة فى الدنيا ،ومرة فى الآخرة ، وهذا ما يريده إبليس بكم ، وهذا ما أقسم أنه فاعله ، ولكن الله أعطاكم سبل الاختيار ، ووضح لكم طريق الانتصار عليه ، فإياكم أن تعمى منكم القلوب والأبصار ، فلا تنتهوا عما نهاكم الله عنه ، وتذكروا أن إبليس محيط بكم ، فانتبهوا لهذه الحقيقة حتى لا ينقض عليكم ، واعلموا أنه لا سبيل له عليكم ما دام الله حيا فى قلوبكم ، حاضرا فى أفعالكم .

- ٨ -

ومرت السنوات وتعاقبت ، فصارت قرونا .

وتكاثر أبناء آدم وحواء .

وسعى إبليس بالشر ينشره بينهم ، فلقد بهرتهم ملذات الدنيا فراحوا يعبون منها عبا ، وانشغلوا بأنفسهم ، ونسوا الله .

.. وانغمست البشرية فى لذات تعافها الحيوانات ، وكثر الظلم حتى صار ظلمات .

وها هى ذى الرسل تترى ، مذكرة ومحذرة ، فتصحو القلوب الطيبة ، وتظل القلوب الخبيثة تعمه فى غيها ، ولكن القلوب التى أفاقت ، لا تلبث أن تغفو ، وتستسلم فى لحظات غفلتها لأزيز الشياطين ، فالحكام من ملوك وكهان ورهبان سعداء بما هم عليه من سلطان ، يسخرونه فى العب من المتعة أى كان مصدرها ، حتى أصبحوا أشر من يعيش على وجه الأرض !.

.. وجاء موسى υ معاضدا بأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، يدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ، والعودة إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ولكن فرعون أبى الهداية وازداد طغيانا وكفرا ، إلى أن كان نصر الله وعبر موسى بقومه بحر الظلمات إلى بحر الهداية والرشاد ، وغرق فرعون وجنوده فى اليم .

.. ولكن إيمانهم لم يلبث إلا قليلا ، وعادوا يغوصون فى شركهم ، وضلالهم القديم !.

.. وبعث الله عيسى بن مريم υ آية من قدرة الله على الخلق ، فخلقه من غير أب ، دعا اليهود إلى العودة إلى عبادة الله ، وبشرهم برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، فلم يستجب لدعوته إلا قليل من الحواريين والفقراء ، لاقوا من اليهود الأهوال من صنوف العذاب والاضطهاد ، ولما ضاق إبليس من اشتداد الدعوة ، أمر أنصاره من اليهود بقتل عيسى υ ، ولكن الله رفعه إليه ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم .

.. واتسعت مساحة النور باستجابة الناس للتعاليم الإلهية التى حمل أمانتها الذين صدقوا برسالة عيسى υ وساروا على دربه ، ولكن سرعان ما نزغ إبليس بينهم ، فجعلهم شيعا وأحزابا ، كل فريق يختلف ويتناحر مع غيره من الفرق الأخرى ، كما زين لهم حب السلطان والتحكم فى الخلق ، فخفت صوت الزهد فيهم ، وضاع الحياء من بينهم ، وسيطرت عليهم الماديات وقادتهم الشهوات ، وسارت الغلبة من الرهبان على درب من سبقوهم بالمعصية من الأحبار ، فأخفوا من الإنجيل ما سبق وأخفى من التوراة ، واصطنعوا لأنفسهم قدسية ما هى لهم ، ولا أمر بها الله ، ولكنهم ابتدعوها ، فدخلوا ، وأدخلوا الناس معهم فى ظلمات الشرك والضلال .

.. وعاد إبليس يجأر منتصرا ، فغرقت الأقطار المسيحية ، فيما هى غارقة فيه باقى الأقطار ، من مادية مفرطة فى طلب الملذات ، ونسوا أن السيد المسيح υ كان مترفعا عن الدنايا ، وكان حصورا .

أما من لم يستجيبوا لدعوة موسى ولا عيسى ، من أهل الجزيرة العربية ، والقرشيون منهم خاصة ، فبقوا على ما كان عليه الآباء والأجداد من حنفية إبراهيم υ ، لكن إبليس أدخلهم فى الشرك ، بأن زين لهم أن يتخذوا من الأصنام وسطاء بينهم وبين الله ، ثم أنساهم ذكر الله ، فأصبحت الغلبة تعبد الأصنام من دون الله ، وأصبح إبليس يحيا بينهم نهارا جهارا .

.. ووسط هذا التدنى تتأرجح ما بين الشرك والكفر ، بدأت نجوم شاحبات تبعث بنورها ، ينساب باحثا عن سبيل يضئ تلك الظلمة الظلماء التى عمت البشرية ، إرهاصا وتبشيرا بقرب تحقق وعد الله برسول يأتى من بعد عيسى υ اسمه أحمد ، وسمع القرشيون قولا فى أصنامهم، مثل ذلك الذى قاله الجد الأكبر إبراهيمυ:

ـ والله إن أصنامكم لا تغنى ولا تسمن من جوع ، ولا تستطيع لكم ضرا ولا نفعا ، ولا تستطيع دفع الأذى عن نفسها .

.. ثم ظهر من بينهم من هجر وثنيتهم إلى المسيحية ، كورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وغيرهما وإن كانوا قليلا ، ولقد شجعهم على إعلان عقيدتهم ، ضعف السلطة فى مكة ، فبعد وفاة عبد المطلب تصارع القرشيون على الزعامة ، ولم تجتمع لهم كلمة !!.

كما ظهر من ترك كل ما يعبد الناس ، واتجه إلى البحث عن الخلاص فى وحدانية الإله ، كزيد بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب ، ولقد لاقى زيد من قريش كل صنوف المهانة، مما دفعه للهجرة سائحا فى بلاد الله، لا يقر له قرار ، ولا يكف عن البحث عن نور يرشده إلى طريق الوحدانية ، حتى ورد الشام والتقى بعالم من علماء يهود ، فسأله عن اليهودية ، فقال له :

ـ إنك لا تكون على ديننا ، حى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

قال زيد لليهودى :

ـ والله ما خرجت من دارى ، ولا هجرت دين أهلى إلا خوفا من غضب الله ، وبحثا عن طاعته ورضاه .

قال اليهودى :

ـ ما يقول قولك هذا إلا الحنفية .

قال زيد مستبشرا فى لهفة من أتعبته نفسه بحثا عن اليقين ، ويتعجل لها أن ترضى وتهدأ :

ـ وما الحنفية ؟.

قال اليهودى :

ـ هى دين إبراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا .

قال زيد فى رجاء :

ـ ألا علمنى دين إبراهيم ؟.

قال اليهودى :

ـ ما بقى أحد يعرف عن دين إبراهيم .

ترك زيد اليهودى ، وسار يحدوه الأمل فى أن يجد عند النصارى ما لم يجد عند اليهود ، ذهب إلى الرهبان فى الكنائس والمغارات ، يسألهم عن دينهم ، فلم يجد غير قول واحد :

ـ انك لا تدخل ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله .

ارتاعت نفس زيد : فهل هنالك من يسعى إلى أن تصيبه لعنة الله ؟!!.. وهو ما خرج إلا بحثا عن رحمة الله .

ولما أفصح بخوفه ، قال له الراهب :

ـ إنك لا تجد هذا إلا فى دين إبراهيم ، ما كان يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما أحد على دينه الآن .

.. عاد زيد إلى مكة ، وأعلن الناس بقوله :
- اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم .
واعتكف فى الكعبة مبتعدا عن حياة أهلها ، ولا يسمع منه غير قولة يقولها ، ولا يحيد عنها :
- اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكننى لا أعلمه ، ولا أقنط من رحمتك .
.. ثم يخر ساجدا لله الواحد ، راجيا أن يطول به العمر ، فيخرج من جديد باحثا عن دين إبراهيم ، فلعله واجد من يرشده .
ويرتاع إبليس ..
وينفض فى هياج شديد ، متسائلا ..
: ألا من استسلام كامل لى ، ألا من طاعة شاملة كاملة ؟!.
.. وتدوى الحقيقة الأبدية فى الوعد الحق الذى أعطاه الله تعالى لبنى آدم ، تمسك بخناق إبليس وتهصره هصرا : " إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من تبعك من الغاوين ".

- ١٠ -

كان محمد يكره عبادة الأوثان ، كما كان يكره الكهان والرهبان ، لأنه يعلم أن أكثرهم أنصار لإبليس ، ينتصر بهم على الخير فى الإنسان ، وكان يعجب إذ يراهم بين الأقوام مهابين مجابى الطلب ، ولهم من السيطرة على الأفئدة ما يحمل الناس على الخوف منهم والوقوع فى إسارهم ، ولم لا ، والشياطين تحمل إليهم أخبار الغيب التى يتسمعون إليها من السماء ، فيفتنون بها الناس ، ويسيطرون عليهم ، وما أسهل أن تملك فؤاد جاهل يعبد حجرا أو نجما ، أو خلقا من خلقا الله ، ويخاف أن يطرح صنمه أرضا ، فى حين يطرح جسد غريمه ، ويهيل عليه التراب .
.. وبينما كانت قريش تتردى فى أميتها وجهالتها ، وقد أصاب تجارتها البوار ، وأصاب الجفاف صحرائها ؛ كان محمد يعلو فى قدره ، ويسمو فى خلقه بين قومه. .. وأصابت الفاقة عمه أبا طالب ، فلقد جفت ضروع نوقه وغنمه ، وركدت تجارته ، ولحقه ما أصاب أهل مكة من جدب ، وتحركت الشفقة فى قلب الشفوق ، فذهب محمد إلى عمه العباس يستحثه على مساعدة أبى طالب ، واتفقا على أن يكفل كل واحد منهما ابنا من أبنائه الكثر ، ليخففا عنه ولا يجرحا مشاعر الكرامة فيه .
وتحدث محمد إلى زوجه خديجة فأقرته على ما اعتزم ، وامتدحت سلوكه ، وحين صحب محمد على بن أبى طالب إلى داره ، رحبت به خديجة كل الترحيب ، واستقبلته وكأنه صغير من صغارها عاد بعد غيبة إلى أهله وداره .
لقد كانت خديجة منذ عاشرت محمدا تكبره كل الإكبار ، وتمتدحه أمام الجميع ، وكان إذا ما جاء ذكر لاسمه فى حديث عابر توردت وجنتاها ، وانفرطت عواطفها من شدة الوجد ، وقالت :
- محمد الأمين حفظه الله لأهله .
.. وكثيرا ما راجعت نفسها خجلى مما تظهره ، وكثيرا ما لامتها صويحباتها على هذا الإظهار للحب الذى يفسد عليهن الرجال !.
: ولكن هل زوجها كغيره من رجال قريش ؟!!.
: محال فهو ليس مثلهم أبدا ، فهو له خلقه النبيل ، وتصرفه المحمود ، فكيف لهن أن يدركن ما تتكلم عنه .
.. لقد عاشرته فوجدت منه خلقا غير خلق من عرفت من بشر ، وإن حضوره للدار لريح طيبة ، وإن ذهابه لشوك، فنفسها المشتاقة إليه ما تشتاق إلا بحثا عن

الطمأنينة والمودة والرحمة ، فهو أول زوج احترم أدميتها ، وامتدح عملها ، بل شاركها فيه ، وهو من أحيا شعورا كان قد مات ، بأنها ركن مهم فى الحياة ، بعد أن جعل رجال قريش نساءهم كسقط المتاع : يأمروهن فيأتمرن ، وينهوهن فينتهين ، ولا رأى لهن ، ولا حق فى مشورة ، يقبلون عليهن حين تكون لهم بهن حاجة ، وينفضون عنهن إذا ما انقضت حاجتهم منهن ؛ وإذا تذمرت امرأة ، أو ارتفع لها صوت يدسون أنفها فى التراب !!.

.. أما هو الصادق الأمين ، فلقد أحاطها بحنانه ، وشملها بعطفه ، وأيقظ فيها كل مشاعر الحب والكرامة ؛ فأقبلت عليه مخلصة وفية ، تغدق عليه من فيض مشاعرها ، فكانت له الأم التى حرم منها فى صغره ، والحبيبة التى تضعه فى عينيها خوفا عليه من نسمة الهواء أو لفح الشمس .

كانت تتمنى لو منحته وجودها كله ، ولم تجد سبيلا تعبر به عن عرفانها إلا أن تكرس حياتها ، لتعطيه البنين والبنات ، فولدت منه القاسم وعبد الله الطاهر ، وزينب وأم كلثوم وفاطمة ، وهى التى لم تنجب من زوجيها السابقين غير ولد واحد ، رغم صغر سنها آن ذاك .

وهى لا تنسى ذلك الحزن النبيل الذى غلف ملامحه حين مات ابناهما : القاسم ، ثم لحق به الطاهر ، فلقد أخفى عنها حزنه ، وأقبل عليها مواسيا ، يهون مشاعر الفقد التى كانت تحرق منها القلب ..

: فما أنبل حزنك .

: وما أعظم صبرك .

: وما أغلاك من زوج ، جعلت بحسن عشرتك كل ما يضيع مهما عز شأنه ، وعلت منزلته ، يهون ما دمت أنت سالما .

انقطع محمد عن منتديات قريش ، وأكثر من الصعود إلى غار حراء لينقطع فيه متعبدا لله ، بعد أن كان لا يتحنث فيه إلا فى شهر رمضان ، فقال القرشيون :

ـ إن محمدا عشق ربه .

.. ولاحظت خديجة ، أن محمدا قد قل كلامه ، وندر إقباله على الطعام لكثرة ما يصومه من أيام .

وشغلها أمره كثيرا ، حتى أضحت لا تنام الليل ، ولما أمضها الفكر ، رأت أن تسأل الكهان ، فلعل ما أصابه سحر قام به الحاسدين ، المستكثرين عليها هناءها معه ، وكونه قدم سعد فى حياتها ، فمنذ تزوج منها ، راجت تجارتها ، وتضاعفت أموالها ؛ وحين استشارته فيما قر عليه قرارها ، غضب غضبة ما رأته قد غضب مثلها ، وقال ملاوما:

ــ يا ابنة العم ، ألا تعلمين أن الكهان أنصار للشياطين يلجأون إليها فى أعمالهم ، ويستخدمونها فى خداع الناس ، فأعمالهم نجس من نجس .

واعتذرت خديجة للحبيب .

ولم تعد لمثل هذا الحديث مرة أخرى .

الفصل الرابع : وحى يوحى

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ فِى لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَٰنكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٌ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَـٰٓٮِٕكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾

سورة القدر

`

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :
أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان .
وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان .
وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان .
وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان .
وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان .

خرج محمد من غار حراء ، بدأ يخطو بين الصخور فى حذر ، كانت الشمس فى بدء إشراقها ، حانية بدفئها ، فالغار رطب بطبيعته .
راحت الأصوات تتناثر من حوله محيية فى مودة :
ـ السلام عليك يا رسول الله .
هو كثيرا ما سمع هذه التحية أثناء سيره بالخلاء ، هى أصوات تقلقه أكثر مما تسعده ، لأنه يخاف خداع إبليس ، ويكره أن يكون له قرين ، لكن النور الذى يفد ليضفى جوا من الطمأنينة والراحة على نفسه وهو منفرد فى الغار ، محال أن يكون من فعل الشياطين ، فالشيطان لا يفد على الإنسان إلا بالظلمة والشقاء .
ولما تحدث بمخاوفه إلى زوجته خديجة ، طمأنته فالشياطين لا سلطان لها إلا على الفاسدين ، وهو خيار من خيار .
رأى أثناء سيره صبيا نحيلا ، على مبعدة منه ، يهش غنيماته بعصا فى يده ، ذكره بصباه أيام أن كان يرعى الغنم لعمه أبى طالب ولأثرياء قريش لقاء أجر قليل.
ـ كيف حال صاحبى ؟ .
التفت خلفه ، فوجد عبد الكعبة هو من خاطبه ، كان يتقدم قافلة قد عادت بتجارتها من اليمن ، رد تحيته بأحسن منها ، وتقدم أبو بكر ، وتصافحا فى شوق ، ثم سارا جنبا إلى جنب إلى الكعبة فطافا بها ، واتجه عبد الكعبة إلى أصنامهم ، بينما انصرف محمد إلى داره ، هام فى سيره ، فهو سيرى زوجته وبناته ، ويمكث بينهم أياما ليطمئن على أحوالهم ، ثم يتزود بما يقيم أوده ، ليعاود من جديد الصعود إلى جبل حراء .

ـ ٢ ـ

.. منع إبليس من الصعود إلى السماوات العلا ، وقذف بالشهب ، صرخ إبليس ملتاثا وهو يهوى من السماء :
ـ وا سلطانيه .
فهذا يعنى زوال ملكه ، وانتهاء تسلطه على تلك الملايين من الإنس ، فإنه يفتنهم ويرهبهم بالإيحاء إليهم بأنه يعلم مالا يعلمون ، وأن الغيب الذى يقلقهم ويحيرهم هو له كتاب مفتوح ، وإبليس لا علم له إلا من خلال تسمعه لأخبار السماء التى تتحدث بها الملائكة ، فإذا منع عن الاستماع فمن أين له ما سيفتنهم به ؟.
: يا ويل أياميه ، ويا لضيعة سلطانيه .
.. خر إبليس يمرغ وجهه فى التراب أسفا ونكدا .
.. تخسفت به الأرض ..
.. هوى فى طين المستنقعات ..
تلاطم مع الأمواج ..
ثم غاص حتى القاع فى البحار والمحيطات ..

ليهرب من السؤال الذى يلح عليه ، ويكـاد يزهـق أنفاسـه ، ويتمنـى أن يطـرده ، والا يناقـشه حتى لا يواجه بالحقيقة ، ولكن السؤال ظل يلح ويصك فكره بعنف ، بعد كل ذاك الهروب الـذى قاساه ليفلت من مواجهته :

- أيكون هو المنتظر ؟ .

: أيكون محمد ذاك الذى عصمه الله ،فلم أستطع أن أجد لى سبيلا عليه ، هو النبى المنتظر الذى أتى زمانه ؟ .

صرخ إبليس :

- والله لا أتركه ، ولأقعدن له كل مقعد ، ولأتربصن به كل متربص .

قال نفر مؤمن من الجن :

- وربنا إنك لن تستطيع له شرا ، فإن الله عاصمه ، وهو نبى ، كما عصمه وهو صبى .

قال إبليس وقد فاحت منه رائحة الكراهية عفنة خبيثة :

- إذن سوف أفسد عليه قومه ، ولأجعلن أقرب الناس إليه أكثرهم عداوة له ، ولأجعلن دعوتـه نارا تأكل قبائل قريش .

قال النفر من الجن المؤمن :

- ولكنه دعوة أبيه إبراهيم .

أذهل قول الجنى إبليس ، أعاد صورة إبراهيم ، وولده إسماعيل وهما يتمان بنـاء الكعبـة إلـى ذهنه ، سمع صوت الخليل وهو يرفـع كفيـه بالـضراعة إلـى الـسماء يـدعو ربـه قـائلا : * رَبَّنَـا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُـزَكِّيهِمْ إِنَّـكَ أَنْـتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) سورة البقرة

قال إبليس مغتاظا :

- ولكنى محوت بشارته من التوراة والإنجيل فما تركت كلمة فيها ذكر لأحمد .

قال الجن المؤمن :

- ليس من كل الكتب ، ولا من كل العقول : محيت ، والله مبلغ رسالته ، فعال لما يريد .

.. تناثرت من إبليس ملايين الـذرات بالحقـد تطوف فى جنـون ، ثـم خمـدت مـرددة فـى رهبـة وخضوع وخشوع :

- حقا الله فعال لما يريد .

.. ثم عادت الذرات تلتئم لتعود إلى طبيعتها الخبيثة ، وقال اللعين :

- ولكنى عاهدت ربى أنى مفسـد آدم و ذريته ، فلأقعـدن لمحمـد فـى كـل مجلس ، أصلـصل فى الآذان حتى لا تسمع ، وأوسوس فى النفوس حتى لا تخشع ، ولأغوين به السفهاء حتى يمل ولى يخضع ، فإن كان محمد معصوما ، فإن من حوله ليسوا معصومين .

.. هرول زيد بن عمرو بن نفيل ، يبحث عن أول قافلة تعود من الشام إلى مكة ليعـود معهـا ، وحين عرف بأن أمامه أياما كثيرات حتى يستطيع العودة ، قرر أن لا ينتظر ويعود وحده ، فلـم يكن ليطيق أن ينتظر لحظة بعد أن قال له أحد الرهبان :

- إن الدين الذى تبحث عنه هو دين الإسلام ، وما أنت بواجده هنا بالشام ، ولكنك ستجده فـى قريتك حيث سيبعث نبى منكم يدعو إلى دين إبراهيم ، فالحق به فإنه مبعوث الآن ، وهذا زمانـه .

ودنت المسافات واقتربت ، وتأججت النفس باللهفة والشوق إلى رؤيا النبى المنتظر ، وهانت آلام كل مشقة على الجسد المنهك بالأسفار والسنين ، فها هى ذى نهاية البحث عن ديـن يرتـاح له القلب ، تقترب خاتمتها ، رفع زيد يديه إلى السماء ، شاكرا لله أن أحياه حتـى يـشهد مـشرق الإسلام .

لكن زيدا لم يصل إلى مكة ، ولم ير النبى الخاتم ، فلقد قتله أنصار إبليس ظلما ، ومات باحثا من الباحثين عن سبيل إلى الله .
.. هكذا شاء الله : أن يكون زيد علامة على الطريق ، قبل أن يدرك الطريق .

- ٣ -

المكان : غار حراء .
الوقت : ليل .
اليوم : الاثنين .
الشهر : رمضان .
السنة : الثانية عشرة قبل الهجرة .

القمر كعادته مع أواخر الشهور العربية ، يظهر متألقا فى نهاية الليل ، ثم يغادر السماء مسرعا ويرحل ، لتغرق الصحراء فى ظلمة موحشة صامتة لا يقطع صمتها غير غثاء غنيمة ضالة ، أو عواء ذئب جائع ، ولا يعكر ظلامها إلا نجم عليل ، يقاوم كسف السحاب التى تكتم أنفاسه فيضعف ويضعف حتى يصير شاحبا مصفرا ، أو شهاب يمرق متوهجا لينطفئ للحظته .

فى سموق ، كان يرتفع جبل حراء ، شامخا فى تفوق مهيب على كل ما حوله من أكمة وجبال ، وعند النصف الأخير من قامته بدا غار حراء كفوهة تنادى من يراها أن يقدم على دخولها فتأخذه إلى عالم المجهول .

داخل الغار كان محمد منحنيا حتى لا ترتطم رأسه بجدره وبسقفه المنخفض ، يجمع بقايا ما صحبه معه من طعام وغطاء ، مستعدا للرحيل عائدا إلى داره ، بعد أن قارب الليل على الانتهاء .

.. لكن النور فاجأه ، نور كأنه شلالات فضة مذابة ، أو توهجات أشعة ماسات بيض سقطت عليها أشعة قوية فجعلتها تتوهج ، هو نور ليس كمثله نور الثريا ، أو نور القمر فى قمة الاكتمال ، أو نور الشمس لحظة الظهيرة ، فهو أعظم من هذا وذاك ، وأشد وأقوى ، فهو نور ليس كمثله نور .

بدا الأمر وكأنه حلم يقظة ، فلقد وجد محمد بدنه يذوب ويتلاشى ، فيصبح جزءا من ذرات ذاك النور ؛ متخلصا من قيد جسده ، متساميا ، محلقا ، يطوف فى انطلاق مبهر بلا موانع أو قيود مادية تعوق حركته .

كان منتشيا بما يحدث له ، مستريحا لحدوثه ، مشوقا للاستزادة والاكتشاف ، فلا أرض ولا سماء ، ولا حدود تحدد الأشياء وتجسدها ، مثل تلك التى تحيط بالأحياء ، وتحد من قدراتهم ؛ بعد أن أصبح الوجود نورا ليس كمثله شىء .

.. تبدى له ملك .
.. كان يحمل كتابا فى نمط من ديباج .
قال لمحمد والكتاب مفتوح :
- اقرأ .
وتستبد الحيرة بنفس محمد ، ويرد قائلا :
- ما أنا بقارئ ؟! .

ويضم الملك محمدا إليه ضما شديدا ، يزداد مع مرور اللحظات شدة فوق شدة، حتى لتكاد النفس تتبدد ، ويكاد الوجود أن ينتهى .

.. هنا يخفف الملك من غطه ، ثم يترك النفس حرة ، فتنساب الراحة بالخدر تهز المشاعر ؛ لكن الأمر لا يطول فما هى إلا لحظات ويعود الملك إلى قوله لمحمد :

ـ اقرأ .
.. وتمتلئ النفس بالخوف ، خشية العودة إلى الغط وهوله ، ويتساءل محمد فى رجاء :
ـ ما أنا بقارئ ؟! .
ويعاود الملك غط النفس القلقة الباحثة ، ويشتد عليها ، ثم يطلقها بعد أن أذاقها المزيد من الرهق ؛ لكن مشاعر الخدر والراحة ، لا تعاود النفس ، فلقد حلت مكانها مشاعر القلق والخشية من معاودة الغط ؛ وسرعان ما تحقق ما توقعت ، فلقد عاود الملك القول للمرة الثالثة :
ـ اقرأ .
ويكاد صوت محمد أن يختنق من الحزن والخزى ، وهو يعلن الحقيقة للملك :
ـ ما أنا بقارئ ؛ فما قرأت كتابا قط ، وما أحسنه ، وما أقرأ ، وما أكتب !! .
وفى استسلام كامل ينتظر محمد أن يعاود الملك غطه ، لكن الملك لا يضمه ، ولا يشتد عليه ، ولكنه قرأ فى خشوع أوبت معه ذرات النور ، فى ترديد رائع شمل الوجود جميعه :
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) سورة العلق
.. وكأنه ما كان قولا قيل ، فالكلمات قد انسابت ونقشت نقشا على جدر قلب محمد ، بل سرت فى دمه ، وامتزجت بروحه فى تآلف كامل ، حتى إن محمدا يستطيع أن يقرأها ، بل ها هو ذا يتلو ما سمع من الملك ، ودموعه تنساب فى خشوع ورهبة : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)
وما إن انتهى من تلاوته حتى أجهش بالبكاء ، وراح جسده ينتفض ، وبقى على هذا الحال زمنا لا يستطيع أن يدرك مدته طالت أم قصرت ؛ ولما هدأ رفع يده فوجد له يدا ، ورفع بصره فأبصر صخور غار حراء تحيط به ، ووجد واقعه الذى كان عليه من قبل محيطا به ؛ فلا نور هناك ، ولا ملك .
تملك نفسه حزن شديد ، فلقد ذهب عنه ذاك العالم النورانى ، وكأنه ما حدث ، وكأنه ما سمع ، وما تعلم ؛ وكأن ما حدث وهما من وهم ! .
.. ولكن من المحال أن يكون ذلك كذلك ، فها هى ذى الكلمات لا تزال نابضة فى قلبه ، ماثلة فى أذنيه ، ثابتة فى عقله .
.. فسبحان القادر الذى علم الأمى أن يقرأ .
.. سبحان الله الذى علم الإنسان ما لم يعلم .
.. سبحان من قال فى سورة العنكبوت :
وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)

ـ ٤ ـ

نهض مرهقا تعبا ،غادر الغار ، اتخذ طريقه نازلا الجبل ، وشمس النهار ترسم على الصخور ظلالا متأرجحة لخطوط مبهمة .
لم يستطع أن يتجه إلى الكعبة ليطوف بها ، كما اعتاد بعد كل انتهاء من تحنث ، بل اتجه إلى داره ، وهو يدعو ربه أن يتمكن من الوصول إليها قبل أن يسقط إعياء ورهقا .
استقبلته خديجة وقلبها منفطر عليه ، فلقد ذهبت بها الهواجس كل مذهب ، بعد أن تأخر عليها ، وهو الذى لم يخلفها وعدا ولا موعدا ، وزاد من قلقها أن رسلها الذين بعثتهم يتقصون عن سبب تأخره ، عادوا إليها ليبلغوها أنهم لم يعثروا عليه فى مكة أو فى شعابها .

كان يقف أمامها ذاهلا ، يعيش بروحه بعيدا عن الموقف الذى تعيشه هى ، حقيقة أنه ماثل أمامها بجسده الذى راح يرتعد وينتفض بالحمى ، ويتفصد منه العرق ، من روع ما رأى ؛ لكن النفس مازالت واقعة فى إسار الموقف الذى عاشت فيه ، وتوحدت خلاله مع دفقات النور ، ونورانية الكلمات التى ألقاها عليه الملك ، وملكت عليه كل كيانه .
أخذت خديجة تسأله فى قلق عن ما أصابه ، وعن السبب الذى أوصله إلى تلك الحال التى تراه عليها ، وهو لا يجيبها بشىء ، ثم وفى صعوبة بالغة تمتم فى رجاء :
ـ دثرونى .. دثرونى .
أسرعت به إلى حيث اعتاد أن ينام ، فأنامته ، ودثرته بالأغطية ، ثم انحنت لهفى عليه تكرر تساؤلها الملتاع عما به راجية باكية .
.. وامتلأ فؤاده عطفا عليها ، فراح يجاهد رهقه ، وبعد جهد جهيد ، قص عليها ما حدث وما كان فى كلمات متقطعة مرتعشة ، والدمع ينساب مدرارا ، ثم أفاض بخوفه من أن يكون ما حدث من فعل إبليس ، الذى سيطر على أهله واستعبدهم بالسحر وبالشعر ، ثم أضاف قائلا :
ـ لقد خشيت على نفسى ؟ .
لكن خديجة نفت مظنته ، وأكدت له أن ما حدث محال أن يكون من فعل الشيطان ، فما رآه نور ، وما سمعه تمجيد للخالق العظيم ، وأمر بالعلم ، وإبليس لا يريد بالبشر خيرا ، ولا يذكرهم إلا بالدنس والفساد ، ولا يبتغى لعقولهم إلا أن تتسربل فى ظلمات الجهل ، وظلمة الدنايا ، ثم أردفت مؤكدة :
ـ كلا .. ورب الكعبة إن الله لن يخزيك أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .
اطمأن إلى كلماتها ، هدأت مخاوفه قليلا ، فاستطاع النوم أن يأخذه إلى عالم الراحة .
تأملته خديجة طويلا ، ونفسها تكاد تتفجر خشية عليه ، رغم يقينها مما قالته له ؛ ولكن لم لا يساورها الشك : فهى زوجته ، وقد تكون منحازة إليه ، وهى تحبه كل الحب ، بل هى مفتونة به ، مقدرة له تلك العشرة الطيبة التى عاشرها .
.. واشتد ت بها الهواجس ، فأسرعت ترتدى ملابسها ، وتصحب أحد غلمانها ، وتسعى إلى دار ابن عمها ورقة بن نوفل ، وبصيص من أمل يحول بينها و بين أن تنهار فرقا على الحبيب ، بعد أن تسللت إلى نفسها مخاوفه التى أفصح بها إليها ، فزلزلت يقينها ، وأوشكت أن تنزل بها الرعب .

استأذن لها الغلام ، واستقبلها الشيخ الفانى بالترحاب ، وهو يقول مهللا :
ـ والله يا ابنة العم ما جاء بك الساعة إلى إلا أمر جلل .
حدثته خديجة بما رأت عليه محمدا ، وبكل ما سمعت منه .
استمع إليها ورقة بكل جوارحه ، وكل كلمة خطها من إنجيل وتوراة تحدثت عن أحمد المنتظر تتوارد على ذهنه ، حقيقة أن بصره الآن قد كل وبات أعمى ، لكن بصيرته أصبحت تضىء له الطريق بالحقيقة ، هتف مهللا ، وقد أدرك أنه قد تحقق المبعث للنبى الخاتم :
ـ قدوس .. قدوس ، والذى نفسى بيده ، إن ما رأى محمد هو الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة .

ـ ٥ ـ

خرجت خديجة من دار ورقة بن نوفل ، وقد هدأت نفسها ، واطمأن بالها إلى كون سعيها مع محمد ، إنما كان سعيا مع نبى الله الذى سمعت ابن عمها يتحدث عنه كثيرا ، منذ اعتنق دين

النصرانية ، وكتب الإنجيل والتوراة بيده ، وكان يؤكد أن هناك نبيا قد أظلهم زمانه اسمه أحمد ، وأن عيسى υ قد بشر به ، وأعلن أنه التام للرسل ، وأنه الخاتم .
واستعادت ذاكرتها ما قاله لها غلامها ميسرة منذ سنوات وسنوات ، عندما أرسلته مع محمد فى تجارتهما الأولى إلى الشام ، وكيف أن الراهب الذى اعتاد أن يذهب إليه ميسرة قد لاحظ أن الغمام يظلل محمدا ، ليمنع عنه لهيب الشمس من دون كل رجال القافلة ، لذلك راح يسأل ميسرة عن صاحبه ..
: كيف يتصرف ؟ .. ومن أى قبائل قريش هو ؟..
: وما اسمه ؟.. وما خلقه ؟ .
عشرات من الأسئلة سألها الراهب لميسرة ، ثم رجاه أن يصحب محمدا إلى صومعته ، فلما ذهب معه إلى الراهب وجدوه قد أعد لهم طعاما ، وهو ما لم يفعله من قبل لميسرة طيلة زياراته السابقة ، فلما فرغا من الطعام أخذ يسأل محمدا فى شتى الأمور ، وهو لا يكف عن البحث بعينيه الكليلتين عن علامات معينة ، فيطيل النظر إلى يديه تارة، وتارة إلى عنقه وما انكشف من ظهره، وحين أرادا أن ينصرفا استبقى ميسرة، وقال له :
ـ إن صاحبك هو النبى المنتظر ، فأكتم الأمر عنه ، ولا تكلم فيه أحدا ، إلى أن يظهره الله .
.. وإذا لم تصدق نبوءة الكاهن ، ولم يكن ورقة صادقا فى كلامه ،أليس خلق محمد النبيل ، واختلافه الشديد عن أقرانه، وبعده عن الخطايا وأكل السحت ، وكراهيته للكهان والرهبان من الذين يعملون بالسحر ، فأصبحوا بسحرهم أولياء لقريش، وهجره لمجالس الشعر والفجور وعبادة الأصنام ، ووصله لرحمه ، وحدبه على أهله ، وإكرامه للضيف ، وإعانته للضعيف ، وكل ذاك التواضع الذى يلازمه بلا افتعال حتى لتراه بين خدمها وعبيدها فلا تكاد تدرك من السيد ومن المسود .. أليس هـذا جميعه كفيلا بأن يجعله هو النبى المنتظـر ؟! .
وحين دخلت دارها ، لم تستطع أن تمنع تنهيدة خرجت مع تمتمتها لنفسها :
ـ حقا يا محمد إن كل ما فيك محمود ، وأنه لأنت أحمد .
تسللت إلى مخدعه ، وجدته مستغرقا فى النوم ، وقد زايلته الرجفة التى كانت تهز جسده هزا ، بينما تألق جبينه بحبات العرق ، مدت يدها فى حنان ، ومسحتها
بطرف ثوبها ، وهى تهمس لنفسها :
ـ ورب الكعبة إنى لأرجو يا محمد أن تكون أنت نبى هذه الأمة ، لتكون رحمة بالناس ، كما كنت رحمة لى .

ـ ٦ ـ

استيقظ محمد من نومه مرهقا غاية الإرهاق ، وقد بدأت الشمس تأخذ طريقها نحو المغيب ، وذكريات تلك اللحظات النورانية التى عاشها لم تغادره بعد ، جلس فى فراشه متأهبا للنهوض ، أقبلت عليه خديجة تبشره بما قاله لها ورقة بن نوفل ، وتشهده بأنه نبى الله ، فلم تجد منه اهتماما بما قالت ، أو التفاتا إليه ، فهو لم يزل فى نورانية اللحظات الماضيات ، غير راغب فى الدنيا وما عليها ، والشك عنده أقوى من اليقين بالنسبة لما حدث فى الغار ، وهو محق فى شكه ، فكل ما يحيط بالحياة حوله من سحر وشعوذة ، جعل الحق يختلط بالباطل ، والحقيقة تتوه أمام الوهم ، حتى أصبح الشرك جزءا من عبادة القرشيين .
تحامل على نفسه لينهض ، قالت له خديجة وهو يأخذ طريقه خارجا :
ـ ألا تأكل ؟! .
قال وهو ينصرف :
ـ ما بى حاجة إلى طعام ..

لم تعجب لقوله، فمحمد قليل الميل إلى الطعام، دائم الزهد فيه ، هو ليس كغيره من أصحاب البطون المدلا ، بل هو كثير الصيام : فلم لا يكون قد بدأ يومه صائما ؟ .
اتجه إلى الكعبة ليطوف بها، كان مشتت الفكر، مشغولا بما أحيط به من أحداث ، عازفا عن كل شىء، غير آبه بما يحيط به من بشر ، إلى أن وجد يدا تحط على كتفه فانتبه ملتفتا ، فواجه ورقة بن نوفل يتحسسه سائلا :
ـ ألست محمدا ؟ .
قال عازفا عن الحديث :
ـ نعم إننى هو .
قال ورقة فى لهفة هامسا :
ـ ألا تحدثنى يا ابن أخى بما جاءك ؟ .
تفجرت الحيرة كلاما متصلا : عما جرى ، وعما سمع ؛ وأفاض بمخاوفه التى تؤرقه ، واستمع إليه ورقة بكل جوارحه ، وهو يسترجع ما قرأ فى سفر أشعياء النبى : " أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة " .
وها هو ذا قد جاء محمدا من يقول له : " اقرأ " .
.. لم يملك ورقة أمام تدفق عواطفه بالفرحة والبشر ، إلا أن ينحنى فيقبل يافوخ محمد وهو يقول :
ـ والذى نفس ورقةبيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى من قبل : ولتكذبنك ولتؤذينك ولتقاتلنك ولتخرجنك ، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصرا عظيما ، فأبشر يا ابن أخى فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم .
تساءل محمد جزعا :
ـ أو مخرجى هم ؟! .
قال ورقة مؤكدا :
ـ نعم فلم يأت أحد بمثل ما جاءك إلا عودى .
واصل محمد طوافه حتى أتمه ، ثم خرج إلى الخلاء وهو مهموم ؛ كانت ساقاه تقودانه إلى الغار ، مرهق النفس والبدن ، رغم ما قاله له ورقة ، فلعله لم يتخلص من الشك الذى يؤرقه ، ويطارده بأنه ممسوس ، وأن ما قيل وما سمع فى الغار ، هو من وسوسة شياطين الشعر ، وهذا ما كان يكره أن يصير إليه ، فما نهج نهج جده عبد المطلب ، ونهج عمه أبى طالب من صعود إلى الغار ، إلا فرارا من تلك الحياة النكراء التى يحياها قومه ، وبحثا عن طريق للعبادة الحقة بلا أصنام أو شرك ، عبادة لخالق السماوات والأرض ؛ أما أن ينتهى به سعيه إلى أن يصير : كاهنا أو شاعرا ، فإن الموت لأهون من ذلك .
.. كان قد تسلق الجبل ، مرتفعا عن الأرض ارتفاعا كبيرا، وقد تشبثت أصابع قدميه بمنزلق صخرة ، تتربص الهاوية بمن يتقدم فوقها خطوة واحدة ، هنا ظهر الملك يناديه مطمئنا، مهونا عليه :
ـ يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل .
داخلت نفسه طمأنينة جعلت قدميه تنسحبان متراجعتين، وعاد أدراجه ينزل الجبل، ولكن الملك عاود نداءه :
ـ يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل .
قطع طريق الهبوط وكأنه يطير ، وحين استقر على أرض الوادى ، رفع بصره ينظر إلى من يخاطبه فوجد الملك يملا السماوات والأرض محيطا به ، فلم يحتمل هول الرؤية وخر مغشيا عليه ، راح الملك يضمه إلى صدره مخففا عنه ، وليذهب ما أصابه من روع .

حين أفاق أسرع عائدا إلى داره ترجف أعضاؤه ، ولما بصرت به خديجة مصفر اللون ، مضعضع البدن ، يكافح حتى يستطيع الوقوف فلا يسقط ، هلع فؤادها ، وأقبلت عليه تغطه بشدة ، وكأنها تود لو تفتديه بنفسها ، وهى تسأله :

- ما بك يا ابن العم ؟ .

قال محمد وأسنانه تصطك فى عنف ، محاولا بكل ما تبقى لديه من جهد أن يسيطر على مخارج الكلمات :

- زملونى .. زملونى .

.. أسرعت خديجة تدثره بخمارها وبكل ما وقعت عليه يداها ، وأنامته فى فراشه ، وهو لا يكف عن الارتجاف ، وهى على التصاقها به، مهونة عليه ما يجد من شدة ، وهنا تبدى له الملك مخاطبا بكلام الله تعالى من سورة المدثر :

يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)

.. وهدأ جسد محمد، واستكانت نفسه، وامتلأ امتثالا لما نزل عليه، فالأمر جد لا هــزل، فلا شك ولا ريبة، فهذا الذى ألقى عليه ليس من الشعر فى شىء، بل هى أوامر إلهية تدعوه إلى طريق العبادة الصحيحة ، وإلى هجر الأوثان لأنها من أعمال الشيطان ، وإلى الطهر والتطهر من أدران الشرك والجاهلية ، والبعد عن النجس فى الملبس والخلق ؛ وهذا ما كان ينشده ويسعى إليه منذ شب بين أهله ورأى ما هم عليه من شرك عافته نفسه، ورفضه عقله، ففيما يفعلون تقليل لشأن العقل إن لم يكن فيه إلغاء له : فهل هنالك عاقل يجعل إلهه من صنع يديه ؟! .

ثم ها هو ذا مخاطب من الله تعالى ، بالحال التى كان عليها من شك وخوف وهلع ، مطالب بأن ينضو عنه حال التدثر العقلى : الذى يملأه شكا فى الحقيقة الجديدة ، وتخوفا من مواجهة التجلى الأعظم لله الذى خلق الإنسان من علق ، وعلمه ما لم يكن يعلم : وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) سورة القصص

فسبحان الله الرحمن الرحيم ، الذى شملت رحمته عبده محمدا فنزل عليه الكتاب، وما كان يدرى ما الكتاب، ولا الإيمان .

.. نضا عنه غطاءه ، استقام جالسا ، نهض وقد ملىء نشاطا وإقبالا على الحياة ، صادف خديجة فى طريقه، أخبرها بما أنزل عليه ، هللت خديجة لما سمعت ، وللحال الذى أصبح عليه محمد من إشراق ملأ الوجه نورا ، ومن فرحة بدت فى نبرات الصوت الواثق وقد زايلته الرعشة ،وذهب عنه التردد.

تطهر مغتسلا، وتبعته فتطهرت هى أيضا، وخرج إلى الكعبة، ليطوف شاكرا لصاحب البيت ما أنعم به عليه، بينما اتجهت خديجة إلى أركان بيتها تزيل ما بها من أوثان .

.. وأوحى إلى محمد أن يشهد أن : لا إله إلا الله .

واستقر اليقين ، وظهر الحق الذى كان ينشده هو والذين ملأ الشك قلوبهم فيما كان آباؤهم عليه :

- لا إله إلا الله .

: وهل يعقل حقا أن يحكم كل هذا الكون إلا بإله واحد ؟! .

: واحد ، أحد ، فرد ، صمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ثم أقرأه جبريل سورة الفاتحة :

بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّين (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧)

: يا لله ..

: ما كل هذه الرفعة التى تحملها كلمات رب العالمين ؟ .

: قدرة ورحمة ، إنها تبيان لعظمة الخالق ، ثم إتاحة للعابد أن يعوذ ويستعين به ، طالبا الهدى وسبيل الرشاد ، نائيا بنفسه عن طريق الضالين ، من المغضوب عليهم لشركهم ، وعدم إتباعهم لتعاليم الله .

عاد إلى خديجة مفعم النفس بالأمل فى أن رحمة الله قد أدركت العباد ، رتل عليها ما تعلم ، ثم أشهدها أن : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فشهدت .

- ٩ -

كان من عادته أن يستيقظ مبكرا ليبدأ يومه بالطواف حول الكعبة ، رغم قيامه الليل ذاكرا شاكرا لله ما اختصه به من نعمة الإسلام ، ولقد أضاف إلى عادته جديدا ، هو قراءة القرآن فى ركن قصى ، بعيدا عن الأصنام وعن آذان المتلصصين ، وحين ينتهى يخرج إلى الخلاء متعبدا متأملا فى قدرة الله .

وعند خروجه ذات صباح أشار إليه جبريل أن يتبعه ، فسار معه ما شاء الله ، ثم نكت جبريل الأرض بقدمه فتفجرت منها عين توضأ من مائها ، ومحمد يتبعه فيفعل مثل الذى يفعله ، وعلمه جبريل الصلاة ، فصليا ركعتين مستقبلين الكعبة ، وحين انتهيا عاد محمد إلى الكعبة فاستلم الحجر الأسود وطاف بالكعبة سبعة أشواط ، ثم ذهب إلى داره فعلم زوجه الوضوء والصلاة ، فلما انتهيا ، جاءه جبريل وقال له :

- أقرئ خديجة السلام من ربها .

التفت النبى إلى زوجته ، وقال لها :

- يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك .

قالت الصديقة رضى الله عنها :

- الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

وحين حل الليل ..

صلى به جبريل مرة ثانية ، فشرعت الصلاة مرتين بالغداة والعشى .

ومع تبدد خيوط الظلام ، وقف محمد يصلى مع أول من صدقت به ، فى ركن من الدار اختاراه ليكونا بعيدين عن الأعين ، ولكن على بن أبى طالب رآهما ، ولقد دفعه الفضول لأن يقف متأملا ما يحدث ، مستمعا لما يقال ، ثم تقدم يسأل دهشا :

- ما هذا يا محمد ؟! .

قال النبى صلى الله عليه وسلم :

- إنه دين الله الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته ، والكفر باللات والعزى .

قال على ، وقد أذهله ما سمع :

- هذا أمر لم أسمع به من قبل ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب .

.. ولأن النبى كان لا يريد لأمره أن يشيع فى مكة أو فى غيرها ، طلب من على أن يكتم الأمر ولا يذيعه ، فلا قسر ، فليست هنالك ضرورة تلزمه بأن ينضم إلى الدين الجديد .

كتم "على" الأمر ، فلقد كان يحب محمدا ، ولقد جعله حدبه عليه ، أقرب الناس إلى قلبه من بعد أبى طالب ، وكان محمد تام الثقة فى كتمان على للأمر ، فرغم صغر سنه فإنه يتميز عن أقرانه برجاحة العقل ، والرزانة .

ولكن عليا ، وإن كتم أمر دين محمد الجديد ، إلا أنه لم يستطع أن يبتعد بفكره ، ولا بوجدانه عما سمع ..

: الله الرحمن الرحيم .. هذا هو إله محمد ، إنه إله أولى بأن يحب ، وأن يعبد ، ثم إن محمدا لم يدعه إلى أمر يسىء ، منذ انتقل من بيت أبيه ليعيش معه ، فمحمد بحق مثلما قالت عنه قريش : الصادق .. الأمين .

حين قر قرار على ، لم يطق صبرا ، وخرج يبحث عن النبى ، ثم وقف بين يديه يرتعد وجدا وقال :

ـ ماذا عرضت على بالأمس يا محمد ؟ .

قال النبى صلى الله عليه وسلم :

ـ تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد .

قال على :

ـ أشهد .

.. وأصبح الذين يصلون فى دار خديجة ثلاثة ،ولكن الرابع انضم إليهم سريعا ، فحين رأى ـ من اختار محمد له أبا ـ أباه وهو يصلى ، ويرتل كلاما يأخذ بالألباب ، اجتاح كلام الله عقل الفتى المقبل على الشباب وزلزله .

.. ويطلب زيد من النبى أن يزيده علما بدينه الجديد ، ويجلس بين يدى النبى يستمع ، فلم يقم من جلسته إلا وقد شهد بأن لا إله إلا الله ؛ ولا عجب فى أن يحدث هذا لصبى اعتقه محمد من العبودية ، وأنزله منه منزلة الابن من الأب .

وما كان زيد ابنا لعبد ، ولكنه ولد بالشام من أب حر ، ومن أم حرة ، وأختطفه تجار الرقيق ، وجاءوا به إلى مكة وباعوه ضمن من باعوا من العبيد لحكيم بن حزام ، وحين عاد حكيم من رحلة الشام ، زارته عمته خديجة مهنئة لعودة ، فخيرها فى أن تنتقى من تريد مما عنده من عبيد ، تقديرا لزيارتها ، فاختارت زيدا لأنه كان أصغرهم سنا ، وأحسنهم وجها ، وكان اختيارها لنية بيتتها .

فلما عادت إلى دارها وهبته لمحمد ، تسرية عنه بعد أن فقدا ولديهما : عبد الله ، والقاسم ، وحين عثر الأب الحقيقى على ابنه فى كنف النبى ، بعد سنين عديدة قضاها متنقلا من بلد إلى بلد ، لا ييأس ولا يقنط ، واستمع محمد لقصة الأب منصتا فى رقة من ذاق لوعة الفقد ، ورأفة بالأب ، خير محمد "زيدا " فى أن يختار أى من الأبوين شاء ، وقال له :

ـ يا زيد هذا أبوك حارثة بن شرحبيل ، إن شئت فأقم عندى ، وإن شئت فانطلق مع أبيك .

وجاء قرار زيد سريعا ، وحاسما ، وبلا تردد :

ـ بل أبقى معك يا محمد ، فلقد أعطيتنى من الحب والرحمة ما لم أجده عند أحد غيرك .

وصحب محمد زيدا إلى مجالس مكة ، وأشهدهم أن زيدا قد صار ابنا له .

.. وهكذا انتظم المسلم الرابع فى الصلاة .

ـ ١٠ ـ

كانوا يتكتمون أمرهم ، فيصلون مع الشروق فى الكعبة ، ثم يستخفى النبى مع "على " فى الجبل ليصليا العشاء معا ، فلقد كانت قريش لا تأنف صلاة الضحى ، ولا تعجب منها .

ولكن هل استطاع تكتمهم للأمر أن يمنع تفشى خبر دينهم بين الناس ؟ .

: كلا .. فمن المحال أن يتحقق مرادهم ، لأن مكة كغيرها من المجتمعات الصغيرة ، يحب أفرادها أن يتجسسوا على ما حولهم من أخبار ووقائع ، لتكون محور أحاديثهم ، وشاغلا يجدد فكرهم ، ويلهب خيالهم ، فمجال الحياة اليومية ضيق محدود ؛ كما أن طبيعة البناء العمرانى تتيح للجار أن يشب قليلا فيكشف ستر جاره ، وأن ينصت بأذنيه فيسمع كما يريد ، وأن يتجسس فيلمس ما يود أن يكشف ستره ، فسكنى مكة الخيام والدور المبنية من حجارة الجبال ، المسقوفة بسعف النخيل ، أما أبواب الدور فهى ستائر من صوف الجمال أو الأغنام .

.. ولقد ساعد على سرعة الذيوع ما أعلنه ورقة بن نوفل منذ سمع من النبى بأمر الناموس الذى جاءه ، من أن محمدا هو أحمد الحامد لله ، وأنه هو الرسول الخاتم ، ثم راح يصيح فى غدوه ورواحه ، متوعدا القرشيين بزوال دولتهم ، وبالعذاب إن هم لم يتبعوا محمدا .

.. كما كانت خديجة كلما سئلت عن أمر الأمين ، لم تأخذ حذرها ، فتعلن حقيقة ما جاءه من أمر السماء .

.. وبسبب هذا جميعه ، سرعان ما تسامعت مجالس قريش بأمر الدين الجديد ، وراح القرشيون يقللون من شأن النبى ، ويشيعون أنه ساحر أو مسحور تخاطبه شياطين الشعر ، وأن أمره سينتهى إلى التعقل وهجر ما يتوهم ، كما انتهى أمر من سبقوه وتحنفوا هاجرين اللات والعزى وما عبد الآباء .

لذلك كانت فرحة سادة قريش لا توصف حين سمعوا بمرض النبى ، وبانقطاع الملك عنه ، وقالوا شامتين :

ـ لقد قلاه ربه .

ولكن فرحتهم لم تدم ، فلقد عاد جبريل محمدا صلى الله عليه وسلم يمسح عنه الألم النفسى الذى عاناه نتيجة تخوفه من زوال نعمة الهداية عنه ، ورتل عليه من سورة الضحى قول الحق سبحانه وتعالى :

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

.. فها هو ذا الخالق ينصفه ، وينصره ، ويجتبيه ، وينبهه إلى أن أمور الدنيا يجب أن لا تأخذ من اهتمامه إلا النذر اليسير :

فالآخرة خير لك ولأمتك ، وأكثر دواما ، ثم يذكره بفضله الذى شمله به ولا زال ، منذ صار يتيما ، ولأن محمدا عارف بهذه النعم الربانية ، فاهم لها ، فهو يصل الليل بالنهار متعبدا قانتا شاكرا لله .

قالت له خديجة حين قرأ عليها سورة الضحى :

ـ والله .. إن ربك لن يتخلى عنك أبدا .. أليس هو سبحانه من أرسل إليك الوحى بقوله : ما ودعك ربك وما قلى ؟ .

.. واشتد الوحى ..

.. وتتابع نزول القرآن .

الفصل الخامس : **المجــادلون**

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

سورة غافر

جاءه عبد الكعبة وآثار رحلة الشام التى عاد منها بادية على وجهه ، مغبرة لثيابه ، فهو لم يذهب إلى داره ، بل حضر إلى دار صديقه ورفيق صباه ، بعد أن سمع ما سمع من الذين كانوا فى استقبال القافلة ، وما إن لقيه حتى سأله فى قلق :
- أحقا ما تقوله قريش ، من تركك لدين الأجداد ، ودعوتك لهجر عبادة الأوثان، وعبادة الله الواحد ؟ .
فقال محمد صلى الله عليه وسلم فى هدوء العارفين :
- إى وربى ، وإنى لأدعوك لأن تهجر الرجز ، وتشهد بأن لا إله إلا الله .
قال عبد الكعبة دون تردد أو قلقلة :
- بأبى أنت وأمى ، فأهل الصدق أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك لرسول الله .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
- ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له فيه كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة ، ما عكم عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه .
جلس عبد الكعبة بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فأسمعه ما كان من أمر الوحى ، ثم أسمعه ما أنزل عليه من كلام الله ، وهو منصت كل الإنصات ، مصغ غاية الإصغاء ؛ ولما أنتهى النبى صلى الله عليه وسلم من حديثه ، أخبره عبد الكعبة بالرؤيا التى رأى وهو بالشام ، وشرحت قلبه للإسلام :
.. لقد رأى أن القمر نزل بدور مكة ، ثم دخلها دارا فدارا ، ثم استقر فى حجره ، وحين قص رؤياه على أحد الكهان ممن يشتغلون بقراءة الطالع وتفسير الأحلام ، قال له إنه سيخرج من دور مكة نبى سيتبعه ، وسيكون على ملته .
ولما وصل إلى الديار ، سأل :
- هل من جديد ظهر ؟.
فقالوا له :
- إن صديقك محمدا قد صبأ .
قال له محمد :
- هل تريد أن تسمع خبر السماء فيما يقولون ؟ .
قال عبد الكعبة :
- زدنى .
قرأ نبى الله صلى الله عليه وسلم من سورة التكوير :
- بسم الله الرحمن الرحيم
فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِي الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)
.. أمن " عبد الكعبة " والدمع ينساب مدرارا ، على وجهه ولحيته فيغسل كل آثار الإرهاق ، وما علق بهما من وعثاء السفر :
- صدقت وصدق من أرسلك بالحق ، والله يا محمد إنك ما جئت للناس إلا بالخير ، وإن قريشا لفى ضلال عظيم ، وأحمد الله أن شاء لى أن أستقيم .

وتبدى جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم يقرئه السلام ، وأنبأه بأن اسم " عبد الكعبة " ، بعد أن دخل الإسلام هو : أبو بكر ، فلا عبودية إلا لله وحده .

وأبلغ النبى صديقه بالأمر ، فامتلأ الصديق بالبشر : فأى شرف هذا الذى أفيض عليه من السماء .

.. وخر أبو بكر ساجدا لله وأناب .

أثلج دخول عبد الكعبة فى دين الله صدر النبى ، فهو أول مصدق برسالته يفد عليه من خارج داره ، فلقد عانى كثيرا من القرشيين ، فهم لم يكتفوا بالرفض بل أخذوا يلاحقونه بسخافاتهم ، وحتى جاره عقبة بن أبى معيط ، وأقرب الناس إليه وعمه عبد العزى بن عبد المطلب وزوجه أم جميل ، لم يسلم من أذاهم : فعقبة يترصده بالصفير كلما سمعه يرتل القرآن ، ويضع فى طريقه الشوك والقاذورات ، وقد رفض أن يستمع إليه حين دعاه للإسلام ، ونغض رأسه ساخرا ؛ أما عمه فيلاحقه فى كل مكان يذهب إليه بالسخرية من كلامه ، والاستهزاء بدعوته ، والتشكيك فيها وفيه ، ليصرف عن الاستجابة له من يميل قلبه لحديثه ، خوفا من تحرش عبد العزى وبطشه ، بينما امرأته تفعل مثلما يفعل عقبة فترمى الأوساخ أمام باب داره .

وإن هذا التصرف ليكبر عند النبى ، ليس حزنا ، ولا غضبا مما يناله من إيذاء ، ولكن لغرابته لما عرف عن العرب من حسن رعاية الجار ، وتقديس لصلة القربى .

.. ويا له من تناقض ذاك الذى يحدث من الأعمام : عمه عبد العزى ، وعمه أبى طالب : ذاك يبغضه كل البغض ، وهذا يحنو عليه حنو الراعى على غنيماته ، ويحيطه بالحب : فأبو طالب ، وإن لم يدخل فى دين الإسلام كما دخل ابنه على ، إلا أنه لم يقاتل محمدا فيه ، ولم يرغم عليا على تركه ، بل إنه حين رأى على يصلى معه ، قال لابنه :

ـ اتبعه فإنه لا يبغى بك إلا خيرا .

: فنعم الكفيل ، ونعم القريب أنت يا أبا طالب ..

ـ ٢ ـ

كان المنتظر مع دخول أبى بكر فى دين الله ، مصدقا بمحمد ، وبما نزل عليه ، وهو من أشهر تجار قريش ، بل هو لقريش وزير خزانتها ، يأتمنونه على أموالهم وذهبهم وتجارتهم ، ويحفظون فى داره كل غال ونفيس ؛ أن قريشا وسادتها سيتدبرون الأمر ، وقد يكون فى تدبرهم ما يجعلهم يعدلون عن تعنتهم وكبرهم ، والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، بما يتقولون به فى مجالسهم ، فتارة يقولون

: إنه مجنون ، وتارة أخرى يقولون إنه شاعر .

.. لكن ما حدث كان مغايرا لكل توقع ، فلقد زادهم دخول أبى بكر فى دين الله كراهية للنبى ، بل لقد زادوا من إيذائهم لمحمد ، لأن أبو بكر سرعان ما عاد إلى النبى ، ومعه عثمان بن عفان ، ثم ومعه من هم غير عثمان من سادات قريش وكبرائها ممن شرح الله قلوبهم للإيمان ، وهو ما زاد من إحساس القرشيين بخطورة دعوة محمد ، واختراقها لصفوفهم ، فازدادوا تعنتا وتطاولا على النبى وتكذيبا لرسالته ، وقولهم بأنه لم يوح إليه ، إنما هو غوى .

ورد عليهم رب العالمين ادعاءهم ، فنزل جبريل υ بقول الله تعالى ، مقسما ، ومبينا ، ولائما ، للمدعين على نبيه بما هو ليس فيه ، فى سورة النجم :

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢)

.. ولقد عاتبهم ربهم فى عدم تصديقهم لمحمد ، وهم من أسموه : الصادق الأمين، وهو ليس بغريب عنهم ، فقد لبث فيهم عمرا ، فما جربوا عليه كذبا ولا كهانة ، ولا سمعوا منه شعرا ، ولا رأوا منه تصرفا يدل على اختلال فى العقل ، فلماذا يعجبون أن محمدا يوحى إليه من عند الله القادر ، فقال فى سورة يونس :

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)

.. ثم إنهم بعدم تصديقهم برسالته ، وادعائهم عليه بما هو ليس فيه : يجحدون بنعم الله عليهم ؛ ونزل جبريل على محمد يوضح له هذا جميعه ، ويحثه على أن يزجرهم ، ويفتح عيونهم على هجرهم لنعم الله التى أنعمها عليهم ، وآخرها أنه أكرمهم بأن جعل منهم رسوله الخاتم ، ونزل القرآن بلغتهم يخاطبهم فى إعجاز لغوى ، وهم أهل الفصاحة ، ويثبت لهم مدى قدرة الله تعالى ، أمام ما يعتقدون بقدرتهم عليه ، ويتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله :

وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) سورة البقرة

.. ثم يؤكد العليم القدير أنهم لن يستطيعوا ، فى سورة الإسراء :

قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)

.. قبل المشركون التحدى ، وراح شعراؤهم وفصحاؤهم ، يحاولون محاكاة القرآن ؛ وباءت محاولاتهم بالسخرية ، والامتعاض ، حتى من الذين شجعوهم على المحاولة ، وتحقق قول رب العالمين .

.. ولكن ، هل للأعمى أن يرى كساح رجليه ؟! .

.. وهل للأصم أن يسمع نكران صوته ؟! .

.. فها هم أولاء أمام فشلهم المذرى والذى فضحه القرآن ، قد لجوا فى عتو ونفور يجادلون بالباطل فقالوا :

ـ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثين، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ؟!

قال جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم اسألهم :

ـ لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ .

قالوا :

ـ لله .

قال النبى :

ـ أفلا تذكرون ؟ .

ثم استطرد :

ـ من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ .

قالوا :

ـ الله .

قال :

ـ أفلا تتقون ؟! .

.. ثم سألهم :

ـ من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ .

قالوا :

ـ الله .

وقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة المؤمنون : .. قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)

.. بهت المشركون ، ولم يجدوا أمامهم من سبيل إلا فى السعى إلى أبى طالب شاكين عيب محمد لآلهتهم ، وآلهة آبائه وآبائهم ، وتسفيهه لأحلامهم ، وتفريقه لأسرهم وطالبوه بأن يكفه عنهم ، فلا يدعو منهم أحدا للدخول فى دينه ، فيكفون أذاهم عنه ؛ وإن لم تكن عند أبى طالب القدرة على رده وإيقافه ، فليسلمه لهم وهم سيرغمونه على الكف عما هو عليه .

.. رد أبو طالب عليهم بالحسنى ، وردهم ردا جميلا ، وخرجوا من عنده وهم واثقون من أن أبا طالب لن يتخلى عن نصرة ابن أخيه إذا ما جد الجد ، وعزموا على أن لا يعودوا للإلحاح واللجاجة حتى لا يغضبوا أبو طالب فينقلب عليهم ، وينفرط عقدهم ، أو يستثيروه فيدخل فى دين ابن أخيه كبرا ومعاندة لهم !.

وحين حادثه عمه فيما احتج به قومه ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم :

ـ يا عم هل أسمعك ما قاله ربى فيهم ؟ ..

وقرأ عليه من سورة الحج :

ـ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)

ـ ٣ ـ

.. وازداد عدد الداخلين فى دين الله ، من أهل الذمة والعبيد ، كـ بلال ، وعمار بن ياسر وغيرهم ، وكيف لا يفرون إلى رحمة الله التى جاء بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، لينصفهم من جبروت المجتمع الذى أورثهم وورثهم وأبناءهم للأقوياء ، فأهدروا آدميتهم ، وذلك من خلال إعلان المساواة بينهم وبين السادة ، ورفض العبودية ، فى قول رب العالمين : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠) سورة الحجرات .

.. ولكن دخول المستضعفين ممن ليست لهم جذور بين بطون مكة تدفع عنهم الأذى ، وتعطيهم الحماية والأمان ، وتمنعهم من قريش ؛ أعطى فرصة لكبراء قريش ، كى ينفثوا

فيهم عن كراهيتهم الشديدة لمن دخل الإسلام من السادة ؛ فراحوا يذيقونهم العذاب ، ويبطشون بهم ، والنبى يألم لهم أكثر مما يألمون ، ويطالبهم بالصبر كلما شكوا له حالهم .
ثم راح الجمع من قريش يطاردون المسلمين فى بالطعن والسب فى دينهم ، ويشوشون عليهم ، بالتصفيق والصفير فى صلاتهم بالكعبة .
ولم يقف عدوان المشركين عند هذا الحد ، فلقد ازدادوا شراسة ، ورغبة فى إحداث المزيد من الأذى للمسلمين ، فتحولوا إلى أهلهم ؛ فسلبوا ممن دخل الإسلام الأموال ، وإنتهبوا التجارة ، وفرقوا بين الزوج وزوجه ، وبين الأب وابنه ، بل لقد طردت الآباء أبناءهم من الذين آمنوا من رعايتهم ، وهم بعد فى سن الصبا والحاجة للعون .
واشتدوا فى إيذائهم للنبى ، فها هو ذا عقبة بن معيط يحيط بثوبه عنق النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحاول أن يخنقه بينما كان يصلى فى الحجر بالكعبة ، ويراه أبو بكر τ فيهرول إليه ، يدفعه عن النبى بكل ما فيه من عزم وقوة ، قائلا فى استنكار :
ـ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم .
ثم ها هو ذا يكرر الإيذاء ، ويقذف بأمعاء جمل مذبوح على ظهر النبى وهو ساجد لله ، فلا يرفع النبى رأسه من الصلاة ، وتأتى ابنته فاطمة ترفع الوسخ عن ظهره ، وهى تبكى وتدعو ربها أن يقتص من الفاعل ، وما كان عقبة ليجرؤ على ذلك ، لو لم يجد من عم النبى عبد العزى تشجيعا ومؤازرة .
.. وهاكم النضر بن الحارث ، بعد عودته من بلاد فارس وقد سمع منهم أساطيرهم التى يسمرون بها ، يدعى أن ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ما هو إلا أساطير الأولين ، ويذهب إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، ويروح يقاطعه حتى يسكته ، ثم يقص ما سمع على من يتحدث إليهم نبى الله ، ثم يسألهم بعد أن ينتهى من هرائه ، قائلا :
ـ بالله آينا أحسن قصصا أنا أم محمد ؟ .
.. وها هو ذا أبو جهل عمرو بن هشام يستنفر المشركين ، ويطلب منهم الحماية لأنه قد قرر قراره على قتل محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقرونه على ما أنتوى ، ويباركون قوله ، ويعطونه العهد بالأمان ، ويجترئ وينتظر بصخرة كبيرة ، رفعها بين يديه عاليا ليشج بها رأس النبى وهو ساجد فيقتله ؛ وحين يقبل النبى ويستغرق فى صلاته ، يتقدم أبو جهل بالحجر ليهوى به على رأس النبى ، وهو بين يدى الله ، ولكن الحجر يلتصق بيديه ، فلا يستطيع فعل شئ ، بعد أن أصبح الحجر قيدا له ، وتحولت أداة القتل من المقتول إلى القاتل تروعه .
أسرع أبو جهل مبتعدا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يرتعد من شدة الهول الذى أنزله الله به ، وأخذ يصرخ فى رفاقه وقد ألم به كرب عظيم ، ليخلصوه مما هو فيه من بلاء ، وهم مجتمعون حوله لا يستطيعون له نفعا ، وأصبحت كل أمانى أبى جهل أن ينجو بنفسه مما هو فيه ، وغادرت فكرة الاعتداء على النبى قلبه ؛ هنا فقط سقط الحجر من بين يديه ، وسقط أبو جهل فى التراب ، ومشاعر الهزيمة والعجز والهوان تهد كيانه هدا .
.. ويرى محمد ما يحاك له .
.. وهو صابر .
.. فلم يجأر بالنداء ليستفزز أهله من بنى عبد المطلب ، وما كانوا ليخذلوه فالأمر هنا نصرة لمن هو منهم ، وليست نصرة لدين الله ، وما كان هو يحب ذلك ، بل إنه ليخفى عنهم كل ذلك التطاول ، كما أنه لم يلعن المسيئين عند ربه ، ولم يدع عليهم كما فعل غيره ممن سبقوه ، من رسل وأنبياء ، مع العصاة من أقوامهم .
.. بل هو يعفو ويمارس الصبر ، فهكذا علمه ربه : وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ(٤٣) سورة الشورى
.. هو أيضا يريد أن يكون من أولى العزم .

.. رغم أفعال مشركى قريش ، ونفورهم الشديد من إتباع دين محمد ، فإنهم كانوا يجتمعون خارج بيت النبى إذا ما أسدل الليل أستاره ، ليستمعوا إلى قراءة النبى للقرآن ، بل هم لا يخفون افتتانهم ببلاغة القرآن ، ولكنهم لا يجرءون على أن يهمسوا بما يحدثه فى نفوسهم من أثر ، يصل إلى الحد الذى يجعلهم ينصتون ، فما يدرون بقدوم القادم عليهم ، فهم فى رهبة عظيمة مما يتناهى إلى أسماعهم من ترتيل ، ثم حين ينتهى النبى من ترتيله لكلام الله ، ينتبهون لما فعلوا ، ويروحون يتلاومون على إنصاتهم ، ويتعاهدون على عدم العودة إلى التنصت والاستماع ، ولكنهم لا يصدقون فيما تعاهدوا عليه ، ويعودون مرارا إلى التنصت تحت دعاوى كثيرة؛ وإن ظلت قلوبهم فى حسرة يتقولون بأمانيهم: لو أن هذا القرآن أنزل على رجل عظيم من مكة أو من القطيف، بدلا من إنزاله على محمد الذى شب يتيما فقيرا لا يملك المال ولا السلطان ، إذن لصدقناه واتبعناه ؟! .

.. أو يتمنون لو أن هذا القرآن نزل به ملك ، أو لو أن الله أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم من المعجزات الحسية كتلك التى يتحدث القسس عن قيام نبى الله عيسى بها ، من إنزال مائدة من السماء ، أو شفاء الأبرص والأعمى بإذن الله .

.. ولما تحدثوا إلى النبى بهذا قال لهم :

ـألا يكفيكم شرفا أن الله قد خصكم بخيرت كثيرة ، فجعل رسوله إلى الناس كافة من بينكم ، وأن الله تعالى هو من اختصنى مبلغا لرسالته :

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) سورة يونس

.. كما أن الله قد أورثكم الكعبة تحظى باحترام العرب ، لا يكفون على مدار الأيام عن زيارتها والحج إليها ، مما أكسبكم بينهم موقع الاحترام والمهابة ، وجعل لكم البيت آمنا يرفل فى عناية الله وحفظه ، فى قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) سورة العنكبوت

.. كما جعل لكم فى تجارتكم بين اليمن والشام رزقا رغدا :

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) سورة قريش

.. وأمام هذا الفضل جميعه، ألم يأن لكم أن تعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمكم من جوع وأمنكم من خوف؟.

.. ثم مالكم تعجبون وتدهشون، وترفض عقولكم تصديق ما يحدث حولكم، وما اختص به الله عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وتتهمونه بما ليس فيه :

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) سورة يونس

فما بالكم يا قومى لا تبصرون ، ولا تعقلون ؟! .

..وبعد أن قال لهم نبى الله صلى الله عليه وسلم ما ألهمه به ربه من قول ؛ قام المجادلين من المشركين من مجلسه وهم أكثر عجبا ، فلم يفقهوا شيئا مما قيل لهم ، ودهش نبى الله صلى الله عليه وسلم غاية الدهشة من حالهم ، ونزل جبريل υ لجلاء الحقيقة ، فقال له الله علام الغيوب مبينا :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) سورة محمد

.. ورغم هذا ، لم يتوقف دخول من يختص الله بالهداية من الناس ، فى دين الله ، حتى امتلأت بهم دار خديجة على رحابتها، فازداد تجسس جيران نبى الله صلى الله عليه وسلم عليه ، وكثر تطاولهم على ضيوفه بالسفيه من القول والفعل، ولكن ما السبيل غير الصبر وانتظار نصر الله ؟ .

- ٥ -

.. بعد مرور ما يزيد على العام من بدء دخول العشرات فى دين الله ، مرت جماعة من المشركين بموضع صلاة المسلمين فى الشعب ، حيث كانوا يستخفون عند صلاة الغسق ، فسبوا المصلين وسبوا دينهم ، وثارت ثائرة المسلمين غيرة على الله ورسوله ، وتشابك الجمعان ، وانتصر المسلمون ، وشج سعد بن أبى وقاص رأس واحد من المشركين ، وتصايحت قريش بأنها لن تترك مسلما يقرأ القرآن ، أو يصلى إلا وستنال منه .

أثار هذا الحادث قلق النبى صلى الله عليه وسلم .. وبعد إعمال الفكر وجد أن عليه أن ينأى بهم عن هذه المضايقات ، والسبيل الوحيد هو البعد عن مجالس قريش ، والبحث عن مكان آخر غير دار خديجة رضى الله عنها ، وجاءه الخلاص سريعا حين عرض الأرقم بن أبى الأرقم داره لكى يقيم بها النبى وكافة المسلمين ، وكان عددهم قد قرب من الثلاثين أو يزيد، فاستجاب النبى للدعوة، فلقد كانت الدار كبيرة، كما كانت بعيدة عن مسامع قريش، فهى تكاد تكون وحدها التى بنيت عند جبل الصفا .

فى هذه الدار كان الملتقى الأول لكل الذين آمنوا مجتمعين ، يدارسهم النبى فيحمل إلى صحابته ما علمه ربه، ويتلو عليهم ما أوحى ويوحى إليه من القرآن، ويرتله ترتيلا ترتيلا، ليحفظوه ، ويعايشوه .

وكان جبريل دائم الحضور يدارس النبى ، ويفسر له ما استعصى عليه فهمه من كلام الله ، ويشير عليه بما يفصح به لأصحابه من درجات العلم الذى يعلمه له ربه ، فهناك من العلم أسرار مهولات لا تحتملها ألبابهم ، ولا تحتملها أزمانهم ، فما تعلم النبى هو على قدر النبى .

ولقد كانت مدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم نواة لمبعث أمة من الخلق تختلف عمن سبقها من أمم ، كان محمد صلى الله عليه وسلم هو قدوتهم ، يتعلمون من أفعاله وأقواله ، وكان لب العقيدة ومدخلها : شهادة أن لا إله إلا الله ، قولا وعملا ، فالله واحد أحد فرد صمد ، لا يشاركه إله فى الملك وليس له امرأة ولا ولد ؛ وأن أمر الحياة وما زينها به خالقها : من مال وبنون ، ثم موت ، وبعث ، وحساب ، جميعه بيد الله .

.. وكان القرآن دستورهم بما حمله لهم من رحمة ، وما فتح عيونهم عليه من علم ، فجعل لحياتهم طعما ومعنى : فلقد علموا أن حياتهم ليست عبثا ، وأن بعد الحياة بعثا ونشورا ، وأن الأمر ليس كما كانوا يعتقدون : إن هى إلا حياتنا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين؛ وأن الحياة ليست هى نهاية الرحلة بانتهائها ينقضى كل شىء، بل هى دار الاختبار ، ثم يردون إلى الله خالقهم ، قال الله تعالى فى سورة يونس :

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

.. إذن عليهم أن يحسنوا سلوكهم ، وأن يتقنوا عملهم ، فلا سبيل للإنسان للنجاة إلا بعمله ، فمنه يكون الجزاء ، كما جاء فى سورة النجم :

أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢)

.. وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، كما جاء فى سورة الحجرات :
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

.. وأنه ليست هناك عبودية فى الإسلام ، فالناس أمام الله سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد ، وما أروع عدلك يا رب حين تقول فى سورة المائدة :
وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ (٤٥)

.. فالكل من منبع واحد ، ولأصل واحد ، هو آدم υ، كما جاء فى سورة النساء :
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

.. وأن فى هذه الحياة الدنيا ما هو حلال وما هو حرام ، فكما أحل الله لآدم أن يأكل من طيبات الجنة ، حرم عليه وحواء أن يقتربا من الشجرة التى عرفها لهما ، أو يستمع إلى وسوسة الشيطان فيضل ويشقى ؛ فالإنسان قد حرم عليه أن يشرك بالله أو يسرق أو يزنى أو يقتل أولاده خشية إملاق ، فرزقه ورزقهم على الله ، ولا يقتل نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق فمن قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فيحاسبه الله وكأنه قتل الناس جميعا ، ولا يأتى ببهتان يفتريه من بين يديه وأرجله ، أو يعصى فى معروف .

وأن حقيقة الدنيا زوال ، وأن الآخرة خير وأبقى ففيها الحياة الطيبة للمؤمنين : فلا نصب، ولا متاعب جسد، ولا مشقة .

وأن الدنيا مهما عاش الإنسان من أيامها وسنواتها ، فهى قصيرة أيما طالت بالنسبة للآخرة ، ففى الآخرة اليوم بألف سنة مما نعد فى دنيانا ، والمسلمون هم السابقون الذين وعدهم رب العالمين بجنات النعيم فى سورة الواقعة :
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنْ الآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ(١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا(٢٦)

.. وأن الإنسان ما هو والحياة ، إلا كزارع يستعد ليوم جنى الثمار ، فإن أحسن الزرع فجنيه جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فيها من الخيرات والمتع مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والمتعة فيها متصلة بلا مشقة ولا معاناة ؛ أما إذا زرع ولم يحسن زرعا فهو إلى جهنم يصلى نارا وعذابا وخزيا ، وبئس المصير .

وأمام هذه المعرفة الجديدة : ألا تهون الدنيا عليهم ، ويقل شأنها ، ويهون أمرها ؟.

وقد عرفوا أن الشق الثانى من الشهادة ، وهو شهادة أن محمدا نبى الله ورسوله : يعنى الإقتداء والتشبه بخلق وأفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان النبى صلى الله عليه وسلم أكثرهم حياء وتواضعا ، يجلس وسطهم فلا يستطيع من لا يعرفه أن يميزه من بينهم ، يفعل ما يفعلون ، وإذا قام ثم عاد ، يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكان يقول لهم : لا تميزونى بينكم .

.. ويؤكد تصرفه ، فى قوله صلى الله عليه وسلم :

ـ أجلس جلسة العبد ، وآكل أكلة العبد ، وأحب أن أكون عبدا رسولا ، ولا أحب أن أكون ملكا رسولا .

.. كان نبى الله صلى الله عليه وسلم ينزل إلى الأسواق سعيا إلى الارتزاق من عمل يده ، فيبيع ويبتاع ، حتى لقد عير الكفار المسلمين بأن الرسول يمشى فى الأسواق لا يميزه شئ ، ولا يتميز فى شئ ، وهو بشر مثلهم : يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، ولئن اتبعتم بشرا مثلكم فإنكم خاسرون !! .

وما كان كفار مكة ، وأهل الكبر والصلف يدرون أنهم بتعداد كل هذه الصفات عن النبى صلى الله عليه وسلم ، إنما يزكونه عند أصحابه .

.. لقد تسلل حب نبى الله صلى الله عليه وسلم إلى نفوس من معه جارفا ، فسيطر على كل ذرة من ذراتها ، وجعلهم يذوبون فيه ذوبانا كاملا ، ثم ارتقى الحب فأصبحوا يؤثرونه على أنفسهم ؛ وأصبح الله ورسوله أحب إلى المسلم الأول من الدنيا وما فيها ، ومن فيها : فتآلفت القلوب ، وانزاحت الدنايا ، وتوحد الكل فى قولة : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

.. كان هذا التآلف يثير عجب المشركين واستنكارهم ، فلا مجلس محمد فى فخامة وترف مجالسهم ، ولا المسلمين يلهون ويستمتعون بسويعات اجتماعهم مثلما هم يفعلون ، حيث الخمر والطعام والغيد الحسان ؟ .

وكيف لكفار مكة أن يعرفوا ، وهم لم يرتفعوا عن حضيض الدنايا المادية ، إلى سمو الروحانيات ، ليذوقوا شهد الإيمان بالله ورسوله ؟! .

.. بل لقد وصل بهم حال الضياع أن قالوا :

- اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم .

وذلك بدلا من أن يقولوا قول العقلاء :

- اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأهدنا إلى سواء السبيل .

وجاءهم رد الرحمن الرحيم ، فى سورة الأنفال ، بأن وجود النبى والمستغفرين لذنبهم من المسلمين يمنع عنهم العذاب إلا لكرامة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه :

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

- ٦ -

وحين اشتد الأذى بصحابة النبى صلى الله عليه وسلم ، كان جبريل υ يحمل إليه قصص الأنبياء ممن سبقوه ، وما لا قوه من الكفار والمشركين ، وما لاقاه المسلمون الأول من عنت وتعذيب فاق ما يتعرض له صحابته بكثير ، حتى إن المسلم من أولئك كان يشق إلى نصفين حتى يكفر بالله ، فما كان يستجيب ، مفضلا الشهادة والجنة التى وعد بها المتقون ، على الدنيا وزخرفها ، وهى أمور لم يعرف بها قومه ، كما جاء فى سور هود:

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

.. وكانت تلك القصص عظة وعبرة ، وتسرية عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن يملك دفع الأذى عن أصحابه ، وتخفيفا من آلام نفسه الرحيمة التى كانت تتبدد شتاتا حزنا ورأفة بالمعذبين من ضعفاء قريش ، كلما رأى أو سمع عن عذابهم الذى وصل إلى حد جلدهم بالسياط ، وكيهم بالنار ، وطرحهم ببطحاء مكة وقت الظهيرة وهم عراة لكى تفتت الشمس القاسية عظامهم ، وتكوى جلودهم ، وتوهن عزيمتهم ، وكان أول من شرف بالشهادة فى الإسلام من ضحايا قريش : سمية ، زوجة ياسر ، وأم عمار وزيد :

وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)

.. ولقد ذهب إلى رسول الله ، وفد من المعذبين قائلين :

ـ يا رسول الله ألا تستنصر لنا ؟ .
قال رسول الله باثا فيهم روح الصبر ، ومبشرا بالأبقى :
ـ كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض ، فيجاء بمنشار ، فيوضع على رأسه فيشق ما دون لحمه وعظمه ، وما يصده ذلك عن دينه ؛ والله ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله تعالى ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون .
.. ثم استطرد فتلا قول الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)
.. وأمام هذه المحنة ، أخذ أبو بكر يشترى من يستطيع شراءه من المعذبين ، رحمة بهم ، ثم يعتقهم لوجه الله أحرارا ، وحين احتج أبوه قائلا :
ـ يا بنى اشتر الأقوياء فيمنعوك من ظلم قريش ، بدلا من أن تشترى من لا حول لهم ولا قوة ، فلا يستطيعون أن يدفعوا عنك أذى ، وإنها لتجارة بائرة .
قال أبو بكر :
ـ بل هى تجارة مع الله ، ومن يتاجر مع الله فتجارته لا تبور .
ولما ازداد ظلم قريش ، وأصبح اضطهادهم للمسلمين لا يطاق، جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فبصره، وأرشده، واستجاب النبى وأبلغ أصحابه بما أوحى إليه، قائلا :
ـ لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ،وهى أرض صدق .
.. و كانت أول هجرة فى سبيل الله لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونفذها عشرة أو يزيد من المسلمين ، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله رضى الله عنها .
كان فراقهم شاقا على نفس النبى ، وإن كتم الأمر وأخفى حزنه وألمه عن الصحابة حتى لا يزداد ألمهم لألمه ، فتكفيهم مرارة فراق من كانوا لهم إخوانا .
.. ولقد أعقبت الفئة الأولى من المهاجرين فئة ثانية ، تسللت مغادرة من مكة فى تخف وحيطة ، حتى لا يشعر بهم المشركون ، فكانوا ينفلتون أثناء الليل فرادى أو مثنى وثلاث ، ثم يتجمعون عند نقطة اتفقوا عليها على شاطئ البحر ، فيستأجرون مركبا ، ويرحلون آمنين إلى أرض الحبشة ، وقلوبهم تنزف ألما لفراق الحبيب محمد ، ولفراق الأهل والأرض ؛ وإن كان الأمل لا ينقطع فى عودة منتصرة إلى أرض المولد ، وإن داخلتهم سعادة لا تخفى لأن هجرتهم طاعة لأمر الله تعالى ، وانتظار لأجره ، فلقد قال الله تعالى فى سورة النحل :
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

ـ ٧ ـ

كانت هجرة المسلمين مثار خوف كبراء الكفار ، وأصحاب الرأى فيهم ، لقد تطيروا منها ، لأنها تشى بأن دين محمد يغادرهم لحين ، ثم يفد عليهم من خارج مكة فيكتسحهم ويثأر منهم ويدمر مناعتهم وعزتهم ، ولقد حاولوا فى كل هجرة أن يلحقوا بمن يهرب من المسلمين ، و لكنهم لم يدركوا أحدا منهم .
.. ولم تهدأ وساوس قريش ، ولم يكف أهل الرأى فيها عن التفكير والكيد لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولقد شاركهم إبليس فى تآمرهم ، ثم قرروا أن يعرضوا على النبى ما ظنوا أنه سيغريه ، ويدير رأسه عن ذاك الطريق الذى يهدد نفوذهم ، ويبدد هيبتهم بين القبائل ، ويكفه

عنهم ، ولقد أنابوا عنهم عتبة بن ربيعة ، وهو من حكمائهم ، ليقوم إلى محمد فيكلمه ، ويعرض عليه ما ارتأوا .
جلس عتبة بين يدى النبى يداهنه ، قائلا :
ـ يا ابن آخى ، إنك منا حيث علمت من الحسب والشرف والفضل ، والمكنة فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .
قال له النبى صلى الله عليه وسلم :
ـ قل يا أبا الوليد .
قال عتبة :
ـ يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .. فإن الجنى يكون أحيانا شديدا على الرجل حتى يداوى منه .
قال محمد الصادق صلى الله عليه وسلم :
ـ أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ .
قال :
ـ نعم .
قال الأمين صلى الله عليه وسلم :
ـ فاسمع منى .
قال عتبة :
ـ افعل .
قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة فصلت : بسم الله الرحمن الرحيم
حم (١) تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)
.. وهنا انتفض عتبة انتفاضة هائلة ، وقفز يقفل فم النبى بيد مرتعدة من شدة الهول الذى أصبح عليه مما سمع من نذير ووعيد ، وقال للنبى فى رجاء :
ـ كفى يا ابن أخى ما أسمعتنى .
.. لكن النبى صلى الله عليه وسلم استمر يرتل عليه السورة حتى تلا نهايتها من قول الله سبحانه وتعالى :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

ولما انتهى نبى الله صلى الله عليه وسلم ، أردف قائلا :

ـ قد سمعت ما سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك .

.. قام عتبة وهو راغب عن القيام ، وقد غشيته من بعد الرعدة سكينة ، حتى إن أصحابه حين رأوا ما هو عليه وهو آت من بعيد ، قالوا :

ـ والله لقد جاء أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب عليه ، وإنا لنخاف أن يكون قد فتنه محمد .

وحين استقر بينهم ، سألوه عما وراءه ، قال :

ـ إنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله من قبل ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ؛ يا معشر قريش : أطيعونى واسمعوا قولى ، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه ، فو الله ليكون لقوله الذى سمعته منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا فى خبث ، وقد أعدوا نبال الردة ، وأطلقوا سهامهم :

ـ سحرك والله يا أبا الوليد بكلامه ، وأعجبك طعامه ، فإن كنت فى حاجة إلى مال جمعنا لك من بيننا ما يغنيك عن طعام محمد .

.. ونجحت الحيلة على الرجل لأنفته وعزة نفسه ، وأصابته السهام ، وانتفضت حمية الجاهلية وعنجهية الجهل ، فأعلن عتبة أنه لن يكلم محمدا من بعدها أبدا .

ورغم تراجع عتبة عن قولة الحق التى قالها فى محمد ، فإنه قد أثار حفيظة بطون قريش ، من أن يكون لبنى عبد المطلب شرف النبوة زيادة على ما تميزوا به عنهم من رفادة الحجيج ، وحفر زمزم ؛ إذن فعليهم أن يمنعوا تمام هذا الأمر بكل غال ونفيس .

واجتمع قادة البطون ، وتوجهوا إلى أبى طالب ، وقالوا له :

ـ يا أبا طالب لقد عرضنا على محمد أن نهبه من أموالنا حتى يكون أكثرنا مالا ، ونوله أمرنا فيكون أعزنا سلطانا ، وتكون له الإمرة فينا ، ولكنه لم يقبله منا ، فاسع إليه ، واعرض عليه الأمر ، فلعله يقبل منك ما لم يقبله منا ، فأنت أقرب إليه ، وأحب له من قريش مجتمعة .

.. بعث أبو طالب فى طلب ابن أخيه ، وهو مستبشر بما عرض أهله ، وقص عليه ما حدث ، ثم تساءل :

ـ فأنظر ماذا ترى ؟.

.. ونظر النبى طويلا فى وجه عمه ، وأدركت عينه البصيرة مدى إقبال عمه وقبوله لما عرض عليه ، فدمعت عيناه ، فلقد كان يظن أن عمه قيد أنملة أو أقل ، ليدخل فى دين الله ، ولم يكن أمام النبى إلا أن يجيب ، فقال بعد صمت طال أم قصر :

ـ والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يتمه الله أو أهلك دونه .

أطرق الشيخ فى تدبر ، ثم رفع رأسه ، والتقطت عيناه رقرقة الدمع فى عينى الحبيب فتوجع القلب وقال فى عزم :

ـ أنت وما تريد يا ابن آخى فأمض فيما تحب ، وما كنت متخليا عنك أبدا .

ـ ٨ ـ

سنوات ثلاث والدعوة تتم دون الجهر بها ، فالنبى ورفاقه يدعون إلى الإسلام من يثقون به من أهليهم ، وكانت استجابة من دخلوا فى دين الله أقل بقليل ممن استكبروا ولجوا فى عتو ونفور .

.. وكان النبى يعرض نفسه على الوفود التى تجئ إلى مكة للحج أو للتجارة ، وأهلها ما بين متردد أو رافض ، وبينما هو يتحدث إلى أحد الكبراء أملا فى دخوله لدين الله إذا بعمرو بن قيس بن الأصم ، وهو ابن خال زوجه خديجة ، وهو أعمى قد حسن إسلامه ،يسمع صوت النبى ، فيقبل عليه مقاطعا يقول :

ـ يا رسول الله أرشدنى .

فأعرض عنه النبى ، واستمر فى حديثه لمن يحدثه ، قائلا:

ـ أترى فيما أقول بأسا .

فيقول الرجل فى غير اهتمام :

ـ لا .

استغفر النبى ربه ، وأرسل فى طلب عمرو ، وقربه إليه معتذرا عن ما حدث ، وسأله عما كان يريد أن يسأل عنه ، وأجابه على ما أراد .

ونزل جبريل υ على نبى الله صلى الله عليه وسلم ، بآيات من سورة عبس ، حاملا عتاب ربه لانصرافه عن عمرو :

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)

.. ومنذ ذلك اليوم لم ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سائل يسأله حتى ينصرف السائل عنه ، وهكذا علمه ربه .

.. ثم جاءه جبريل υ بأمر ربه مبلغا ، بآيات من سورة الشعراء :

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧)

.. ويسارع النبى بصنع طعام يحمله مع على إلى دار عمه أبى طالب ، ثم دعا أعمامه إليه ، فإذا بهم يأتون ملبين ومعهم أبناؤهم !!.

قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعوهم إلى الطعام :

ـ خذوا باسم الله .

ولما لحظوا قلة الطعام أوغلوا فيه حتى لا يكفيهم فيحرجوا رسول الله ، ويظهروا فقره ، ويحطوا من قدره ، فتتقول عنه مكة بأنه أضعف من أن يشبع ضيفه !! .

ولكن ما كان الله مخزيا نبيه ، فحلت البركة ، فأكلوا حتى أصابتهم التخمة من كثرة ما طعموا ، وتبقى طعام كثير ، فالطعام لا يكاد ينقص ؛ وإذا بعمه عبد العزى يقول لمن حوله والغيرة تنهش قلبه :

ـ والله لقد سحركم صاحبكم .

وضاق صدر رسول الله مما قال الكاذب ، وأمسك عن الكلام ، وأنفض القوم .

وعاد جبريل υ إلى رسول الله يستحثه فى عتاب بآيات من سورة الحجر :

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

وأعاد النبى المحاولة فأكثر من الطعام ، ثم أرسل عليا إلى أعمامه يدعوهم ، ولما فرغوا من الأكل بادر عبد العزى فقال :

ـ يا محمد هؤلاء عمومتك ، تكلم بما تريد واترك الصباة ، فإنى لم أر أحدا قط قد جاء قومه بما هو شر مما جئتنا به .

وأشار جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأن لا يعبأ بعدو الله و يصبر ، فقال النبى :

ـ يا بنى عبد المطلب إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو نار أبدا ، وإنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيتى ووارثى ؟ .

فأحجم الموجودون عن إجابته إلا على بن أبى طالب ، فلقد أسرع يلبى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أصغر الموجودين سنا وجسما :

ـ أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه .

وتنتفخ أوداج أبى طالب بالفخار ، وهو يرى ابنه عليا يكبر الرجال فيتقدمهم ، ويتساءل بينه وبين نفسه :

ـ أى دين هذا الدين الذى جعل الصبى رجلا يطاول أعناق العماليق فيفوقهم ؟! .

وكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤاله مرة ثانية وثالثة :

ـ آيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيتى ووارثى ؟ .

.. وعلى ينهض وحده فى كل مرة ليجيبه ملبيا :

ـ لبيك يا نبى الله ، أنا أكون وزيرك عليه .

.. وهنا ضرب النبى صلى الله عليه وسلم بيده على يد على ، وقال :

ـ إن هذا أخى ووصيتى وخليفتى فيكم .

وانتفض عبد العزى غاضبا يقول :

ـ يا بنى عبد المطلب ،هذه والله السوءة ، خذوا على يده ، وامنعوه عن هذا الأمر بحبس أو بغيره ، قبل أن يأخذ على يده غيركم .

ولم تستطع أخته صفية بنت عبد المطلب أن تسكت على غلظته ، فقالت له :

ـ أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟.. فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من أصل عبد المطلب نبى ، وإنه لهو .

لوح عبد العزى بيديه فى وجهها وصرخ فيها :

ـ هذا والله الباطل ، وكلام النساء فى الحجال .

قال أبو طالب فى عزم :

ـ والله لندافع عنه ما بقينا .

.. وتفرق الأهل، ولم يستجب منهم أحد إلا من سبق وهما : عمته صفية وعلى ؛ ومحمد صلى الله عليه وسلم صابر فى ظاهره ،باك فى أعماقه أسفا وحزنا عليهم ، فيهون عليه ربه ، ويتنزل الإفصاح العظيم ، فى سورة الشعراء :

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (٦)

.. وواصل رسول الله الجهر بالدعوة ، وحين مر بجماعة من قريش كانت مجتمعة على جبل الصفا ، وقف يخطبهم قائلا :

ـ أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم تكذبوننى ؟ ..

قالوا مجمعين :

ـ والله ما جربنا عليك كذبا .

قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :

ـ يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النـار ، فإننى لا أغنى عنكم من الله شيئا ، إنى لكم نـذير مبين بين يدى عذاب شديد، إن مثلى معكم مثل رجل رأى العدو ، فـانطلق يريـد أهلـه خـشية أن يسبق إليهم ، فجعل يهتف : يا صباحاه ، يا صباحاه ، أتيتكم ، أنـا النـذير العـريان ، إن الله قـد بعثنى إلى الخلق كافـة ، وإليكم خاصة ، فقال : "*وانذر عشيرتك الأقربين ." وأنا أدعـوكم إلـى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين فى الميزان : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ؛ فمن يجيبنى إلى هـذا الأمر ، ويؤازرنى على القيام به ؟.

وقبل أن يلفظ أحـد بكلمـة ، سـارع عبـد العـزى يقـول مؤنبـا النبـى صـلى الله عليـه وسـلم ، مسخفا لقوله:

ـ تبا لك ، ألهذا جمعتنا .

.. وانفض القوم ، ولم يجبه أحد .

وأنزل الله فى سورة المسد من القول ما زلزل كيان عبد العزى ، تأديبا له على تطاوله :

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَـارًا ذَاتَ لَهَـبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥) سورة المسد

.. وذاع خبر السورة فى قريش وسكب المشركون الزيت على النار ، حتى تكون الفتنة مـن داخل البطن الواحد ، خاصة وأبو طالب لا يريد أن يحيد عن دفاعه عـن ابـن أخيـه ؛ ويتكفـأون مسرعين إلى عبد العزى يسمعونه ما أنزل فيه .

ويستشيط أبو لهب غضبا، فيصحب ولديه وكانا قـد خطبـا ابنتـين مـن بنـات الرسـول فيـردان خطبتهما ويطلقانهما، بل ويتطاولان عليه فيسمعانه ما لا يحب أن يسمع ، ويـسيئان إليـه فيتفـل أحدهم على وجهه الشريف !! .

.. وتمسك أم جميل زوج أبى لهب بحجـر ، وتخـرج مـن دارهـا صـائحة مولولـة مقـسمة أنهـا ضاربة فم النبى صلى الله عليه وسلم ، بذاك الحجر جـزاء ما قـال .

فى الكعبـة جلس النبى يـصلى ، وجعلـه الله فـى ناحيـة عـين أم جميـل العميـاء ، فلقـد كانـت عوراء ، فلم تر محمدا صلى الله عليه وسلم رغم تدقيقها فى وجوه من حولهـا ، فأخـذت تـسب وتشتم " مذمما " ، ثم انصرفت تأكلها نار غضبها .

وحين صادف أبو جهل رسول الله يطوف بالبيت ، لم يـستطع أن يخفـى غـضبته ، وسـبه سـبا مقذعا ، فلقد كان يتوقع أن السماء لا بد وأنها قائلة كلمتهـا فيـه هـو أيـضا ، كمـا قالتهـا فـى أبـى لهب فيلحقه العار والهوان ، كما لحق بصديقه ، والرسول صلى الله عليه وسلم صابر لا يـرد عليه ، حتى انتهى من طوافه ، وتركه وانصرف .

.. ويسمع عمه حمزة بن عبد المطلب وهو عائد من القنص ، امرأتين تتشدقان بما فعل الحكـم بن هشام بمحمد ، فلم يحتمل حمزة سـماع المزيـد ، وأسـرع إلـى حيـث كـان الحكـم يجلـس مـع أصحابه من المشركين ، وهوى على رأسه بقوس الصيد فشجه ، وقال له متحديا :

ـ كيف تسب محمدا وأنا على دينه ؟ .

وما كان حمزة على دين محمد ،ولكنه التحدى ، وهى حمية الجاهليـة الأولـى ، ولقـد شـاء الله أن تكون غيرة حمزة لابن أخيه سببا فى دخوله فى دين اللـه .

ـ ٩ ـ

راح أوليـاء الـشيطان يفكـرون ويعملـون الفكـر فـى تـآلف لـم يعتـده أهـل مكـة ، أهـل الـشقاق والعـصبية ، والتـشرذم ، فلقد جمعهـم الحقـد كـل التجمـع ، خاصـة وقـد اكتـشفوا أن التخويـف والتعذيب لم ينجحا فى إثناء الناس عن الـدخول فـى ديـن الله ، بـل هـم يتكـاثرون ، فهـا هـو ذا حمزة قد أعلن إسلامه ، ثم ها هـو ذا أبـو ذر الغفـارى يحمـل الـدين الجديـد إلـى خـارج مكـة ، وبهذا لم يعد الأمر داخل مكة وحدها ، بل صار خارجها أيضا ، وليس بمستبعد أن يفد صـحابة

محمد من الخارج ، بعد أن فروا إلى النجاشى ملك الحبشة ، ليقاتلوهم فى ديارهم فيخرجوهم ، أو يضيعوا أمرهم بين القبائل ؛ ولم لا وصحابته يعيشون فى سلام ، وينشرون دينهم ، وهم إذا ما ذاع أمرهم ، وقويت شوكتهم ، هلكت قريش .

إذن لابد من إتباع أسلوب جديد ، فليبعثوا بالهدايا إلى ملك الحبشة وإلى البطارقة من أصحاب النفوذ لديه ، وليطلبوا منهم أن يسلموهم من نأوا بدينهم عند مليكهم .

تصايح المشركون وقد أدركوا هول الخطر الذى يحيط بهم ، وتسابقوا يجمعون الأموال والهدايا التى سيرفعونها إلى النجاشى وبطارقته ، وكانوا يعمدون إلى الإعلان عن فعلهم ليغيظوا به المسلمين ، ويهزوا ثقتهم ، ويوقعوا الرعب فى قلوبهم .

وكان رسول الله يسمع ، ويألم ، ويتوسل إلى رب العالمين أن يحفظ صحابته ، وأن يهلك فعل الكافرين ؛ ويأتيه جبريل موضحا له معلما مبينا فى سورة مريم :

أَلَمْ تَرَى أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًا (٨٣) فلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إلى الرَّحْمَن وَفدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إلى جَهَنَّمَ ورْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَن عَهْدًا (٨٧)

.. وينزاح القلق سريعا عن نفس نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد علمه ربه أن مكر الله شديد ، وأن ما ينتظر صحابته من جزاء فى الآخرة لتهون أمامه كل المشاق ، بل إن الحياة نفسها أمام وعد الله لا تساوى جناح بعوضة .

سافر وفد إلى الحبشة بقيادة اثنين من أحكم رجال قريش ، وقد حملوا بالهدايا ، وكشف لهم إبليس عن أسهل الطرق للوصول إلى قلوب البطارقة ، وعملوا بما علمهم ، فتزلفوهم وقدموا لهم الهدايا ،وأغروهم بالموافقة على تسليم المهاجرين فوافقوهم ، ووعدوهم بأن يجعلوا الملك يوافق هو أيضا .

.. هكذا مكروا ، ولكن مكر الله أشد ، فلقد جعل النجاشى يطلب الاستماع إلى المسلمين قبل أن يتخذ فيهم رأيا .

اختار المهاجرون أن يكون المتكلم عنهم جعفر بن أبىطالب أخو على وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سأله الملك :

ـ ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ .

أجابه جعفر قائلا :

ـ أيها الملك ، كنا قوم جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ؛ حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، ووصل الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ؛ فعبدنا الله وحده ، واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ؛ فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا عن عبادة الله سبحانه ، إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل من الخبائث ما كرهنا ؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك .

قال الملك :

ـ هل معك مما جاء به نبيكم شئ ؟ .

فتلا جعفر من سورة مريم :

كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا(٩)قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَايَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

.. فبكى الملك بكاء شديدا حتى ابتلت لحيته ، وبكى الأساقفة تأثرا بقول الله ، ثم قال الملك للمبعوثين :

- إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة، فانطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم، ولا يكون هذا أبدا.

ولم يهدأ الحقد فى نفس عمرو بن العاص ، فظل ساهرا الليل بطوله يبحث عن وقيعة يحدثها بينهم وبين النجاشى، إلى أن ألهمه شيطانه إلى حيلة جعلته متيقنا من أن النجاشى سيسلمهم إليه، إن لم يكن سيأمر بقتلهم.

وما إن أشرق النهار ، حتى طلب عمرو المثول بين يدى الملك ، فلما أذن له قال :

- أيها الملك العظيم ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا قبيحا ، فأرسل واسألهم فيه .

وطلب الملك " جعفر " ، وسأله عن حقيقة ما جاء فى مريم ابنة عمران فواصل جعفر القراءة ، من سورة مريم :

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)

.. وهاجت البطارقة ، وعلا صوتها احتجاجا على القول بأن عيسى ليس ابن الله ، ولكن الملك قال لهم :

- والله ما قال مثل ما قيل إلا عيسى بن مريم ، وإن غضبتم ، ردوا على الرسل هداياهم فلا حاجة لى بها ، فو الله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى .

ورد الملك هدايا وفد قريش ، وأمر بحفظ جوار المسلمين .

وتحولت شياطين قريش غضبى تبحث عن سبيل جديد لإضعاف موقف محمد ، فأرسلوا عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث إلى طيبة ، ليسألا عتاة اليهود من الأحبار كيف يكون الكيد لمحمد وصحبه ، ويطلبوا منهم الأدلة والبراهين التى تعجزه وتقلل من شأنه ، وتشكك فى أمر الدين الجديد ، فسألهم الأحبار :

ـ أهو يعرف القراءة والكتابة ؟ .

فنفيا قائلين :

ـ لا نظن أن يكون على دراية بشىء من ذلك كأغلب أهل مكة .

.. ثم أضافا قائلين :

ـ ولقد تبعه على دينه أراذلنا والسفلة منا .

فضحكت الأحبار لذلك ، ونصحوهم بأن يحاجوه بأمور حددوها لهما ، ستعجزه باليقين .

.. وعاد المبعوثان إلى مكة ، ودعت قريش رسول الله للمناظرة ، وقد ملئوا كبرا وثقة فى النصر ، وسألوه عن أمور ثلاثة :

ـ من هم الفتية الذين ذهبوا فى العصور الهالكة ؟ ..

ـ وما نبأ رجل طواف ؟ ..

ـ وما الروح ؟ ..

فقرأ رسول الله عليهم ما جاءه من عند ربه عن أهل الكهف ، قال تعالى من سورة الكهف :

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)

أما عن الرجل الطواف ، فقال رب العالمين ، فى سورة الكهف :

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دكا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)

.. أما عن الروح ، فقال تعالى فى سورة الإسراء :

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا (٨٥)

.. وحين سمع الأحبار بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهدوا بأنه الحق ، وأحبط الذين كفروا .

ـ ١٠ ـ

أعلن عمر بن الخطاب إسلامه ، بعد أن سمع كلام الله يتلى فى دار أخته ، وكانت قد أسلمت سرا هى وزوجها ، وقد أخذه العجب أن تسمع قريش بمثل هذا الذكر الحكيم وتفر منه .

وحين جلس ابن الخطاب ، بكل شموخه وقوته وحكمته بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد استماعا ، ويمتلئ خضوعا وخشوعا وخشية لله الواحد ، وحين تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة التكوير :

ـ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)

.. ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الموضع من الآية ،إذا بالنشيج المكتوم يعلو ، وإذا بابن الخطاب وكأنما قد أصابته الحمى ، فلقد أخذته الرعدة ، وتهدج صوته ، وقال فى رقة بالغة :

ـ والله لقد أريتنيها يا رسول الله ، وإنى لأرى ابنتى الآن رأى العين وقد أسقطتها فى الحفرة لأدفنها ، ورحت أهيل عليها التراب ، فإذا بها تمد يدها الصغيرة ، فتنفض التراب عن شعر ذقنى كلما علق به .

وبكى الرسول صلى الله عليه وسلم تأثرا ، وهو يستغفر ربه من غلظة القلوب ، وغفلة الجاهلية ، وبكت الصحابة ، وراح النبى صلى الله عليه وسلم يسأل عمر معاتبا :

ـ أهانت عليك يا عمر ؟ .

فيجيبه عمر وقد زاد ألمه وندمه ، قائلا :

ـ والله إنها الجهالة يا رسول الله ، فهل ربى غافر لى ؟.

قال النبى صلى الله عليه وسلم :

ـ يا عمر .. يقول رب العزة سبحانه وتعالى : " يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة ." .. يا عمر يقول رب العزة سبحانه وتعالى :" إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ." فاستغفر لذنبك .

قام عمر من بين يدى رسول الله ، ولسانه لا يكف عن الاستغفار ، وقد أراحه ما علم ، وزاده تثبتا وإيمانا ، وأصبح كل همه أن يعلن للملأ من مشركى قريش إسلامه .

ذهب أول ما ذهب إلى خاله ، عدو الله أبى جهل عمرو بن هشام ، طرق عليه الباب ، وحين فتح له ، هش فى وجهه وقال له :

ـ ألا أبشرك ببشارة ؟ .

قال خاله :

ـ وما هى ؟ .

قال ابن الخطاب :

ـ إنى آمنت بالله ورسوله محمد بن عبد الله ، وما أنزل عليه .

صفق أبو جهل الباب فى وجه ابن الخطاب ، وهو يزأر :

ـ قبحك الله ، وقبح ما بشرتنى به .

.. لم يكتف ابن الخطاب بما فعل ، بل ذهب إلى " جميل بن حبيب فى مجلسه بجوار الكعبة ، وكان ممن عرف عنهم سرعة نقل الحديث ، فمال عليه وقال له :

ـ أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ، ودخلت فى دين محمد ؟.

انتفض جميل يصرخ فيمن بالجامع :

ـ يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ .

وكان عمر يقف وراءه فزجره قائلا :

ـ كذبت ، بل إنى قد أسلمت وتبعت دين محمد ، وشهدت بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .
تنافر الموجودين بالجامع ، وحملوا على عمر ، وقفز عتبة بن ربيعة على ظهره فطرحه عمر أرضا ووضع إصبعه فى عينه فصار يصرخ مستجيرا ، فتكالب الناس على عمر يضربونه ويضربهم حتى تمكنوا منه فطرحوه أرضا .
وجاء فرج الله بظهور أبى جهل ، فقد صعد بأعلى مكان مستكشفا ما يحدث ، وأنطقه الله ، فصرخ فى الناس معلنا أنه مجير ابن أخته ، فانفضوا عن عمر .
.. وفى الصباح ألح عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلحاحا شديدا أن يظهر صلاتهم ، ويخرج مع المسلمين إلى الجامع ليصلوا فى الكعبة ، واستجاب النبى لرجائه ، وخرج المسلمون صفوفا يتقدمهم عمر ويحمى مؤخرتهم حمزة ، ودخلوا إلى المسجد .
كان المشهد مهيبا ، وزادت المفاجأة من وقعه على النفوس ، فبدا أكثر هيبة وأشد وطأة ، فلم يكن أحد فى مكة كلها ، حتى المسلمين : من أظهر منهم إسلامه ، ومن أخفاه ، يرقى تصوره إلى هذا المشهد الذى خرج فيه المسلمون ، وفاجأ به ابن الخطاب الحياة جميعها .
.. أصيب الكفار بالفزع ، وانتابتهم الفرقة ، فلم يتنادوا ، ولم يجتمعوا ، بل انصرف كل منهم إلى ما هو فيه من شأن ، فلم يعترضوا سبيل المسلمين ، حتى انتهوا من صلاتهم وغادروا المسجد ، ثم صاروا يتنادون ويتلاومون على ما فرطوا فيه من ترك للمسلمين .
ومنذ ذلك اليوم سمى عمر بن الخطاب : الفاروق ، لأنه فرق بين الحق والباطل .
وتناقلت الألسن نصرة المسلمين ، وكما تسرى النار فى الهشيم لا تفرق بين أخضر ويابس ، ولا بين حق وباطل ، كذب وصدق ، ولما وصل خبر الحادثة إلى المهاجرين بالحبشة ، صار يقول :
ـ لقد دخل أهل مكة فى دين الله أفواجا .
.. وجعلت الفرحة من أمضهم الشوق إلى الوطن ، يتدافعون عائدين إلى قريتهم : فلم والحال قد أصبح كذلك ، يبقون فى الغربة بعيدا عن الحبيب والأحبة ؟! .
كان وقع عودتهم على الكفار كسكب القار على النار ، فازدادت كراهيتهم لرسول الله اشتعالا لتلتهم البقية الباقية من العقل والتعقل ، ولم يعد أمام أنصار إبليس من سبيل سوى قتل الرسول ، فلقد أدركوا بعد أن سلكوا كل السبل : أنه لن يوقف دعوته إلا القتل ، واجتمع رأيهم على أنه لا سبيل للخلاص منه إلا بفداء منهم : فى ظاهره التضحية ، وباطنه المكر والخداع ، وذهبوا إلى أبى طالب ومعهم أملح فتيان قريش قائلين :
ـ يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد وأجمل فتى فى قريش ، فخذه وأتخذه ولدا فهو لك ، وسلم لنا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعتنا وسفه أحلامنا .. فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .
وتألقت بصيرة أبى طالب ، فكأنه قد سمع ورأى كل ما تآمروا عليه ، فأجابهم متعجبا من غرابة منطقهم :
ـ والله لبئس ما تساوموننى عليه ، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ، هذا والله مالا يكون أبدا .
وبمنطق الضلال الذى كانت قريش عليه قالوا :
ـ واللات لقد أنصفك قومك يا أبا طالب ، وجهدنا على التخلص مما تكره ، فما نراك تريد أن تقبل منا شيئا .
وانصرفوا من عنده غاضبين ..
.. ولكن رحى القتل لم تنصرف عنهم ، ودارت بالحقد تطحن عظام رؤوسهم ، قبل أن تشحذ عقولهم ، وقر قرارهم بعد جدل طويل شارك فيه إبليس ، بأن السبيل للخلاص من محمد

سيكون أهون ، لو بعدوا عن القيام بقتله بأيديهم ، فما رأوا عليه ابا طالب يؤكد أن دم محمد لن يتفرق بينهم ، وسوف يطالب به بنو عبد المطلب ، إن لم يكن بنى هاشم وانسبائهم وأنصارهم ، وقر رأى المتآمرين على استئجار شخص من خارج قريش ليقوم بعملية القتل ، و يدفع المتآمرون دية محمد لأهله من بنى هاشم .

ولما عرضوا الأمر على بنى هاشم أبوا ، وآزرهم فى ذلك بنو عبد المطلب بن عبد مناف .

اشتد الغضب بالمتآمرين ، وتنادوا وتنافروا ، ثم أجمعوا على أن يخرجوا من بينهم الرافضين لقتل محمد ، وينبذوهم ويحاصروهم فى شعب أبى طالب .

وحين علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عزمت عليه قريش ، أشار على صحابته ممن عادوا إلى مكة من المهجر ، أن يلحقوا هم وغيرهم من المسلمين ، بإخوانهم الذين بقوا بالحبشة ، وأن يفروا بدينهم .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فبقى بمكة مع قلة قليلة من الصحابة ، صابرا محتسبا ..

الفصل السادس : .. وتشتد

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِى صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

سورة الأحقاف

- ١ -

اجتمعت بطون قريش وتكاتبوا على أن يحصروا محمدا ، ومن رفضوا قبول الدية عن قتله فى شعب بنى هاشم ، فلا يغادروها إلا للحج ، وأن يمتنعوا عن معاملتهم فلا يزوجوهم ولا يتزوجونهم منهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يبيعون لهم ، ولا يسمحون لأحد ـ وإن كان من غيرهم ـ بأن يصلهم ، إلى أن يسلموهم محمدا ؛ ثم حملوا صحيفتهم التى كتبوها ، ووضعوها فى بطن الكعبة .

.. دخل الشعب بنو عبد المطلب ، إلا عبد العزى " أبو لهب "، فهو وحده قد خرج عن إجماع قومه ، وإنحاز إلى أصحاب الصحيفة ، ودخل مع بنى عبد المطلب ، بنو هاشم.

كان أبو طالب فى غاية القلق على ابن أخيه ، من مكر قريش بعد ما أظهروه من عداوة مجنونة ، فلم يكن يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيدا للحظة واحدة ، ويعهد إلى الفتية الأشداء من قومه بمرافقته وحراسته ، ولشدة حدبه على محمد ، كان لا يتركه يبيت فى مكان نام فيه ليلته السابقة ، بل كان ينيمه كل ليلة فى فراش ابن من أبنائه ، حتى يطمئن عليه من غدر أعدائه .

.. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يألم غاية الألم لما سببه ويسببه لأهله من شقاء ، وكثيرا ما أفصح لعمه أبى طالب بذلك ، فكان كلامه يزيد عمه إصرارا ، فيقول له فى عزم :

ـ والله لا نسلمك لهم أبدا وإن هلكنا دون ذلك .

.. وكان ألمه الأكبر الذى يؤرقه ليل نهار ، أن أهله رغم كرم موقفهم منه ، لم يرجعوا عن شركهم ، وهو من كان يأمل أن يثابوا عند الله لحسن ما أبلوا معه ، فنصروه وعزروه ، ولكن ها هو ذا أمله يتبدد ، لأن ما هم فيه من معاناة وضنك ، ليس لله ، بل هو من أجل كبريائهم ، وانحيازهم لأصلابهم .

.. لقد سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليالى طوالا يناجى ربه ، قائلا:

ـ اللهم اهد آل محمد إلى الإسلام .

ويظل على توسله ، حتى تكاد نفسه تتبدد حسرات ، وكيف لا وهو يعلم أن مآلهم إلى النار .

وقد عز على الرحمن الرحيم ما أصبح عليه عبده محمد صلى الله عليه وسلم من هم وحزن ، فأنزل فى هذا الموقف قرآنا ، يخفف به عن قلبه :

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) سورة القصص

.. ولما اشتد الضنك بالقوم ، جاءه جبريل يبشره بانقضاء العهد الذى تعاهد عليه المشركون ، وأسرع النبى صلى الله عليه وسلم إلى عمه ، يحمل ما تنزل عليه ، قائلا :

ـ أبشر يا عم ، إن صحيفتهم ببطن الكعبة ، قد أكلتها الأرضة ، ولم يتبق منها إلا اسم الله .

قال أبو طالب :

ـ أربك أخبرك ؟ .

قال محمد صلى الله عليه وسلم :

ـ نعم .

- ٢ -

.. خرج أبو طالب فى جماعة من قومه إلى الجامع ، فلما رأة القرشيون ، توقعوا أنه قد ضاق بحصارهم ، وبامتناعهم عنه ، وهو من كان فيهم الكبير المطاع المتصدر لمجالسهم ، وأنه بقدومه يسعى لأن يسلمهم ابن أخيه ، فأسرعوا يلتفون حوله ، وعيونهم تبرق بالأمل .

قال أبوطالب :

ـ يا أبناء عم ألا تعودون إلى حكمة العقل ،فتحتكموا ونحتكم معكم متراضين على ما كتبتم فى صحيفتكم ، وليكن ما تعاهدتم عليه ، هو العهد والحكم بيننا وبينكم ؟ .

أجابوه فى سعادة المنتصرين :

ـ واللات والعزى ، إنه لعين العقل منك يا أبا طالب .

ثم أوفدوا من أحضر الصحيفة من داخل الكعبة ، وحين اطمأن أبو طالب إلى كونهم لم يفضوها ، قال :

ـ إن كان ما كتبتم هو كما هو : سلمتكم ابن أخي ، وإن كان الله قد شاء أن يغيره تنقضى صحيفتكم ، وآن لكم أن ترجعوا عن مقاطعتكم بانفضاض عهدكم .

.. بلا تردد وافقوه على ما قال ، وتسابقت أصابعهم على فض الصحيفة ، وحين كشفوا عن ما بها ، ران صمت عميق على الحاضرين ، وألجمت الدهشة ألسنتهم ، وبهت الذين كفروا ،بعد أن وجدوا الأرضة قد أكلت كلماتها ، ولم يتبق مما كتب شئ سوى كلمة : الله .

وتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وجن جنون المشركين .

وحين أفاقوا من هول ما رأوا ، تصايحوا متراجعين عن ما ارتضوه ، وعاهدوا عليه ، وقالوا لأبى طالب :

ـ إن هذا إلا سحر ابن أخيك .

وانفضوا من حوله .

وعاد المحصورين ثانية إلى الشعب .

وازداد القرشيون بغيا على من حصروهم .

عام ..

وعام ..

وعام ..

.. أعوام ثلاثة بالتمام والكمال .

.. ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله محصورون فى الشعب ، يعانون من القطيعة وضنك العيش .

: فأى قسوة تلك التى قدت منها قلوب أهلك يا مكة ؟!!.

: كيف يرتضى الأهل لبعضهم البعض مثل تلك الجفوة ؟!!.

.. ولكنه الابتلاء .

.. واختبار القدرة على الصبر .

.. ثم يأتى الله بالفرج .

.. ويجمع الله أربعة من بطون متفرقة من قريش ، وتتنزل الرحمة فى قلوبهم ، وهم: هشام بن عمر وبن حبيب بن لؤى ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى ، والمطعم بن عدى بن نوفل ، وزمعة بن الأسود بن أسد ، ويدور بينهم النقاش حول ما فعلته وما تفعله قريش فى أأصل أصولها من : حصر وجور واعتداء ، و قطع للرحم ؛ وانتهى بهم الحديث إلى إجماع على أن ما يحدث ليس فيه من الخلق ، ولا من المروءة شىء ، وأنهم يجب أن يسعوا لنقض تلك الصحيفة الظالم ميثاقها ، واتفقوا على أن يجتمعوا فى ليلتهم ، لحظة اكتمال ندوة قريش حول الكعبة ، ويجلس كل منهم فى بطنه ، ثم يعلنون ما أجمعوا عليه .

ـ ٣ ـ

كان القمر يطل على الكعبة فى حياء من وراء ستر السحاب ، فلقد كان قمر نهايات الشهر ، وقد جلست بطون قريش فى الجامع ، كل بطن يبحث شئونه أو يلوك باللسان سقط الكلام .

.. فجأة تألق نور القمر ، وكأنها حنجرة زهير بن أبى أمية بقوة انطلاقها ، قد بددت السحب التى كانت تحجب النور، قال زهير فى غضب ، وهو يرمى ما بيده من طعام :

ـ يا أهل مكة أين ذهب بكم غضبكم ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم من أرحامنا هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع ، والله لا أقعد فى مجلسكم هذا ، حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

وحين سمع أبو جهل ذلك ، ترك مجلسه ، وأقبل يصيح فى زهير ، قائلا :

ـ كذبت ، والله لا تشق .

فانتفض زمعة من مجلس قومه واقفا ، وقال لأبى جهل :

ـ أنت والله أكذب ، فما رضينا بكتابتها حين كتبت .

وهب هشام واقفا ، وأعلن تصديقه لزمعة فيما قال ، وأعقبه المطعم بن عدى مؤازرا ؛ وبهت أبو جهل مما سمع فألقمه الله حجرا فى فمه فما استطاع حديثا ، وانكفأ راجعا إلى مجلسه ، وقام المطعم إلى الكعبة فأخرج الصحيفة ، ومزق ما تبقى منها .

.. وخرج المحصورين من الشعب إلى الحياة يمارسونها كسابق عهدهم .

.. اشتد الأمر على أبى طالب ، وزهد الحياة ، فكلما فكر فيما فعل به قومه ، وهو من كان لهم درءا يدفع عنهم السوء ، استكثر وقوعه ، وتألم غاية الألم ، حتى أصبح لا حديث له إلا عن ما كان فى الشعب ، وما كان من مظلمة قريش ، فاعتلت صحته اعتلالا شديدا ، وزاد سقمه ، ولما أحس باقتراب لحظة الموت ، جمع إليه بنى هاشم ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ يا ابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، قد جمعتهم ليعطوك وليأخذوا منك ، فينتهى ما بينكم من جفوة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ كلمة واحدة لتعطنيها ، فتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم .

قال أبو جهل ساخرا :

ـ نعم ، وأبيك ، وعشر كلمات إن أردت .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

صفق الحضور بأيديهم عجبا ، وقالوا :

ـ إن هذا لشىء عجاب ،أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، ما سمعنا بهذا حتى فى ملة النصارى ؟!! .

.. وتداخلت كلمات الحضور وتصايحوا ، كل يدلى بدلوه ، غير مقتنعين بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبو طالب أشار عليهم بالصمت ، فسكتوا تأدبا واحتراما ، وخرج صوته بالصدق راجيا ، يقول :

ـ يا بنى هاشم ، أطيعوا محمدا وصدقوه ، تفلحوا وترشدوا .

.. انفضوا من حوله ولم يعقبوا ، وإن كانوا مجمعين على أن ما قاله أبو طالب ، إنما هو من هول سكرات الموت ، أو إشفاقا على ابن أخيه من أن يصير إلى الوحدة ، ولا يجد النصرة بعد أن يهلك .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فلم يأبه بما قالوا ، فلقد كانت نفسه تتواثب بالفرحة ، بعد أن سمع ما قال عمه الحبيب ، ولما خلا به ، مال عليه يهمس فى رجاء ، قائلا :

ـ يا عم .. أتأمرهم بالنصيحة لأنفسهم ، وتدعها لنفسك .

قال أبو طالب ، وعيناه بالحنان تحتضنان محمدا :

ـ وما تريد يا ابن أخى ؟ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجاء شديد ، وحب أشد :

ـ أريد أن تقول : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها عند الله .

قال أبو طالب :
ـ والله يا ابن أخى لـولا مخافة السبة ، وأن تظن قريش أنى قلتها خوفا مـن المـوت لأقـررت بها عينك ، لكنى أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .
.. ثم أسلم الروح ، ومات .
وحزن الرسول عليه حزنا شديدا ..
ولم تمض سوى أيام قليلات ..
وماتت خديجة رضوان الله عليها .
وهى ، وما أدراكم من هى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
فمنذ عرفها كانت نعم الصديقة ، ونعم الزوجة المخلصة ، ونعـم الأم الرءوم ،
فلقد جعل الله فيها ، رضوان الله عليهـا وسـلامه ، صـفات الزوجـة المـسلمة : سـكنا ومـودة ورحمة .
.. لم يكن أمامه صلى الله عليه وسـلم مـا يقدمـه مـن أجلهـا ، إلا أن يعبـر بالفعـل الكـريم عـن عرفانه : فصلى على جثمانها الطاهر ، ودعا ربه أن ينزلها الفردوس الأعلـى ، ثـم دفنهـا بيديـه الكريمتين ، وبكاها قلبه ، قبل أن تبكيها عيناه .
واشتد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعصف به الألـم ؛ فهـا هـو ذا يفقـد فـى أيـام قليلات ، أحب اثنين إلى قلبه : عمه ، وزوجه .
.. واحتسبهما عند الله .
.. وعاد يمارس الصبر .
.. ويدعو الناس إلى عبادة ربه .
.. وهو يعلم أن ربه لن يقلوه .

ـ ٤ ـ

أصاب محمدا صلى الله عليه وسلم ما أصابه من بلاء ، وبدلا من أن تظهر فروسية الـسلوك من قريش ، إذا بها تفعل فعل الجهال ، وإذا بها تشتد فى قـسوتها علـى رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ، حتى أصبح الغدر هـو الأغلب على فعالها ، فآثر رسـول الله أن يعتكـف فـى داره ، ويتجنب سفاهات القرشيين ،وظل على تلك الحال أياما ، ولما علم عمه عبد العزى بمـا صـار إليه ابن أخيه ، أخذته الحمية لصلبه فجاءه ، وقال له :
ـ يا محمد امض لما أردت ، وما كنت تصنع فى حياة عبد المطلب ، فواللات لا يصلون إليـك حتى أموت .
.. ثم أعلن ذلك على قريش فى مجالسها ، فأقبلوا عليه وجلون ، قالوا :
ـ فلا أبو لهب دين عبد المطلب .
قال أبو لهب :
ـ ما فارقت دين عبد المطلب ، ولكنى أمنع عدوانكم عن ابن أخى .
قالوا منافقين :
ـ لقد أحسنت وأجملت ، ووصلت الرحم .
.. وما قالوا ما قالوا إلا ممالأة لعبد العزى ، فلـو انـضم آل عبـد المطلـب لـدين ابنهــم ، لتفـرق ريحهم، أمـا أن تشتد الحمية بهم من أجل غيرتهم علـى أرحـامهم ، فهـو أمـر يمكـن علاجـه مـع الأيام ، وانفض القـوم ، والله أعلم بما يضمرون .
وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج للدعوة بـين الوافدين إلـى قـريش مـن جديـد ، لكن أنصار إبليس أمرضهم ما يرون ، فمكروا مكـرا كبـارا ، ثـم ذهبـوا إلـى عمـه أبـى لهـب ، وتبسموا شامتين ، ثم خرجت كلماتهم متسائلة ، والسم يتناثر من أطراف ألسنتهم :

ـ هل سمعت ما يقول ابن أخيك ، عن مصير من ماتوا من الآباء ، ومنهم عبد المطلب ؟! .
قال أبو لهب :
ـ لا .
تناثر السم يدمر كل ما هو طيب ، ويفسد استمرارية الود ، قالوا :
ـ يقول إنه مثله مثل من ماتوا على ملته .
قال أبو لهب :
ـ وماذا يقول عن مصيرهم ؟! .
عاد الخبث القاتل يغلف كلماتهم بالسم ، وقالوا :
ـ هو ابن أخيك ، فاذهب إليه واسأله .
.. وجاءه رد السماء على لسان لا ينطق عن الهوى ، ولا يكذب ، ولا يمالئ ، بل هى قولة الحق أجابه بها محمد صلى الله عليه وسلم ردا على سؤاله :
ـ من مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار .
اشتعل أبو لهب وصار نارا مدمرة تعلن عداءها ، قال :
ـ والله ما أنا لك منذ اللحظة إلا عدو أبدا ، وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار .
كنت يا حبيبى تعلم أن هذا هو رد الفعل لقولك .
فأنت تعرف أن عمك عبد العزى عبد لما عبد الآباء .
.. ولكنك لم تحد عن الحق، وكيف تحيد، وتعمل عمل أهل الدنيا فتمكر، وترائى طلبا لعون عمك ونصرته ؟! .
.. وأنت تعلم أن النصر من عند الله ، وأن الأمر جميعه بيد الله سبحانه وتعالى ، وليس لعبد العزى ، ولا حتى لقريش وأهل الدنيا لو اجتمعوا ، فإنهم لا يضروك بشىء ، إلا ما كتب الله تعالى لك .
.. واهتبلت قريش الموقف اهتبالا ، فعادت إلى سابق عهدها مع رسول الله وصحبه من جور واعتداء .

ـ ٥ ـ

.. مع مرور الأيام ، وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا خير فى قريش .
وفى ليلة شديدة الظلمة ، فهى فى مثل ظلم قريش ، وفى غفلة من عيون أهلها ، تسلل رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا من مكة ومعه زيد بن حارثة قاصدا : الطائف ، عسى إن لم تكن قريته الأولى قد استجابت لدعوته ، أن تستجيب القرية الثانية ، ولعل الأنسباء يكونون ، أكثر حدبا عليه من الأصلاب .
.. كان صلى الله عليه وسلم كلما مر فى طريقه بقبيلة من القبائل يميل إليها ، ويدعو أهلها إلى الإسلام ، فلعل الله هاديهم ، فلم يجد منهم إلا النفور والصد عن دين الله ، ولم يحبط موقفهم أمله فى أن يتحقق وعد الله ، وأن يدخل أهل المقصد من الرحلة الإسلام .
كانت الطائف كمكة فى تكوينها القبلى ، وكان كبراؤها اخوة ثلاثة هم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب : أبناء عمرو بن نفيل الثقفى .
وبعد أن قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من تسعين ألفا من الأمتار سائرا على قدميه ، وصل إلى الطائف ، واتجه إلى حيث مجلس الاخوة ، وعرض عليهم أن ينصروه على قومه ، بدخولهم فى دين الله ، فقال أولهم :
ـ إننى لأمزق ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك .
وقال الثانى متعاظما :
ـ أما وجد الله أحدا غيرك يرسله ؟ .

وقال الثالث وكان مؤمنا :
ـ والله لا أكلمك أبدا ، إن كنت رسولا لأنت أعظم من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغى لى أن أكلمك .
.. ثم أغروا غلمانهم وحرضوهم على أن يقذفوا رسول الله بالحجارة ، وهو يأخذ طريقه خارجا من قريتهم ، فلم يراعوا أبسط الأعراف فى معاملة الضيف ، فما بالكم وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجيرا بهم ؟ .
خرج الصبية إلى الطرقات يتصايحون ، ويلاحقون خطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقذفون قدميه بالحصى والأحجار، فما من مرة رفع قدما أو حطها ، إلا ورميت بحجر ، وزيد يذب الصبية فلا يستجيبون ، ولا يرتدعون ، فينفطر قلبه خوفا على الحبيب ، ولا يجد من فداء غير أن يتلقى عنه الحجارة بجسمه ، وإن كانت الروح منه وثابة سباقة تبحث عن مزيد من القدرة على الحماية ، فلم يشعر زيد برأسه التى شجت ، فلقد كان ألم نفسه على الحبيب الذى تخضبت قدماه بالدم مما نالهما من أذى : أشد وأعظم من جرح رأسه .
وهكذا كان النسباء أدنى أخلاقا من قريش ، فلقد تدنوا فى سلوكهم بعد أن نزغ الشيطان فى قلوبهم ،وأشعل نيران الغيرة والكراهية فى أبدانهم : فكيف لا تكون النبوة فيهم هم ، وتكون فى يتيم من مكة، ليس له من الملك، أو السلطان شئ ؟ .
.. وفعلهم هذا لا يثير فينا عجبا أو استنكارا ، فهو سلوك من استعبدهم إبليس ؟! .
.. فكيف لا يكون فعلهم فعلا قبيحا كمصدره ؟!!! .
.. وكيف لا يناصب إبليس محمدا صلى الله عليه وسلم العداوة ، وقد استشاط غضبا وكرها ، بعد أن رأى ما رأى من مثالية سلوك من دخلوا فى دين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وبعد أن تأكد من اعتصامهم بالله ، وامتناعهم عليه ، وإبليس يرى فيما يحدث خطرا محدقا بسلطانه ، فهذه الدعوة إيذان بزوال ملكه ، وهلاك قومه ، وفشله فيما عاهد الله عليه من إفساد للبشر ؟ .

ـ ٦ ـ

.. بعدت الخطى بمحمد وزيد ، عن سبيل الشيطان وأنصاره ، وهدأ هوس الصبية ، وتباعد خطرهم ، وجلس رسول الله إلى سور بستان به كرمة ، ثم خر ساجدا لله فى خشوع ، ثم استقام ورفع يديه إلى صاحب الأمر فى ضراعة وقنوت ، وانساب الدمع على الخدين حبات لؤلؤ ، وخرج صوته صلى الله عليه وسلم خرير جدول ماء طهور ، قائلا :
ـ اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى : إلى عبد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟.. إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .
وتتلقف أذنا زيد صوت الخرير ، فيدهش غاية الدهشة ، ويعجب أشد العجب ، فلقد كان ينتظر من الحبيب أن يدعو ربه ليهلك من اعتدوا عليه ، وآذوه ، وقلوه ؛ ولكنك هكذا دائما يا حبيبى يا محمد ..
: تعفو وتصفح ، ولا تملك أن تقسو أو تكره .
ولماذا العجب ، وأنت من قال فيك الله تعالى :
ـ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) سورة الأنبياء

فاض بزيد وجد المحب على المحبوب ، فنفسه تشعر بالعجز عن القصاص ممن أساء واعتدى ، كما وأنه لا يملك الافتداء ، فكيف ينوب بدنه عن بدن الحبيب ، ولن يتحقق هذا إلا بالامتزاج ، وهذا محال ؟.

.. ويبتعد زيد ببدنه عن محمد صلى الله عليه وسلم خطوات ، وكأنه يضن على جسده العاجز أن يكون مجاورا لجسد الحبيب ، طالما هو ليس أهل لهذا الحب ؟!.

ويتكوم زيد على نفسه ، وينتفض جسده من شدة البكاء ، وهو يكاد ينفرط حسرات على ضعفه وعجزه ، وغيظا من حال بشر قساة يصبــون قسوتهم على من جاءهم بالرحمة من عند الله ، ويبذل عمره لكى تشملهم ليسعدوا ويفلحوا !! .

ويفد جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم يبلغه أن ربه قد سمع شكواه ، وأن الله قد أمر ملك الجبال أن يكون منفذا لما يأمره به ، ويظهر ملك الجبال طاعته ، قائلا :

ـ إذا شئت يا رسول الله أطبقت الجبال عليهم فتمحوهم ، وتمحو أثارهم من على وجه الأرض .

ولكن الحبيب يرتعد من هول ما سيصيب القوم ، فيقول فى رجاء :

ـ كلا ، لا تفعل .

.. ثم يتجه فى ضراعة إلى الله تعالى ، قائلا :

ـ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، فلعلك بقدرتك يا رب مخرج من أصلابهم مسلمين .

وتلمح عين زيد غلاما يقبل حاملا بين يديه شيئا لا تبين تفاصيله ، فتتحفز حواسه للدفاع عن الحبيب ، وحين يقترب الغلام تتضح الرؤية ، ويبين ما يحمله ، فإذا به طبق عليه عنقود عنب ، أرسله صاحبى البستان الذين جلسا إلى حائطه ، فقد رق قلباهما لما رأياه قد حاق بالنبى ، وينحنى الغلام ، ويضع الطبق بين يدى الحبيب ، فيمد محمد يده فيتناول بين أصابعه حبات قليلات من العنب ، ثم يعطى العنقود لزيد ، فيتناوله منه راغبا عنه ، وعيناه ترقبان ما سيفعله الحبيب .

يرفع الحبيب صلى الله عليه وسلم حبات العنب إلى فمه ، ويقول :

ـ بسم الله .

ثم يضع الحبات فى فمه ، ويتساءل الغلام دهشا مما سمع :

ـ والله هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد !!.

ويسأله الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ ما اسم الغلام ، ومن أى بلد ، وما دينك ؟ .

قال الغلام :

ـ اسمى عداس ، ومن نينوى بالشام ، وأما دينى فالنصرانية .

قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ أنت من بلد الصالح " يونس بن متى " .

تساءل الغلام فى دهشة :

ـ وماذا تعرف عن يونس ؟! .

قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ هو أخى فأنا نبى مثله ، بعثنى الله داعيا إلى الإسلام .

قال الغلام فى مودة وهو يجلس متقربا إلى رسول الله :

ـ هلا أسمعتنى بعضا مما تدعو الناس إليه ؟ .

.. أسمعه النبى صلى الله عليه وسلم بعضا من القرآن ، وأعلمه مبادئ الإسلام ، وحين انتهى من حديثه ، انكب الغلام يقبل رأس النبى ويديه فى خشوع ، وحين رأى صاحبا البستان ما فعل غلامهما ، أخذتهما الدهشة ، وانتظرا عودته إليهما فى ترقب ، وكلما مرت

بهما الدقائق ، ازدادا قلقا ، فما إن أقبل ، حتى بادراه بالسؤال عن سبب ذاك التبجيل الذى أبداه لغريب كان الصبية يكنونه بالمجنون ، ويرمونه بالحجارة ، قال عداس فى عجب :
- محال أن يكون بالرجل شئ من ذلك .
.. ثم أضاف مؤكدا فى ثقة :
- لقد قال لى كلاما لا يعرفه إلا نبى .
فأصابت الرجلين الرعدة من قوله ، وأخذتهما الغيرة مما قال ، فإنه لشىء كريه إلى نفسيهما ، أن يكون هذا الإجتباء من الله ، لغريب بسيط المظهر ، جوال بين البلاد مما يشى بأنه لا مال عنده ، ولا سلطان ؛ قالا ينصحانه فى ترهيب وترغيب:
- ويلك يا عداس ، لا تخدعك كلماته ، فدينك أحسن من دينه .
.. ولكن عداس لم يعرهما التفاتا ، ولا رد على كلامهما ، فإن ما كان فيه من نعمة اللحظة الإيمانية ، أسمى بكثير مما كانا يدعيان كذبا ، ويتطاولان به جهلا .

- ٧ -

.. انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عائدا إلى قريته يتبعه زيد ، وقد أطبق الظلام على الطريق ، وفى أحد الأودية فرش رسول الله بردته واتجه إلى الله تعالى يصلى ، ويرتل القرآن ترتيلا ، فإذا بصوت نشيج وعويل شديدين يسمعان فى ترديد قوى بين جنبات الوادى ، وثار العجب بزيد مما يسمع ، ولكنه لم ينبث بكلمة ، فقد أخذته رعدة شديدة .
وبعد أن انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبادته ، جاءه جبريل وتلا عليه من سورة الأحقاف :
وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)
ولما أخبر النبى زيدا بما جاءه من قرآن ، عجب زيد غاية العجب : أن يكون هذا هو تأثير القرآن على نفر من الجن ، ولا يحدث نفس الأثر عند الإنس .
: ألا ما أبأسك ، وما أتعسك يا أيها الإنسان .
.. حين أضاءت الأرض بنور ربها .
كان الحبيب صلى الله عليه وسلم قد أصبح على مشارف مكة ، وتحت سفح جبل حراء توقف ، فى نفس الموضع الذى كان يصعد منه إلى الغار متعبدا ، وقانتا يطلب العلم من الله ؛ فما كان مستطيعا دخول قريته إلا مستجيرا بحمى أحد كبرائها ، بعد أن قلاه عمه أبو لهب .
أرسل النبى صلى الله عليه وسلم زيدا إلى الأخنس بن شريق مستجيرا ، وجاءه الرد مؤدبا مؤده أن الأخنس مستجير بأهل القرية فهو ليس قرشيا ، بل هو وافد علي مكة مهاجرا من ثقيف ، والمستجير لا يجير .
.. فأرسله إلى سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، فرده معتذرا عن إجابة الرسول إلى طلبه .
قال النبى صلى الله عليه وسلم :
- يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر نبيه .
.. ثم أرسله إلى مطعم بن عدى ، فأقبل إلى المسجد فى أبنائه وقد تسلحوا ، وقام مطعم على راحلته فنادى :
- يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلا يؤذه أحد .

ودخل النبى مكة فى جوار مطعم بن عدى ، فطاف بالكعبة ، وأولاد مطعم يتحلقون بها مظهرين تأهبهم للقتال ، وحين أقبل أبو سفيان ورأى ما يحدث ، أقبل على مطعم قلقا من أن يكون قد دخل فى دين محمد ، وسأله :

- أمجير أم تابع ؟! .

قال مطعم :

- بل مجير .

واطمأنت نفس أبى سفيان ، وقال :

- إذن لا نرد لك جوارا ، وقد أجرنا من أجرت .

وأتم رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافه ، وعاد مع زيد إلى داره .

- ٨ -

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوجه جهده إلى دعوة من يفدون إلى مكة حاجين أو للتجارة ، فيعرض عليهم أمره ، وانتبه كفار قريش إلى ما يسلك رسول الله ، فكانوا لا يكفون عن ترقب الوفود على أبواب مكة ، ويحذروهم من الدين الجديد ، ويتفننون فى إطلاق النعوت الكاذبة على النبى حتى ينفروهم منه .

وكان عمه أبو لهب أشدهم مجافاة لابن أخيه ، فلقد ظل يلاحقه أينما ذهب بين الوافدين : يسئ إليه ، ويتهمه بأنه مجنون لا يدرى ماذا يقول ، وأنه يفرق بين الرجل وزوجه ، وبين الأب وابنه ، ويفسد على قومه حياتهم ، لذلك كثيرا ما حاجت الوفود النبى بكلام عمه قائلين :

- قوم الرجل أعلم به ، ولا نرى أن يصلحنا رجل قد أفسد قومه .

وحين وفد الطفيل بن عمرو الدوسى ، وهو من أنبغ شعراء العرب ، سارع أترابه من القرشيين إلى تحذيره من الاستماع أو الاقتراب من مجلس محمد بالكعبة ، وكان تحذيرهم هو ما حفز نفس الشاعر التواقة إلى الاكتشاف ، لأن تتوثب رغبة فى معرفة الحقيقة ، وتحايل الطفيل على محاولاتهم ، بأن قال لهم يطمئنهم :

- آتونى بقطن أضعه فى أذنى حتى لا أسمعه .

.. ثم تحين الفرصة للاقتراب من مجلس النبى فى الحجر ليسمعه ، فأخذ بروعة ما سمع من القرآن ، ثم تحايل المرة بعد المرة للانفراد بالنبى بعيدا عن عيون قريش ، حتى شاء الله أن يشرح قلبه بالإسلام ، فجلس إلى النبى ، وتلا النبى عليه القرآن ، فما قام من مجلسه إلا وقد أسلم ، بل تاقت نفسه الطيبة لأن يسلم قومه ، فقال للرسول راجيا :

- يا رسول الله إن قومى قد غلبهم حب الزنا ، فأدع الله أن يتوب عليهم ويهديهم للإسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- اللهم اهد دوسا .

وغادر الطفيل مكة إلى أهله مسلما ، وما إن استمعت زوجه وسمع أبوه ما حمل معه من قرآن حتى أسلما ، ثم دخل قومه بعد ذلك فى الإسلام .

.. رغم سخافات أبى لهب ، ظل النبى يقصد تجمعات الوافدين ، يدعوهم إلى الله ورسوله ، ويبين لهم ما بعث من أجله موجزا ومبسطا يقول صلى الله عليه وسلم :

- أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى ، وتمنعونى ، حتى أبين عن ما بعثنى الله به .

فكان يجد من أغلبهم الجفوة ، ويجد من البعض القبول ، ومن البعض الآخر التردد ، مثل ما حدث حين ذهب إلى خيام بنى عامر بن صعصعة ، فلقد عقب بحيرة بن فراس على دعوته قائلا لأهله :

ـ والله إنى لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب .
.. ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا :
ـ أرأيت إن نحن تابعناك على رأيك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ .
قال الصادق الأمين :
ـ الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .
قال بحيرة :
ـ أو نهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا ، والله لا حاجة لنا بأمرك .
وحين عادوا إلى ديارهم ، وقصوا ما حدث لشيخهم ، قال آسفا :
يا بنى عامر هل لها من تلاف ، والذى نفسى بيده ما يقولها إلا واحد من ولد إسماعيل ، وإنها الحق ، فأين كان رأيكم عنه ؟! .

ـ ٩ ـ

قدم سويد بن صامت من بنى عمرو بن عوف من طيبة ، إلى مكة معتمرا ، وعرض عليه رسول الله الإسلام ، فقال له :
ـ فلعل الذى معك ، مثل الذى معى .
قال الرسول صلى الله عليه وسلم :
ـ وما الذى معك ؟ .
قال سويد :
ـ معى وصايا لقمان .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ اعرضها على .
فلما عرضها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ إن هذا لكلام حسن ، معى أفضل منه ، قرآن أنزله الله على هدى ونورا .
وتلا عليه القرآن ، وسويد منصت بكل جوارحه ، فلما انتهى قال سويد :
ـ والله إن هذا لقول حسن .
ثم عاد سويد إلى قومه بطيبة ، ولكن الخزرج قتلوه ، وإن أهله ليقولون إنه مات على الإسلام .
.. سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدم وفد من بنو عبد الأشهل ، وهم من يهود طيبة ، يطلبون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، فذهب إليهم ، وقال لهم :
ـ هل لكم إلى خير مما جئتم له ؟ .
قالوا :
ـ وما ذاك ؟ .
فعرفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته ، ثم تلا عليهم القرآن ، وحين انتهى قال إياس بن معاذ :
ـ أى قوم ، هذا والله خير مما جئنا له .
وينحنى أبو الحيسر أنس بن رافع ، فيغترف التراب من الأرض ويرمى به وجه إياس قائلا :
ـ دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .
فصمت إياس ، وانصرف عنهم النبى .
ولكن نفس إياس لم تنصرف عن الإسلام ، فلقد ظل على الإسلام حتى مات فى عامه ذاك .

ولما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فى موسم الحج ، على ثقيف وهم من أهل الطائف وكان معه أبو بكر وعلى بن أبى طالب ، بدأ أبو بكر τ الحديث متسائلا :

- من القوم ؟ .

أجابه محدثهم وكان اسمه مقروف :

- من شيبان بن ثعلبة .

قال أبو بكر τ :

- كيف العدد فيكم ؟ .

قال مقروف :

- إنا لنزيد على الألف ، ولن تغلب الألف قلة .

قال :

- وكيف المنعة فيكم ؟ .

قال مقروف :

- علينا الجهد ، ولكل قوم طاقة .

قال أبو بكر τ :

- وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟.

قال :

- إنا لأشد لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح .

ثم استطرد مقروف متسائلا :

- لعلك أخو قريش ؟ .

فأشار أبوبكر إلى حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

- إن أخا قريش هو ذا .

قال مقروف :

- بلغنا أنه يذكر شيئا ، فإلام يدعو ؟ .

فتقدم النبى صلى الله عليه وسلم وقال :

- أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تأوونى ، وأن تنصرونى ، حتى أبلغ رسالة ربى ، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ،والله هو الغنى الحميد.

قال مقروف :

- وإلام يدعو دينك يا أخا قريش ؟ .

وقرأ النبى صلى الله عليه وسلم من سورة الأنعام :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)

قال مقروف :

- ما هذا من كلام أهل الأرض ، وإلام تدعو أيضا ؟ .

فتلا النبى صلى الله عليه وسلم من سورة النحل :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)

قال مقروف و قد تهلل وجهه :

ـ دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد افترى من كذبك ، وظاهر عليك ، وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

قال هانئ :

ـ أرى أن ترك ديننا إلى دينك بمجلس جلسته إلينا ، كان قلة نظر فى العواقب ، والزلة مع العجلة ، ووراءنا قوم نكره أن نقرر بدونهم عقدا، ولكن نرجع وننظر، وننتظر، وهذا المثنى بن حارثة شيخنا و صاحب حربنا .

وتحدث المثنى فقال :

ـ لقد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، والجواب ما ذكر هانئ بن قبيصة ، وإن أردت أن نؤويك وننصرك فعلنا ، ولكننا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثا ، ولا نأوى محدثا ، وهذا الأمر الذى تدعونا إليه تكرهه الملوك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ما أسأتم إذ أوضحتم الصدق ،وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع نواحيه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا ويورثكم الله أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، تسبحون الله وتقدسونه .

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة الأحزاب قول الله تعالى :

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧)

وتركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجاء أن يهديهم الله ، إعمالا لمنهجه الذى ينتهج للدعوة ، ويبين فى قوله صلى الله عليه وسلم :

ـ لا أكره أحدا على شئ ، من رضى الذى أدعو إليه فذاك ، ومن كره لم أكرهه ، وإنما أريد منعى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى .

.. كان هذا الاستقبال الطيب من ثقيف حافزا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على متابعة باقى الوفود بالدعوة ، فتخير جمعا ممن وفدوا من طيبة ، واتجه إليهم ومهد لحديثه سائلا :

ـ من القوم ؟ .

قالوا :

ـ نفر من الخزرج .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ موالى اليهود ؟ .

قالوا :

ـ نعم .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ أفلا تجلسون حتى أكلمكم ؟ .

قالوا :

ـ بلى .

فدعاهم إلى الله ، و تلا عليهم القرآن ، فلما انتهى قالوا :

ـ لقد توعدنا اليهود بنبى يبعث ، فيقاتلونا به ، فيهزمونا ببركته ويقتلونا تقتيلا ، فلا نجعل أحدا يسبقنا إليك ، ونحن نصدقك ، و نقبل منك دينك ، ولكننا قد تركنا قومنا ، وليس مثلهم قوم

بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ، وسنقدم عليهم حين عودتنا فندعوهم إلى ما أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك .

فلما عادوا إلى طيبة وقد أسلموا ، دعوا قبائلهم إلى الإسلام فأجابوهم إليه ، ولم تبق دار من دور الخزرج ، أو الأوس بطيبة إلا وفيها من دخل الإسلام .

وفى العام التالى وفد إلى مكة إثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت بيعة العقبة الأولى .

وقد قامت أشراطها على أن : لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصى رسول الله فى معروف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله : إن شاء عذبكم ، وإن شاء غفر لكم .

وحين انتهى موسم الحج ، طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم إلى طيبة ، من يعلمهم ويعلم قومهم أمور دينهم الجديد ، فبعث معهم مصعب بن عمير .

.. وشاء الله أن يدخل الإسلام على يديه كبار قادة الأوس والخزرج .

الفصل السابع : واجتباه ربه

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

سورة الإسراء

- ١ -

المكان : الكعبة .
الوقت : مساء .
اليـوم : الاثنين .
الشهر : رجب .
السنـة : الأخيرة قبل الهجرة .

.. صلى محمد صلى الله عليه وسلم لربه صلاة العشاء ، ثم استغرق فى العبادة ، والتأمل ..

: ترى فيم تفكر يا حبيبى ؟ .

: أتفكر فى أهل مكة الذين تخلوا عن كل قيمهم ، ووجهـوا كل همهـم وكـل همـتهم إلـى مقاتلـة الحق ، إلى الحد الذى جعلك لا تجد من بينهم ـ بعد وفاة عمك أبى طالـب ـ مجيـرا ولا نـصيرا ، إلا بعد تعب وأى تعب ، مع أنك صاحب حق ، وصاحب دعوة هى الحق ، ومـاذا بعـد الحـق إلا الضلال ؟! .

.. ولقد ضـل أهل قريتك التى أحببت ، أضلهم إبليس اللعين عن النور والهدى الذى جاءهم من الله ، وعن كتاب الله المبيـن .

.. وبات الأقـوياء من أهل مكة ومن حولها يطاردونك بالكراهية ، وينبذونك من بينهم ، وأنت يا حبيبى لم تكره أحدا وما كرهت مخلوقا ، فلـم تعـرف نفـسك الطيبـة ظـلا مـن كراهيـة ؛ وقـد أعلمك الله أن الأنبياء والرسل على مـدى عمر البشرية يواجهون بالكراهية والأذى .

: أم تراك قـد أخذك التفكير إلى ما يلاقى أصـحابك مـن تعـذيب وظلـم وهجـرة ، حتـى لتـشق عليهم الحياة ، فتصبح عذاب وابتلاء ؟ .

: ترى أهذا ما كان يستغرق تفكيرك يا حبيبى ؟ .

.. وإنك فى النهاية تخلص إلى عقيدتك الراسخة رسوخ الجبـال ، من كون كـل شـدة تهـون يـا رب ، إذا لم يكن بك سخط على ، أو غضب منى ، لأنك يا حبيبى من الصابرين الـذين قال فيهم رب العزة :

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) سورة البقرة

.. وهـا هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل فى حال الاستغراق، فارتقى ليعيش فى نور الله، ويصير فيضا من النور، حتى لا يدرى عن كيانه البشرى شيئا : أهو دم ولحم وعظم ، أم هو روح تهيم فى ملكوت ربها ؟ .

يقول صلى الله عليه وسلم :

ـ بينما أنا فى الحطيم مضطجعا إذ آتاني آت ، فشـق ما بين هذه إلى هذه ، وأشار إلـى مكـان صدره وسرته : فاستخرج قلبى .

.. ثم جاء جبريل υ إلى رسول الله ، ومعه دابة أبـيض لونهـا ، هـى فـوق الحمـار وهـى دون البغل ، فهى وسط بين هذا وذاك ، ودعا محمدا صلى الله عليه وسـلم لأن يـنهض ، فـنهض ، ثم دعاه لأن يركب البراق ، ففعل ، وانطلقت به الدابة وخطوها عجب عجاب ، فالأرض تطوى لها طيا ، وخطوتها تصل لأبعد ما يدرك البصر ، فكأنها هى البرق لا البراق .

: فسبحان الخلاق العظيم . .
: خلق ما خلق .
: ويخلق مالا تعلمون .

وعند أرض بها نخل توقف البراق وقال له جبريل :

ـ انزل فصل .

وترجل رسول الله ، وصلى ركعتين ، ثم عاد فركب الدابة، وسأله جبريل :

ـ أتدرى بأى أرض صليت ؟ .
قال :
ـ لا .
قال جبريل :
ـ لقد صليت بطيبة و إليها المهجر .
وانطلق البراق ، وما هى إلا لحظات حتى توقف ، وأعاد جبريل على رسول الله ، طلب النزول والصلاة ، ونزل النبى فصلى ، ثم أخبره جبريل أنه صلى بمدين مهبط موسى .
وتكرر الأمر للمرة الثالثة ، ونزل النبى عن البراق وصلى ، ثم أخبر بأنه صلى بطور سيناء حيث كلم الله نبيه موسى تكليما .
.. وفى المرة الرابعة صلى ببيت لحم ، وهى أرض ذات قصور ، حيث ولد نبى الله عيسى υ .

ـ ٢ ـ

.. وبينما البراق يشق الأرض شقا ، إذ بعفريت من الجن يلاحق النبى بشعلة فى يده يريد أن يؤذيه ، ولقد رأى النبى ذلك ، فالتفت يطلب العون من مبعوث السماء ، فقال له جبريل :
ـ ألا أعلمك كلمات تقولهن ، فإذا قلتهن طفئت شعلته .
قال النبى صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم يا آخى يا جبريل .
قال جبريل υ :
ـ قل ، أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما رزأ فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن .
فلما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،انكب العفريت على وجهه ، وانطفأت شعلته .
.. فسبحان الله المعيذ لمن يستعيذ .
ومر البراق بناس يزرعون ويحصدون فور زرعهم، وكلما حصدوا عاد الزرع كما كان، فسأل جبريل عنهم، فقال :
ـ هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شئ فالله يخلفه .
ومست أنف النبى ريح طيبة كأنها المسك ، فسأل جبريل فقال :
ـ هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها ، كانت تمشط شعر سيدتها فوقع المشط من يدها فقالت : بسم الله ، تعس فرعون .
فسألتها ابنة فرعون : أولك رب غير أبى ؟! .
فقالت لها : نعم ، ربى وربك هو الله .
وكانت المرأة متزوجة ، ولها ابنان ، فأرسل فرعون يستدعيها وزوجها ، وأخذ يساومهما للرجوع عن دينهما فأبيا ، فقال فرعون : انى قاتلكما . فرجته المرأة أن يجمع عظامها وعظام زوجها ويدفنهما معا ، فقال فرعون : سوف أجيبك إلى طلبك .
وحين التنفيذ أوقدت النار وحضرت المرأة تحمل رضيعها ، وإلى جانبها يسير ابنها وزوجها ، وألقى الزوج فى النار ، ولما جاء دور الأم نظرت إلى وليدها وتقاعست حنانا عليه ، فإذا بالوليد ينطقه الله فيقول لأمه :
ـ يا أمه قعى ولا تتقاعسى ، فإنك على الحق .

ـ ٣ ـ

.. واستمرت الآيات تترى ..

ليريه ربه من آياته ..

ويعلمه ما لم يكن يعلم .

فمر بأناس تقطع رؤوسهم ، وكلما قطعت عادت كما كانت ، وأعلمه جبريل أن هؤلاء هم الذين تتشاغل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على أناس على إقبالهم وعلى أدبارهم رقاع ، وقال عنهم جبريل إنهم الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئا .

ومن بعدهم مر البراق بأناس وضعت أمامهم قدور بها لحم طيب ناضج ، وأخرى بها لحم نيئ خبيث ، فيتركون اللحم الطيب ، ويأكلون من اللحم الخبيث ، فسأل رسول الله :

ـ ما هذا يا جبريل ؟ .

قال جبريل :

ـ هؤلاء أناس من أمتك تكون عندهم المرأة حلالا طيبا ، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا ، فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى الصباح .

ثم مضى هنيهة، فإذا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، فيها الحياة ترى من خارجها ، كلما نهض أحدهم خر، فيقول : اللهم لا تقم الساعة . وهم على سابلة آل فرعون ، فتجئ السابلة فتطؤهم ، فيضجون إلى الله تعالى .

فقال رسول الله :

ـ يا جبريل من هؤلاء ؟ .

قال جبريل :

ـ هؤلاء من أمتك " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ ." سورة البقرة

.. وبعد هنيهة إذا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، فتفتح أفواههم ويلقمون من صخر جهنم ، ثم يخرج من سافلهم ، وسمعهم يضجون إلى الله تعالى ، وسأل رسول الله .

فقال جبريل :

ـ هؤلاء " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) سورة النساء

ومن بعدهم مر على نساء معلقات بأثدائهن ، ونساء منكسات بأرجلهن ، وسمعهن يضججن إلى الله تعالى ، وأعلمه جبريل بأنهن اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن .

.. ومضى هنيهة فإذا بقوم يقطع اللحم من جنوبهم فيلقمونه ، ويقال للواحد منهم :

ـ كل كما كنت تأكل من لحم أخيك .

فقال :

ـ من هؤلاء يا جبريل .

قال :

ـ هؤلاء الهمازون اللمازون .

ثم أتى على خشبة بالطريق لا يمر بها ثوب ولا شئ إلا خرقته ، فلما سأل ، قال له جبريل :

ـ هؤلاء مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، وتلا : " وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ـ سورة الأعراف

ورأى رسول الله ، رجلا يسبح فى نهر من الدم ، ويلقم الحجارة ، وأعلمه جبريل بأن هذا هو آكل الربا .
ثم رأى رجـلا قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها ، ولما سأل ، قيل : إن هذا الرجل عنده أمانات الناس لا يستطيع أداءها ، ويريد أن يزيد عليها .
ومرا بعدها على قوم تقرض ألسنتهم بمقارض من حديد ، وكلما قرضت عادت ، قال رسول الله :
ـ من هؤلاء ؟ .
قال جبريل :
ـ هم خطباء الفتنة من أمتك يقولون مالا يفعلون .
ثم أتيا على قوم لهم أظافر من نحاس ، يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، وقال جبريل :
ـ هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم .
وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، ثم أخذ الثور يريد العودة من حيث أتى فلا يستطيع ، وقال جبريل عنه :
ـ انه الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ويريد أن يرجع عنها، فلا يستطيع ردها .

ـ ٤ ـ

وسمع صوت آت من واد تفوح منه ريح طيبة باردة أحسن من ريح المسك ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال جبريل :
ـ هذا صوت الجنة تقول .. يا رب إيتنى بما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى وإستبرقى وحريرى وسندسى وعبقرى ، ولؤلئى ومرجانى ، وفضتى وذهبى ، وأكوابى وصحافى ، وأباريقى ومراكبى ، وعسلى ومائى ، ولبنى وخمرى .
قال نعالى : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحا ، ولم يشرك بى ، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ، ومن توكل على كفيته ، أنى أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن
الخالقين . قالت الجنة :
قد رضيت .
وأتى على واد ثان فسمع صوتا منكرا ، ووجد ريحا منتنة ، فسأل رسول الله :
ـ ما هذا يا جبريل ؟ ! .
قال جبريل :
ـ هذا صوت جهنم ، تقول : يا رب إيتنى بما وعدتنى ، فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى ، وحميمى وضريعى وحمامى وغساقى وعذابى ، وقد بعد قعرى واشتد حرى ، فآتنى بما وعدتنى . فيقول الله : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ؛ قالت النار : قد رضيت .

ـ ٥ ـ

رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، الدجال أقمر هجان ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى ، وكأن شعر رأسه أغصان شجرة ، ثم رأى عامدا أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة ، فلما سأل :
ـ ما تحملون ؟ .
قالوا :

ـ عمود الإسلام ، أمرنا أن نضعه بالشام .
وبينما البراق يسير دعا النبى داع عن يمينه يقول :
ـ يا محمد ، انظرنى أسألك .
فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سأل :
ـ من هذا يا آخى يا جبريل ؟ .
أجاب جبريل υ :
ـ هذا داعى اليهود ، أما انك لو أجبته لتهودت أمتك .
ثم ما لبث أن دعاه داع عن شماله :
ـ يا محمد ، انظرنى أسألك .
فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سأل :
ـ من هذا يا جبريل ؟ .
قال جبريل :
ـ أنه داعى النصارى ، ولو أجبته لتنصرت أمتك .
.. ثم إذ بامرأة حاسرة عن ذراعها ، وعليها من كل زينة خلقها الله سبحانه وتعالى ، فقالت :
ـ يا محمد ، انظرنى أسألك .
فلم يجبها ، ثم قال :
ـ ومن هذه يا جبريل ؟! .
قال جبريل :
ـ تلك الدنيا ، أما إنك لو أجبتها ،لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .
وبعدها ظهر رجل متنح عن الطريق يدعوه :
ـ هلم يا محمد .
فلم يلتفت إليه وتقدم فى طريقه ، وأعلمه جبريل أن ذاك الرجل هو إبليس عدو الله أرادك أن تميل إليه .

ـ ٦ ـ

.. ولما وصلا إلى بيت المقدس دخلاه من بابه اليمانى ، وإذا عن يمين المسجد الأقصى ، وعن يساره نوران ساطعان ، فقال رسول الله متسائلا :
ـ ما هذان النوران يا جبريل ؟ .
قال جبريل :
ـ أما الذى عن يمينك فإنه محراب أخيك داود ، وأما الذى عن يسارك فعلى قبر أختك مريم .
.. ودخل رسول الله المسجد من باب تميل منه الشمس والقمر ، وعند الصخرة سأل جبريل محمدا صلى الله عليه وسلم :
ـ هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ .
قال رسول الله :
ـ نعم .
فأشار جبريل إلى جانب من الصخرة ، وقال :
ـ فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن ، وهن جلوس عن يسار الصخرة .
فسلم رسول الله عليهن ، ثم سألهن عن كينونتهن ، فقلن :
ـ خيرات حسان ، نساء رجال أبرار ، نقوا فلم يدرنوا وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا .

ثم صلى النبى فى المسجد منفردا ركعتين ، وصلى جبريل منفردا ركعتين ، ولم يلبثا إلا قليلا ، ثم توافد ناس كثيرون ، ثم أذن مؤذن، فتدافعوا حتى قدموا محمدا ليصلى بهم ، فصلى بهم، فلما ختمت الصلاة، قال جبريل :

ـ أعلمت من صلي خلفك ؟ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ لا .

قال جبريل :

ـ كل نبى بعثه الله .

ثم بدأ الأنبياء فى الثناء على ربهم ، فقال إبراهيم υ :

ـ الحمد لله الذى اتخذنى خليلا، وأعطانى ملكا عظيما ، وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى ، وأنقذنى من النار ، وجعلها على بردا وسلاما .

.. وأثنى موسى υ على ربه ، فقال :

ـ الحمد لله الذى كلمنى تكليما ، وجعل هلاك فرعون ، ونجاة بنى إسرائيل على يدى ، وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون .

.. ثم أثنى داود υ على ربه ، فقال :

ـ الحمد لله الذى جعل لى ملكا عظيما ، وعلمنى الزبور ، وألان لى الحديد ، وسخر لى الجبال يسبحن والطير ، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

.. وأثنى سليمان υ على ربه ، فقال :

ـ الحمد لله الذى سخر لى الرياح ، وسخر لى الشياطين والإنس ، يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وعلمنى منطق الطير ، وآتانى من كل شئ فضلا ، وسخر لى جنود الشياطين ، والإنس والطير ، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعدى ، وجعل ملكى ملكا طيبا ليس فيه حساب ولا عقاب .

.. وأثنى عيسى بن مريم υ على ربه ، وقال :

ـ الحمد لله الذى جعلنى كلمته ، وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، ورفعنى وطهرنى ، وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ولم يكن للشيطان علينا سبيل .

.. فقال محمد صلى الله عليه وسلم :

ـ كلكم أثنى على ربه ، و إنى مثن على ربى .. الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شئ ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ،وجعل أمتى وسطا ، وجعل أمتى هم الأولون والآخرون ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحا وخاتما .

فقال إبراهيم υ :

ـ بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم .

.. وحين اجتمعوا على حديث تذاكروا أمر الساعة ، فقال إبراهيم υ :

ـ لا علم لى بها .

وقال موسى υ ، مثل ما قال إبراهيم υ ، ثم قال عيسى υ :

ـ أما وجبتها فلا يعلمها إلا الله ، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج ، وأنى خارج ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، فيهلكه الله تعالى ومن معه ، حتى أن الحجر ليقول : يا مسلم ، إن تحتى كافرا فتعال فاقتله ، فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم ، فعند

ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون البلاد ، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ؛ ثم يرجع الناس فيشكونهم إلى ، فأدعو الله تعالى عليهم ، فيهلكهم ويميتهم حتى تحوى الأرض من ريحهم ، فينزل الله المطر ، فيجرف أجسادهم إلى البحر ؛ ففيما عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولادتها ليلا أو نهارا .

- ٧ -

.. ثم أتى بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم إلى جنة الفردوس : منضد باللؤلؤ ، له مرقاة من ذهب ، ومرقاة من فضة ، عن يمينه ملائكة ، وعن يساره ملائكة ، فصعد رسول الله وجبريل حتى انتهيا إلى باب الحفظة ، وهو من أبواب السماء الدنيا فاستفتح جبريل ، قيل :
- من هذا ؟ .
قال :
- جبريل .
قيل :
- ومن معك ؟ .
قال :
- محمد .
قيل :
- وقد أرسل إليه ؟ .
قال :
- نعم .
قيل :
- مرحبا به، ولنعم المجىء جاء .
فلما خلصا، فإذا فيها آدم υ كهيأته يوم خلقه الله، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول : روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها فى عليين؛ ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول : روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها فى سجين .
وكان عن يمينه أسوده وباب تخرج منه ريح طيبة، وعن شماله أسوده وباب تخرج منه ريح خبيثة؛ فإذا نظر عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر عن شماله حزن وبكى .
فسلم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عليه السلام ، ثم قال :
- مرحبا بالابن الصالح، وبالنبى الصالح .
فقال رسول الله :
- من هذا يا جبريل، وما هذه الأسودة التى عن يمينه، والتى عن يساره ؟ .
قال جبريل :
- هذا أبوك آدم، وهذه الأسودة نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، وأهل الشمال منهم أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة، إذا نظر من يدخله من بنيه ضحك واستبشر، والباب الذى عن شماله باب جهنم، إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن .
ثم صعدا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فسأل عمن معه فأخبرهم، فرحب به الحفظة، بمثل ترحيب من قبلهم، وفتح لهما، فلما خلصا، فإذا بابنى الخالة : عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، عليهما السلام، شبيه أحدهما بصاحبه : ثيابهما وشعرهما، ومعهما نفر من قومهما .
فسلم عليهما رسول الله ، فردا السلام، ثم قالا :

ـ مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .
.. ودعوا له بالخير .
ثم صعدا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، وكان مثل ما حدث عند الاستفتاح فى السماءين، ولما خلصا، فإذا بيوسف υ ومعه نفر من قومه، فسلم عليه فرد السلام، ثم قال بمثل ما قال عيسى ، ودعا بمثل ما دعا .
وفى السماء الرابعة التقى بإدريس υ ، وقد رفعه الله مكانا عليا، فسلم رسول الله عليه، ورد عليه سلامه، ثم دعا له .
وفى السماء الخامسة التقى بهارون بن عمران υ ، وحوله قوم من بنى إسرائيل، وسلم عليه رسول الله، ورد عليه بمثل سابقه .

ثم صعدا إلى السماء السادسة ..
فلما خلصا فإذا بموسى بن عمران υ ، رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة، كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفد الشعر دونهما، فسلم عليه رسول الله، فرد عليه السلام ثم رحب به ودعا له، وقال :
ـ يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله منى .
فلما جاوزه النبى بكى موسى، فقيل له :
ـ ما يبكيك ؟ .
قال :
ـ يا ربى هذا الغلام الذى بعث بعدى، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتى .
ثم جعل رسول الله يمر، والنبيون معهم الرهط ..
والنبى والنبيون معهم القوم ..
والنبى والنبيون ليس معهم أحد .
.. ثم مر رسول الله بواد عظيم، قد سد الأفق من هذا الجانب، ومن ذا الجانب، فقيل له : هؤلاء أمتك ، يدخل منها الجنة سبعون ألفا بغير حساب .

ـ ٨ ـ

فلما انتهيا إلى السماء السابعة رأى فوقه رعدا وبرقا وصواعق، فاستفتح جبريل، ففتح له بعد أن سأل عمن معه، وسمع النبى صلى الله عليه وسلم تسبيحا فى السماوات العلا، مع تسبيح كثير يتردد من أصل الموجودات قائلة :
ـ سبحت السماوات من ذى المهابة مشفقات : " سبحان العلى الأعلى ، سبحانه وتعالى " .
ولما خلصا، إذا بإبراهيم υ جالس عند باب الجنة على كرسى مسندا ظهره إلى البيت المعمور، ومعه نفر من قومه، وحياه رسول الله .
فقال إبراهيم :
ـ مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح .
ثم قال لرسول الله :
ـ مر أمتك ، فليكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة، وأرضها واسعة .
فسأله رسول الله :
ـ وما غرس الجنة ؟ .
قال أبو الأنبياء إبراهيم :
ـ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والله أكبر .

ولحظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الناس الجلوس حول إبراهيم υ بعضهم بيض الوجوه مثل القراطيس لا يشوب لون وجوههم شئ، وبعضهم شاب لون وجوههم شئ، فقاموا ودخلوا أنهارا فاغتسلوا فيها، فخرجوا وقد خلصت ألوانها فصارت مثل إخوانهم، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم .

فقال رسول الله :

- يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه، ومن هؤلاء الذين فى ألوانها شئ، وما هذه الأنهار التى دخلوها ؟.

فقال جبريل :

- أما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، وأما هؤلاء الذين فى ألوانها شئ فقوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم ، وأما هذه الأنهار فأولها : رحمة الله ، والثانى : نعمة الله ، والثالث : "* وسقاهم ربهم شرابا طهورا ."

ثم رفع إلى البيت المعمور ..

وقيل للنبى هذا مكانك ومكان أمتك ؛ وإذا بأمته شطرين :

شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس .

وشطر عليهم ثياب رمد .

فدخل النبى البيت المعمور ، ودخل معه من أمته الذين عليهم الثياب الرمد وهم فى خير ، فصلى ومن معه من المؤمنين ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

.. ولما انتهى النبى من صلاته خرج ومن معه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- " مررت ليلة أسرى بى على الملأ الأعلى فإذا جبريل كالحلس البالى من خشية الله ".

.. ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سدرت المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرض من الأرض فيقبض منها ، وإليها ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها ، وإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، تكاد الورقة منه تغطى هذه الأمة .

.. وقيل للنبى :

- هذه سدرت المنتهى ينتهى إليها كل أحد من أمتك خلا على سبيلك .

وإذا فى أصلها عين تجرى يقال لها السلسبيل، ينشق منها نهران : أحدهما الكوثر، يطرد عجاجا مثل السهم، عليه خيام من لؤلؤ وياقوت وزبرجد، وعليه طيور خضر أنعم طير، رأى فيه آنية الذهب والفضة، تجرى على رضراض من الياقوت والزبرجد، ماؤه أشد بياضا من اللبن، فأخذ النبى آنية فاغترف وشرب، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد ريحا من المسك .

قال جبريل :

- هذا هو النهر الذى حباك به ربك ، والنهر الآخر نهر الرحمة .

فاغتسل فيه النبى ، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

.. ولما اقترب النبى من الجنة ، فإذا فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فرأى على بابها مكتوبا :

" الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ".

فسأل رسول الله عن السبب ، فقال جبريل :

- لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يسأل إلا من حاجة .

واستقبلته جارية فسألها :

ـ لمن أنت ؟ .
قالت :
ـ لزيد بن حارثة .
ورأى الجنة درة بيضاء و فيها قبب من اللؤلؤ ، فقال :
ـ يا جبريل ، إنهم يسألوننى عن الجنة ؟ .
فقال جبريل :
ـ أخبرهم أنها قيعان ترابها المسك .
وهنا سمع خارجها وجسا ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ يا جبريل ما هذا ؟ .
قال جبريل :
ـ بلال المؤذن .
.. وسار النبى فإذا هو فى الجنة ، وبها أنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى، وإذا رمانها كالدلاء، وإذا بطيرها كالبخاتى، وبينما هو يسير بنهر على حفتيه الدر المجوف، وطينه مسك أزفر، قال جبريل :
ـ هو الكوثر .. وهذا ما وعد به الله عباده المؤمنين .
.. ثم عرضت عليه النار التى وعد الله بها الكافرين والمشركين؛ فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، ولو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها .
ورأى مالك خازن النار، فإذا هو رجل عابس يعرف الغضب فى وجهه، فبدأ رسول الله السلام صلى الله عليه وسلم ، ثم غلقت النار دونه، وتجسد قول الله جل وعلا :
" * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) سورة الزخرف
.. ثم رفع إلى سدرت المنتهى ، فغشيها من أنوار الخلائق و أنوار الملائكة أمثال الغربان يقض على الشجرة ، و ينزل على كل ورقة ملك من الملائكة ، فغشيها سحابة من كل لون ـ وفى حديث ـ أن جبريل قال للنبى :
ـ إن ربك يسبح .
قال رسول الله :
ـ وما يقول ؟ .
قال جبريل :
ـ " رحمتى سبقت غضبى ".

ـ ٩ ـ

.. تأخر جبريل عن رسول الله ، فقال له يستحثه :
ـ تقدم يا أخى يا جبريل .
قال جبريل :
ـ لكل مخلوق مقام، وأنا لو تقدمت لاحترقت، وأنت لو تقدمت لاخترقت .
.. ثم عرج بالنبى حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام، ورأى رجلا مغيبا فى نور العرش، وأعلم أنه ليس بملك، ولا نبى، بل هو رجل من أمته كان فى الدنيا لسانه رطبا من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم ينتسب لوالديه قط .
وأرى نور ربه سبحانه وتعالى .
فخر ساجدا ..
وسلم ساجدا ..
وكلمه ربه عند ذلك ، فقال له سبحانه وتعالى : " يا محمد "

قال عبد الله محمد :
ـ لبيك يا رب .
قال تجلت قدرته وعظمته : " سل "
قال :
ـ إنك رب اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما ، وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح ، وأعطيته ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما من سبيل .
فقال الله الحكم العدل الرحمن الرحيم :" قد اتخذتك حبيبا ، وأرسلتك للناس كافة بشيرا ونذيرا ، و شرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، لا أذكر إلا وذكرت معى ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون ، وجعلت أمتك لا يجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقا وأخرهم بعثا ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعا من المثانى لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك الكوثر ، وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد ، والصدقة ، وصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وأنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك الصلوات الخمسة، فقم بها أنت وأمتك .
.. ثم انجلت السحابة .
.. وأخذ بيده جبريل .
فانصرفا سريعا .
.. وركب النبى منصرفا إلى سماء الدنيا ، فرأى دخانا فسأل :
ـ ما هذا يا آخى يا جبريل ؟ .
فقال جبريل :
ـ هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم ممن لا يتفكرون فى ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذلك الانشغال لرأوا عجبا .
ومر البراق فى طريق العودة لمكة ، بعير لقريش منها جمل عليه غرارتان واحدة بيضاء والأخرى سوداء ، فلما حاذى العير البراق نفرت واستدارت تريد الفرار ، فردها ركابها ، وصرخ البعير حامل الغرارتين فلقد انكسرت ساقه ، ثم مر بقافلة قد ضل منها بعير ، فسلم النبى على أهلها فسمعوه ، قال بعضهم :
ـ هذا صوت محمد .

ـ ١٠ ـ

.. حين أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلس يتفكر بجانب الكعبة يستعيد ما أورى ، وهو مهموم كراهية أن لا تصدقه صحابته ، فمر عليه أبو جهل ، وأسعده الحال التى رأى النبى عليها ، فراح يتظاهر بالتودد إليه ، راغبا فى أن يعلم بما أهمه ليفرح وتبرد نار كراهيته قليلا بخبر يسوء محمدا .
قال له شامتا وقد تسترت عباراته فى نفاق كريه :
ـ هل كان من شئ ؟ .
قال محمد صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم .
قال أبو جهل :

ـ ما هو ؟ .
قال محمد صلى الله عليه وسلم :
ـ أسرى بى الليلة .
قال أبو جهل :
ـ إلى أين ؟ .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ إلى بيت المقدس .
تحركت الأفعى بعنف تستجمع سمها ، ثم نفثته بقوة :
ـ أكنت ببيت المقدس عشية ، ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟!.
قال الصادق صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم .
التفت الأفعى حول الفريسة ، ورفعت رأسها وكشرت عن أنيابها متسائلة ، والرغبة فى العقر تلهب حماسها فيتناثر السم من شدقيها :
ـ أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟ .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم افعل .
اندفعت الأفعى قافزة تنفث السم ، تنادى :
ـ هلم يا معشر بنى كعب بن لؤى .
فانفضت مجالس قريش ، وتجمعت حولهما ، فقالت الأفعى لرسول الله ، والسم يتناثر مع كلماتها ، وقد أخذتها شهوة القتل :
ـ حدث قومك بما حدثتنى .
وحدثهم رسول الله بما حدث ، فتصايح القوم غير مصدقين ، وقال المطعم بن عدى :
ـ كل أمرك قبل اليوم كان يسيرا ، غير قولك اليوم ؛ أنا أشهد أنك لكاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدا شهرا ومنحدرا شهرا ، أتدعى أنت أنك أتيته فى ليلة ، واللات والعزى لا أصدقك .
فقال أبو بكر الصديق τ لمطعم :
ـ بئس ما قلت لابن أخيك ، جبهته وكذبته ، أما أنا فأشهد أنه صادق .
.. ورفعت الأفعى رأسها وتمايلت فى سرور ، فأبو جهل يعرف أن محمدا ما سافر قط إلى بيت المقدس ، فقال له فى تحد :
ـ إذن صف لنا بيت المقدس ، كيف كان بناؤه ، وكيف كانت هيئته ، وكيف كان قربه من الجبل ؟ .
وكان من بين القوم من سافر إلى هناك ، ورأى المكان وعاين تفاصيله ، وبدأ رسول الله يصف البناء ، وهم يلاحقونه بالأسئلة ، حتى بات الأمر ملتبسا عليه ، واستجمعت الأفعى السم فى أنيابها ، فها قد حان وقت اللدغ .
.. ولكن إن كان أهل محمد خاذليه ، فإن رب العالمين لا يخذله فى أمر هو الصدق بعينه ، ونقل القادر بقدرته بيت المقدس إلى رسوله ، فصار ينظر إليه ويجيب القوم ، فلا يترك أنملة إلا ووصفها ، والصديق أبو بكر τ يكبر مؤمنا على كل حرف يقوله ، والأفعى تتقلص وتتثنى غيظا وكمدا ، وحين انتهت المناظرة ، أقر له القوم فقالوا :
ـ أما النعت فوالله لقد أصاب .
.. وسارعت الأفعى بالدخول إلى جحرها ، ولكنها عادت تطل ومعها مزيد من الأفاعى ، فلعل الكثرة توقع بالفريسة ، وطلب المتحلقون المزيد من البراهين ، فقالوا :

ـ يا محمد أخبرنا عن عيرنا التى خرجت إلى هناك ؟ .
قال النبى :
ـ مررت بعير حالها كذا وكذا ..
.. وأخذ يصف لهم ما رأى العير عليه ، وهو فى طريق عودته ، ثم أضاف :
ـ وها هى ذى سوف تطلع عليكم من الثنية .
وتدافعت الأفاعى إلى طريق الجبل تنظر فلا ترى شيئا ، فتتمايل فى نشوة ، وتمر الساعات ، ويقبل الليل ، ويعلو الفحيح ، وينسى القوم كل ما قال النبى وصدقوه فيه من وصف للمسجد الأقصى ، وما قدم من دلائل على صدق إسرائه ، وراحوا يهزؤون بقوله ، ويكذبونه فى كل ما ذكر؛ ولكن ها هو ذا خطو العير يهز الأرض من تحت أرجلهم هزا ، فتهتز اتهاماتهم ، وترتعش كلماتهم ، وتخفت أصواتهم ، ثم ها هى ذى رائحة التراب تزكم أنوفهم ، وتنتشر فتسود وجوههم ؛ ومن الثنية تظهر قوافلهم العائدة ، وتطأ البعير بخفافها الأفاعى التى أذهلتها المفاجأة فتخشبت فى أماكنها مشدوهة ، وقد استغرقتها المفاجأة ، ثم لا تكتفى بما ترى ، فتنطلق إلى الركب العائد تتحرى ، وتتقصى وتدقق ؛ فإذا بما قال الرسول صدق من صدق .
وفحت الأفاعى وهى تلهث باحثة عن مفر :
ـ إنه لساحر ، وصدق الوليد !! .
: سبحانك ربى ..
: أى عمى هذا الذى أصاب منهم القلوب قبل العيون ، فصاروا لا يبصرون ، ولا يسمعون ، ولا يعقلون ؟! .
.. ألا بعدا للقوم الكافرين .
وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تحوط حوله من بقى بمكة من صحابته ، يسبحون لله ويكبرون .
وأراد الله أن يثبت فؤاد نبيه صلى الله عليه وسلم ، فجاءه جبريل υ وأقرأه سورة النجم :
وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١)مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢)وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(٣)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤)عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥)ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦)وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(٧)ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩)فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠)مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(١١)أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى(١٢)وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤)عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥)إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦)مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(١٧)لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(١٨)
فى الصباح ..
اجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحابته ، قرأ عليهم ما نزل عليه من سورة النجم ، وحين انتهى الرسول إلى ختام السورة قارئا قول الله تعالى :
هَذَا نَذِيرٌ مِنْ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتْ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩)وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا(٦٢)
.. خر الصحابة على وجوههم ساجدين لله ، وقد سال الدمع من العيون مدرارا يغسل الأبدان والنفوس ، ويثبت اليقين ، ويملأ القلوب أملا فى أن تدركها رحمة الله ، فيكوا أصحابها من ورثة جنات النعيم .

الفصل الثامن : **التآمر للقتل**

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

سورة الأنفال

.. وكأنما كانت رحلة الإسراء والمعراج هى إشراق النور والانفراج الكبير للدعوة ، فبعد شهور قلائل ، ومع حلول موسم الحج .

خرج من طيبة وفد من سبعين رجلا وامرأتين من نسائهم ممن أسلموا مع ، قومهم قاصدين مكة ، يتقدمهم كبيرهم البراء بن معرور، وكانوا قد أوفدوا رسولا سبقهم تواعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يلقوه بالعقبة ليلا.

وحين الموعد ..

تسللوا من مضارب خيامهم متخفين فى الظلام إلى حيث أرض الموعد ، وهناك وجدوا رسول الله ، ومعه عمه العباس ، وهو بعد لم يدخل الإسلام ، لكنه جاء مع ابن أخيه نصرة لرابطة الدم وتأمينا له من خيانة قد يكون أهل مكة قد دبروها ، أو غدر ينتويه أعداؤه من اليهود فى طيبة ، وكان العباس ممن يترددون على ديار القوم يعرفهم ، ويعرفونه ، فلما اطمأن إلى القوم ، وقف فيهم خطيبا ، قال :

- يا معشر الأوس والخزرج ، إن محمدا منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، وهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، و إنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه .

قال البراء فى حب ، مستحثا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى غاية الشوق للاستماع إليه :

- قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لربك ولنفسك ما أحببت .

تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فحمد الله ..

وتلا القرآن ..

ورغب فى الإسلام ..

.. ثم قال :

- أبايعكم على أن تمنعونى ، مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى حماسة المخلصين :

- والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع منه إزارنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل حرب ، وأهل السلاح ، ورثناها كابر عن كابر. .

.. وأضاف أبو الهيثم بن التيهان متسائلا :

- يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا إن قطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

- بل الدم الدم ، الهدم الهدم ، بل أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

ثم طلب النبى صلى الله عليه وسلم أن يتخيروا من بينهم اثنى عشر نقيبا ، فانتخبوا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين عيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

قالوا :

- نعم .

.. ونهض من بينهم " العباس بن عمر الخزرجى " يؤكد البيعة ، ويشحذ الهمم فقال :
ـ يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ، إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنه فيما إذا أنهكت أموالكم ، أو إذا قتلت أشرافكم مصيبة فأسلمتموه ، فمن الآن فهو والله خزى الدنيا والآخرة إن فعلتم ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه : على نهكة أموالكم ، وقتل أشرافكم فى سبيل الله ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .
قالوا :
ـ نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ .
قال نبى الله :
ـ الجنة .
قالوا :
ـ ابسط يدك .
.. فبسط رسول الله يده ، فضربوا بأيديهم مجمعين فبايعوه .
وهنا سمع من رأس العقبة صوت الشيطان يصرخ فى لوعة مستعديا قريشا ، يوقظ أنصاره من نومهم ، وينبههم إلى ما يحدق بهم من خطر نصرة الحق ، وزوال دولته ، قائلا :
ـ يا أهل الديار ، هل لكم فى مذمم والصبأة معه ، قد اجتمعوا على حربكم .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ هذا شيطان العقبة ، أما والله لأفرغن له .
ثم التفت إلى الخزرج قائلا :
ـ تفرقوا إلى رحالكم .
قال العباس بن عباده :
ـ والذى بعثك بالحق ، لئن شئت لنميلن غدا على أهل منى فنأخذهم بأسيافنا .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ لم نؤمر بذلك .
وتفرق القوم إلى مضارب خيامهم ، كما أمرهم رسول الله .

ـ ٢ ـ

فلما كان الصباح ..
برزت جماعات من قريش إلى مضاجع الخزرج قائلين :
ـ يا معشر الخزرج ، إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى محمد تستخرجونه من بين ظهرانينا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .
فإذا بالمشركين من الخزرج قد انبروا يقسمون بأن شيئا من هذا لم يحدث ، وأنهم قد باتوا ليلتهم فما وفد عليهم غريب قط ، ولقد صدقوا فيما قالوا ، فما علموا بشىء مما كان بين المسلمين من قومهم ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .
لم يصدق القرشيون ما قيل ، فلقد وسوس الشيطان لهم بما تم من عهد واتفاق ، آلم إبليس غاية الإيلام ، وأزعجه كأشد ما يكون الإزعاج ، وهم يصدقون إبليس ولا يصدقون غيره ، فراحوا فى إصرار يبحثون ويستقصون وينقبون ويتسمعون ، إلى أن استيقنوا فى النهاية من أن الأمر قد تم ، وأن الأوس والخزرج قد بايعت محمدا صلى الله عليه وسلم .

.. ولكن قبل أن يتيقنوا من شكوكهم ، كان أهل طيبة قد انفضوا عائدين إلى ديارهم جماعات وأفرادا ، بعد أن حث من أسلم منهم الآخرين على الإسراع بالرحيل حتى يفوتوا على القرشيين حصرهم .
ولما تنافرت قريش إلى مضارب خيام حجاج طيبة ، وجدوا مكان خيامهم قفرا ، وأدركوا أن أنصار محمد قد خدعوهم وغادروهم ، فخرجوا إلى الصحراء يطلبونهم ، فلم يدركوا منهم غير " سعد بن عبادة " فتكاثروا عليه وأوثقوه وعادوا به إلى مكة ، وراحوا يتبادلون إيذاءه ، حتى لقد أشفق عليه رجل منهم لشدة ما أصابه من أذى ، فمال عليه يستحثه لكى يبحث عن طريق للنجاة قائلا :

- ويحك ، أما كان بينك و بين أحد من قريش جوار ولا عهد .

قال سعد :

- بلى والله لقد كنت أجيز تجارة لجبير بن مطعم بن عبد مناف ، وللحارث بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكنت أمنعهما ممن أراد ظلمهما ببلادى .

قال الرجل :

- ويحك فاصرخ باسم الرجلين ، وما كنت فاعلا لهما .

فنادى سعد باسم الرجلين ، وأسرع الرجل الذى نصحه يبحث عنهما فى أنحاء مكة ، حتى وجدهما بالمسجد عند الكعبة ، فأخبرهما بأن رجلا يضرب ، ويهتف بهما لما كان بينهما وبينه من جوار ، فأسرعا إلى سعد وأجاراه ، فانطلق عائدا إلى طيبة ، بعد أن أصابه من الأذى الكثير .

- ٣ -

أضرمت العقبة الثانية النار التى بدا على السطح وكأنها لن تتوهج ثانية ، بين مشركى قريش ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، فلقد رأى القرشيون فى دخول أهل طيبة من أوس وخزرج فى دين محمد ، بكل تلك الأعداد الكبيرة ، وهم أهل حرب ، نذير شئوم يؤكد أن محمدا صلى الله عليه وسلم إذا ما هاجر إليهم ، سوف يفد لقتالهم والانتصار عليهم ، وإذلال أعناقهم ، وقطع أوتانهم ، فينقص بذلك من قدرهم ، ويدس أنوفهم فى التراب ، ويهزم إرادتهم التى ارتضوها : فكيف لمحمد وهو اليتيم ، الباحث عن مجير منذ ولد : أن تكون له الريادة على قريش مجتمعة فيصبح : آمرهم ، وحاكمهم ، وصاحب الكلمة فيهم ؟! ؛ وكيف له وهو فرد ، أن ينتصر وحده على جمعهم، وقد اتفقوا على كراهيته وكراهية ما يبشر به ؟! ؛ وكيف قبل هذا وبعده ، أن يتساووا مع عبيدهم والمستضعفين من مواليهم ، فتتدنى هيبتهم وتضيع عزتهم ، وهم السادة المكرمون ؟!.

- ٤ -

.. شدد مشركو مكة حراستهم لمداخل قريتهم ، فقد توجسوا من هجرة من بقى من أصحاب محمد ، ثم زادوا من إيذائهم لصحابته ، وهو ما دفعهم إلى أن يشكو لرسول اللهصلى الله عليه وسلم قسوة ما يلاقون من إيذاء بالقول والفعل ، وطلبوا منه أن يأذن لهم بالهجرة ، ووعدهم رسول الله بأن يدعو الله تعالى ، أن يكشف له مكان هجرتهم ، وبعد أيام خرج عليهم قائلا :

- لقد أخبرت بدار هجرتكم وهى طيبة ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها .

وتسللت كثرة من الصحابة فى غفلة من القرشيين ، وشقوا طريقهم فرادى إلى طيبة ، وهم واثقون من كونهم سيجدون عند من أعطوا رسول الله البيعة من الأنصار : أمنهم وراحتهم .
وقد نجح أكثر من حاولوا هجر مشركى مكة فى الخروج من بينهم ، وفشلت قلة منهم ، وأعيدوا إلى قريتهم ، مهانين مكبلين بالأغلال .

.. أما عمر بن الخطاب ، فلقد تمنطق سيفه ورمحه وجهز نبله واتجه إلى الكعبة ، فاستلم الحجر الأسود وطاف سبعا ، ثم صلى فى الحجر ، وبعدها وقف مواجها جموع المشركين وجلجل صوته فى قوة وتحد ، قائلا :

ـ شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه الأنوف ، من أراد أن يثكل أمه ، أو يؤتم ولده ، أو يرمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى .

.. وشق عمر طريقه مهاجرا رغم أنوف المشركين ، وخرج من مكة نهارا جهارا .

.. وأما أبو بكر τ ، فهو وحده من أعيد مكرما مجارا ، وهو راغب عن البقاء فى ذلك الجو الخانق الكريه ، ولكنه غير ناقم على من أعاده ، فما كان واجدا راحته فى أى مكان مهما بلغت درجات الأمن به ، وكيف له أن يجد الراحة والحبيب محمد غير آمن ؟!! .

وحين جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له باسما ومسحة من الألم تغلف ملامحه الشريفة :

ـ لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحبا .

.. وتمنى أبو بكر على الله أن يكون الحبيب هو صاحبه فى هجرته إلى طيبة ، وبادر فأعد للأمر عدته فاشترى راحلتين لتحملهما فى رحلة الخروج ، واهتم بإطعامهما ، وجهز الزاد ، وبعد حين اتفق مع عبد الله بن أريقط ، على أن يكون دليله ، ثم دفع بالراحلتين إليه ، وتعاهد معه على كتمان الأمر ، على أن يخبره بالموعد حين يؤذن .

.. ولما تم لأبى بكر ما أراد ، صارح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما أعد ، وكيف استعد للحظة الرحيل، فبارك له عمله، واشترط أن يدفع له ثمن الناقة التى اشتراها ليرحل عليها ، ودفعه إليه .

ـ ٥ ـ

بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ، وبقيت معه قلة ممن لم يستطيعون فرارا ، فكان عليهم أن يمارسوا مع مشركى مكة سياسة الصبر على المكاره فهم : الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .

.. وكانت الأنباء تترى ، يحملها من يغدون من طيبة إلى مكة :تحكى عن حال من هاجر من المسلمين ، وتتغنى بحسن الجوار ، ورغد العيش الذى يعيشون ، وتتحدث عن انتشار الإسلام والمسلمين، فكانت تصل إلى أسماع المحصورين فتخفف عنهم آلامهم ، وتبعث الآمال فى نفوسهم بقرب نفاذ وعد الله ، وتنادوا : "* ألا إن نصر الله قريب " .

.. وتنادى المشركون بأن ..

: زيدوا من رقابتكم لأصحاب محمد ، ومن أماناتكم عند الأمين حتى نضمن عدم خروجه من بيننا سرا ، فمن المحال أن يغادر مكة دون أن يرد الأمانات إلى أصحابها ، فإذا ما فعل ذلك ، عرفنا بنيته على الهجرة إلى طيبة .

وسارع المشركون فى نسج شباكهم ، يلفون خيوطها حول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أموالا ، وذهبا ، وفضة ، حتى سيوفهم ، ودروعهم لفوها حوله ، والرسول على عهده يقبل أماناتهم ، ولا يرد منهم أحدا .

.. ولكن هل ترد الطمأنينة على قلب الخائن ؟!! .

.. إنه قلب صنع القلق وأحدث الروع لغيره ، فكيف له أن يعرف الراحة ، أو يأمن المكر ؟! .

وهكذا وجد المشركون أنفسهم فى طريق مسدود : فكيف لمحمد مهما فعلوا به وله أن يقبل البقاء بينهم ، بينما أنصاره بطيبة يتكاثرون ، ويزدادون قوة ومنعة ، وهو من قال من قبل ، وأثبت بالفعل قوله :

ـ " والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته " ؟ .
.. وإذا ما وضعوا الحديد فى رجليه ويديه وأبقوه قسرا ، فكيف لهم أن يمنعوا أنصاره بطيبة من النزول عليهم نزلة الصاعقة، فيغلبونهم، ويأخذونه بجدع أنوفهم، ويجعلون منهم أضحوكة على لسان القبائل فى كل مكان ؟!.
أو يستثير ظلمهم لمحمد حمية أهله، وهم أصحاب قوة ومنعة ، فيكرون عليهم، ويستخلصونه من بين أيديهم، أو يورثهم العند الإسلام ، فيدخلون فى دين محمد كراهة لما فعلوا بابنهم وانتصارا له ، فتنشق قريش ، وتتفتت وحدتها !! .
.. كثرت الأسئلة وتكاثرت تدق رؤوس قادة الشرك ، وترهق أبدانهم بالسهر والحمى ؛ حتى باتوا لا ينامون الليل ، ولا يستقر بهم صباح ، فتنادوا قبل أن تلتاث عقولهم : أن هلم إلى دار الندوة حيث يدبر لكل أمر عظيم .
.. لقد كانوا يمكرون ، ويكشف الله لنبيه صلى الله عليه وسلم كيدهم ، ويخبره جبريل بما يضمرون ، ثم حمل إليه أمر الله ، بأنه قد أذن له بالهجرة إلى طيبة .

ـ ٦ ـ

.. فى دار الندوة ، اجتمع ما يزيد على مائة رجل من كل القبائل ، حتى ضاقت بهم الدار وما حولها ، وامتنع بنو هاشم وبنو عبد المطلب عن الحضور ، وسمى هذا اليوم لكثرة من شاركوا فيه يوم الزحمة .
.. وعلى باب الدار وقف إبليس ، وقد ارتسم فى صورة شيخ عليه برد ثقيل ، فلما سألوه متوجسين من أن يكون عينا عليهم :
ـ من الشيخ ؟! .
قال :
ـ شيخ من أهل نجد سمع بما اجتمعتم له ، فجاء ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يعدم رأيا ونصحا .
ورغم أعرافهم التى تمنع دخول الأغراب دار الندوة ، قالوا له :
ـ أجل ، فأدخل .
دخل إبليس وتخير موقعا يتوسط عقدهم ، وجلس يستمع ، وما كان فى حاجة لأن يدخل ، فهو فى واقع الأمر صاحب الدعوة ؛ وبدأ المشركون يتحدثون بما هجست به نفوسهم ، ثم بدأت رحلة البحث عن سبيل للخلاص من صاحب الدعوة التى تقض مضاجعهم ، وتبدد أحلامهم ، وتفرق جماعتهم : فقال من قال بنفيه ، وعاب إبليس ما قيل مفندا أسبابه ، وقال آخرون هو شاعر مجنون فلنحبسه كما حبسنا غيره من الشعراء والمجانين ، ولنتربص به ريب المنون ، وعاب إبليس قولهم وانتقص من حكمتهم ، ثم راح يأخذ فكرهم متجها بالحديث والنفوس إلى حيث قصد وأراد ، وما إن تمكن من أبى جهل بن هشام ، حتى هب أبو جهل قائلا :
ـ والله إن لى فيه رأيا ما أراكم قد وقعتم عليه .
تصايح القوم قائلين :
ـ وما هو يا أبا الحكم ؟ .
قال إبليس على لسان الناطق بلسانه :
ـ أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى قويا نسيبا ونعطى كل شاب سيفا صارما ، فإذا ما خرج محمد من داره ، وثبوا عليه فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ويتفرق دمه بين القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف قتال قومهم جميعا ، فيرضون بالدية .
ولما وجد إبليس استحسانا من القوم لما قيل ، تنهد فى راحة وقال :
ـ القول ما قال الرجل ، ولا رأى غيره .

وتفرق القوم مجمعين على تنفيذ ما ارتأى إبليس ، وجأرت وديان مكة ألما لما وصل إليه حال أهلها ، ونقل جبريل عليه السلام ما عزم المشركون على فعله ، إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

.. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار الصديق ، فى غير الموعد الذى اعتاد أن يزوره فيه ، فالوقت ظهر ، والناس لا تخرج من دورها فى مثل هذا الهجير ، ولذا ما إن رآه الصديق τ حتى قال لنفسه ..

: والله لا يأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا الوقت إلا لأمر جلل .

.. ولم ينتظر الصديق حتى يدخل الحبيب ، بل سارع خارجا ، يلقاه على باب الدار وهو يقول :

ـ فداك أبى وأمى يا رسول الله .

قال الحبيب صلى الله عليه وسلم بعد أن استأذن فى الدخول :

ـ أخرج من عندك .

قال الصديق :

ـ هم أهلك يا رسول الله ، قل ولا تتحرج .

قال الحبيب :

ـ لقد أذن لى فى الهجرة .

قال الصديق فى لهفة :

ـ الصحبة ، الصحبة ، يا رسول الله .

قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ نعم .

ـ ٧ ـ

حين جن الليل ..

اجتمعت رؤوس القبائل ، وتخيرت كل قبيلة فتاها ، واتفقوا على الالتقاء فى منتصف الليل أمام باب رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنفيذ جريمتهم .

كانوا ينفلتون من دورهم كالأشباح ، متدثرين ببرد ثقيلة ، يخفون تحتها سيوفهم ، ويمرقون مسرعين لا يلتفتون ، ولا يصدر عنهم صوت ، مخافة أن يسبقهم إلى دار رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحذره ، فيفلت من أيديهم ، أو تتحرك نخوة الرحم فى أحد من بنى عبد المطلب ، فينافر قومه ، فيهبوا لنجدة ابنهم .

وحين اجتمعوا حول بيت رسول الله ، مر بهم أبو جهل ، ولما رأى كثرة عددهم ووفائهم بما عاهدوا عليه ، لم يملك نفسه من الشماتة ، فقال لهم بصوت مرتفع ، سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من داخل داره :

ـ إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره ، كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنات كجنات الأردن ؛ وإن لم تفعلوا كان فيكم الذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نارا تحرقون فيها .

.. فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبو جهل قائلا :

ـ نعم أنا أقول ذلك ، وأنت أحدهم .

وارتعد أبو جهل لما وصله رد رسول الله ، وانتفض فى هلع ، فما كان يظن أن محمدا قائم يعبد ربه إلى هذا الوقت المتأخر من الليل ، فأوسع أبو جهل الخطى مهرولا إلى داره ، وقلبه ينبض فى خوف ؛ وإذا كان حاله كذلك ، ترى كيف كان رد فعله إذا عرف بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأه ربه بكل ما يحاك له خارج بابه ؟!! .

.. انثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حيث نام علي ، فأيقظه ، وأخبره بأنه مهاجر للحظته إلى طيبة ، وطلب منه أن ينام فى فراشه ، ويتدثر ببردته الخضراء ، ولا يخش سوءا ، فإن الله تعالى حافظه من كل سوء ، وأوصاه أنه إذا ما أصبح ، عليه أن يرد الأمانات التى عند رسول الله إلى أصحابها .

.. واستمع على فى صمت ، ولم يناقش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شئ ، رغم تخوفه الشديد عليه من أولئك الذين يسمع لهاث أنفاسهم من وراء الباب .

.. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من داره فى مواجهتهم ..

.. وضرب الله على أبصار القتلة ، فلم يروه ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب ، وراح ينثرها على رؤوسهم ، وهو يقرأ قول الله تعالى من سورة يس :

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)

.. ثم انصرف خارجا ، بعد أن جعل رب القدرة بينه وبين المشركين سدا ، فأغشاهم فهم لا يبصرون ، فهاهم أولاء يعمون عن رؤية الحبيب صلى الله عليه وسلم تسليما ، وهو يخرج من بينهم ، فكأنهم مستمرين فى عمى القلوب ، الذى جعلهم من قبل لا يبصرون روح وحقيقة دين الرحمة ، الذى جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم من عند رب العالمين .

الجزء الثانى

المنتصر

الفصل التاسع :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ **سورة الأنفال**

الخروج

ـ ١ ـ

السنـة : الأولى من الهجرة " الثالثة عشرة من النبوة .
الشهـر: غرة ربيع الأول .
اليـوم : الاثنين .
الـوقت: الفجــر .

.. كانت مكة تغط فى نوم عميق، جثم على صدور أهلها، فلقد هد أثرياءها إفراطهم فى اللهو، وهد فقراءها اشتدادهم فى الكدح ؛ وفى نومهم لا أحد من هـؤلاء أو هؤلاء يدرى من أمر نفسه شيئا : أهى موتة صغرى يصحـو بعدها ليمارس حياته من جديد، أم هى موتة كبرى لا فواق منها ولا عودة إلى الدنيا ! .

.. وقف الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يلقى نظرة أخيرة على مكة قبل أن يرحل عنهـا، وقد فاض به الحـزن لفراقها : كانت الدور والخيام تتلاصق متحلقة حـول الكعبـة، فبـدت كأنهـا تتقرب إلى بيت الله الحرام وتحتمى به ؛ ثم علا البصر إلى حيث كانت الجبـال ترتفـع ــ بأمـر ربها ـ فى صرامة تناطح السحاب، وتحيط بالكعبـة والـدور، فتـضرب حولهمـا سـورا لا يـسهل اجتيازه !! .

.. ولعل الحبيب صلى الله عليه وسلم قد أطـال النظـر والتأمـل فـى جبـل بذاتـه، حيـث غـار حراء مهبط الوحى، وتذكـر مجيء جبريل υ فى ذاك اليـوم المـشهود مـن أيـام شـهر رمـضان، بأول أمر من ربه :

ـ اقرأ .

ولعل البصر قد توقف به صلى الله عليـه وسـلم طـويلا متـأملا فـى شـعب محـدد حيـث حـصر وأهله ثلاث سنوات، منعوا فيها من مخالطة أهـل مكـة، وحظر علـيهم المـشركون أن يتعـاملوا معهم فلا يبيعونهم ولا يبتاعون منهـم ؛ ورغــم مـرارة الـذكريات، غلبتـه مـشاعر حـب الـوطن، وتغلبت مشاعر الفـراق على كل مـا عداها من مشاعر الألم والمرارة، وفـاض الوجـد بالحبيـب محمد صلى الله عليه وسلم فقـال :

ـ ما أطيبك من بلد وأحبك إلىّ،ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك.

.. وتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا، وتلاحقت حركـة قدميـه فـى خفـة فـوق الرمال الممتدة بلا نهاية، ومع كل خطوة كانت مكة تبتعد وتتراجع، بينما هـى لاصـقة بالقلـب لا تغادره، رغم كل ما لاقاه من أهلها من سوء معشر وجيرة، وظلم له ولأهله ولأصحابــه، ورغـم ما قالته فيه قريش من اتهامات بالباطل، فلقد تجاوز بغيهم كافة الأعـراف، وكل حـدود المعقـول، ثم ها هم أولاء قد اجتمعوا خارج باب داره، يلبون ما وسوس لهم به إبليس، يترقبـون خروجـه، وقد أجمعوا على قتله بضربة واحدة من سيوفهـم، حتى يتفرق دمه بين القبائل !! .

.. ورغم هذا جميعه قال صلى الله عليه وسلم وهو صابر علـى أذاهـم، أمـلا فـى أن تـدركهم رحمة الله يوما :

ـ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمـون، فلعلـك يـا رب هـاديهم، ومخـرج يـا رب مـن أصـلابهم ذرية تؤمن بك .

.. ولما اشتد إيذاء قريش للمسلمين، جاءوا إليه قائلين :

ـ يا رسول الله ادع على المشركين .

فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة .
.. وحتى لما تمادوا فى غيهم يعمهون، متحدين وساخرين من توعد رب العالمين لهم بالعذاب، إذ قالوا :
ـ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ صلى الله عليه وسلم ٣٢) سورة الأنفال
.. لم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم بالهلاك، أو بالعذاب، كما دعوا على أنفسهم، أو كما فعلت الكثرة ممن سبقوه من الرسل والأنبياء، وكيف له أن يقسو وقد وصفه ربه فى سورة التوبة، بأنه بالمؤمنين، وأيضا بغير المؤمنين رءوف رحيم :
ـ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ صلى الله عليه وسلم ١٢٨)
.. ثم كيف يكون لهم العذاب وفيهم الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، يتعبد ويقنت لربه طوال الليل والنهار: ألم يدركوا أنه برجل واحد صالح، يحفظ الله أمة بأسرها : فما بالكم وقد أتى الحبيب صلى الله عليه وسلم وعد ربه، فى سورة الأنفال :
ـ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ صلى الله عليه وسلم ٣٣)
.. توقف الحبيب صلى الله عليه وسلم واستدار يلقى نظرة أخيرة على أحب بلاد الله إليه، وقبل أن يغادر مكانه، رفع يديه إلى السماء ضارعا متضرعا وقال :
ـ الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا، اللهم أعنى على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالى والأيام، اللهم احجبنى فى سفرى، واخلفنى فى أهلى، وبارك لى فيما رزقتنى ؛ عليك فدلنى، وعلى صالح خلقى فقومنى، وإليك فحببنى، وإلى الناس فلا تكلنى ؛ أنت رب المستضعفين وربى، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السماوات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين : أن يحل بى غضبك، أو ينزل على سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، ولا حول ولا
قوة إلا بك .
.. وبعد أن انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حث الخطى مخلفا وراءه مكة بأسرع ما يستطيع، ليلحق بموعده مع أبى بكر الصديق أمام غار ثور، وقبل أن يعرف المتآمرون بخروجه من بينهم، وقد تغشاهم الله فهم لا يبصرون، فلم يروه وهو يغادر داره، وضرب على سمعهم فلم يسمعوه وهو يتلو عليهم سورة : يس؛ بينما أخذت تتردد فى أذنيه كلمات ورقة بن نوفل وهما يطوفان معا بالكعبة عند بدء الوحى :
ـ والذى نفس ورقة بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى : وليكذبنك، وليؤذينك، وليقاتلنك، وليخرجنك ...

ـ ٢ ـ

.. على درب الخروج سارت جموع الأنبياء : يتقدمهم أبو البشر آدم υ هابطا من الجنة إلى الأرض .
.. فلقد استمع آدم υ إلى إبليس فغوى، وأكل، وأكلت معه حواء من الشجرة المحرمة .
.. وضحك إبليس طويلا .. طويلا فى نشوة المنتصرين، ثم قال هازئا من آدم :
ـ ألا ما أضعفك يا غريمى .
.. ثم قهقه، وقهقه، حين تكشفت سوءتا آدم وحواء، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليواريا ما انكشف، وكان الله قد ستره، لكنهما كشفاه بعصيانهما .
.. لقد انهزم أبو البشر فى أول مواجهة .

وانتصر إبليس .
انهار آدم υ ساجدا لله تائبا مستغفرا، طالبا رحمة الرحمن الرحيم، وقد ملئت نفسه بالندم والحسرة على ما فرط فى حق الله .
وعفا العفو الرءوف الرحيم .
ولكن كان لا بد من جزاء :
وخرج آدم، وخرجت حواء من الجنة ليعمرا الأرض .
.. ولأن الإنسان من خلقه النسيان .
.. ورغم التحذير الإلهى للبشر :
ـ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ صلى الله عليه وسلم ٢٧) سورة الأعراف
.. بدأ النسيان يعمل عمله فى أبناء آدم، فبعد وفاة الأب، ظلوا لسنوات يتذكرون تحذيره لهم من الشياطين، وما نصحهم به من ضرورة تقوى الله، ثم بدأت النصيحة تخفت، وتتراجع كلما مرت الأيام، وانتشرت بينهم العداوة والبغضاء، وسيطر عليهم إبليس ؛ وحاول المخلصون منهم الإصلاح، لكن الفساد استشرى، وعمت الرذيلة، وزين لهم إبليس أن يصنعوا صورا وتماثيل، لخمسة ماتوا من الصالحين، هم : ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق ونسرا، ثم وسوس لهم أن يتقربوا إلى تلك التماثيل، ويشركوها فى عبادتهم لتقربهم إلى الله ؛ ومع الأيام نسوا الله، فصاروا من عبدة الأصنام، فلقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ؛ وسيطر الشر على الحياة، وتحول البشر إلى حيوانات تحكمها الغرائز، بعد أن غيب العقل، وهذا حال يصير إليه الناس حين يغفلون عن ذكر الله :
ـ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا صلى الله عليه وسلم ١٧) " سورة الجن
ويحذر الله رب العالمين الناس من الغرق فى أوساخ الكفر أو الشرك، ويبين لهم الحال التى سينتهى إليها المشركون والكافرون، فى سورة طه، قائلا :
ـ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى صلى الله عليه وسلم ١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا صلى الله عليه وسلم ١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنسَى صلى الله عليه وسلم ١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى صلى الله عليه وسلم ١٢٧)
.. ومن رحمة الله بالناس أن يبعث إليهم النبيين مذكرين ومنذرين ..

ـ ٣ ـ

.. أوحى الله تعالى إلى نوح υ فقال لأهله، من سورة الأعراف :
ـ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ صلى الله عليه وسلم ٥٩)
.. وحمل نوح υ رسالة ربه، وراح يدعو أهله ليلا ونهارا، فى السر وفى العلن:
ـ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ صلى الله عليه وسلم ٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِي صلى الله عليه وسلم ٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ صلى الله عليه وسلم ٤) سورة نوح
.. لكن قومه ظلوا فى غيهم يعمهون، وبقوا على طاعتهم لإبليس، وسخروا من نوح، بل تمادوا فيما هم عليه من فساد قائلين :
ـ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ صلى الله عليه وسلم ٦٠) سورة الأعراف

ويرد عليهم نوح مؤكدا :
ـ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ صلى الله عليه وسلم ٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ صلى الله عليه وسلم ٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ صلى الله عليه وسلم ٦٣) سورة الأعراف
.. ومع كون نوح υ كان معجزة تجسدت بينهم فى طول عمره، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وشهد ذهاب أجيال وإقبال أجيال، مؤكدا بمعجزة وجوده أنه على حق، وأن ما دون ذلك من الهالكين لقصر أعمارهم، إنما هم على الباطل يعيشون ويموتون، وأن كلنا هالكون، طال بنا العمر، أم قصر !.
.. ورغم هذه المعجزة الربانية المتجسدة فى طول عمره، بقيت الأجيال تتوارث الفساد، وشكا نوح حال قومه لربه، وقد امتلأ مرارة ويأسا من استمرارهم على توارث الفساد والضلال، قَالَ نُوحٌ :
ـ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا صلى الله عليه وسلم ٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا صلى الله عليه وسلم ٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا صلى الله عليه وسلم ٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا صلى الله عليه وسلم ٢٤) سورة نوح
.. ولما أصروا على التمادى فى ضلالهم لم يملك نوح عليه السلام إلا أن يدعو ربه أن يهلكهم، ليرحم الحياة من شرورهم، وَقَالَ نُوحٌ :
ـ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا صلى الله عليه وسلم ٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا صلى الله عليه وسلم ٢٧) سورة نوح
.. وجاء أمر الله لنوح أن اصنع الفلك، واحمل عليها من آمن،ومن كل المخلوقات زوجين، وأن انتظر ساعة الخروج للخلاص من القوم الضالين ! .
.. أطاع نوح ما أمر به، وبدأ يصنع السفينة، وكلما مر به نفر من قومه، يتغامزون ويسخرون من صانع السفينة فى أرض بعيدة عن الأنهار والبحار، ويسألونه :
ـ ماذا ستفعل بسفينتك هذه يا نوح ؟! .
ويقول لهم نوح υ :
ـ أنتظر أمر ربى لأخرج بها هاجرا مفاسدكم، فهل بينكم رجل رشيد يفر معى إلى الله ؟ .
ويجيبه السفهاء :
ـ ليتك تفعل هذا وحدك يا نوح، فتريح بخروجك من بيننا، وتستريح !! .
قال نوح υ :
ـ .. إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ صلى الله عليه وسلم ٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ صلى الله عليه وسلم ٣٩) سورة هود
وجاء أمر الله ..
وفار التنور ..
وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ..
وفجرت الأرض عيونا ..
فالتقى الماء على أمر قد قدر .
وبدأت الأرض تغرق وتختفى بكل ما فوقها من دواب وبيوت وزرع، فلقد ابتلع الطوفان كل شئ، بينما أخذت السفينة تعلو وتستقيم على سطح الماء، وأسرع الكافرون
يهرعون إلى قمم الجبال، بينما ركب نوح السفينة مع من آمن منهم، وما آمن معه إلا قليل .

ونوح υ يرى ما يحدث لهم، عارف بالهلاك الذى هم إليه سائرون، فلقد أعلم به من قبل رب العالمين، حين أمر ببناء السفينة بسورة هود :

ـ وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ صلى الله عليه وسلم ٣٧)

لكنهم كانوا لا يسمعون تحذيره، فلقد ضرب إبليس على آذانهم فهم لا يدركون، وطمس على عقولهم فهم لا يفقهون، وحين نادى نوح ابنه :

ـ يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين .

قال الابن الكافر :

ـ سآوي إلى جبل يعصمنى من الماء .

ويصرخ نوح υ فى ابنه قائلا :

ـ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

.. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

.. وحمل الماء السفينة وراح يدفعها مبتعدا، إلى حيث شاء الله، ليمحو الله القرية وأهلها، وليطهر الأرض من الأوساخ والأدران بالماء تطهيرا : مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا .

وقضى الأمر ..

وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعى وغيض المـاء .

.. ونشأ جيل ما بعد الخروج .

ـ ٤ ـ

.. سعدت الحياة بأناس من الصالحين المهتدين، ثم عاد الفساد يتفشى، وعمت الرذائل، وأصبحت حياة البشر مثلها مثل حياة الحيوانات بل هى أشد سوءا، فالحيوان لا يعمل الفكر، ولا يرسم الخطط، ولا يطور أساليب الشر، فى حين يستطيع ذلك الآدميون بما حباهم الله به من نعمة العقل !! .

ووسط ركام الفساد الذى عم بين عبدة الشمس والقمر والنجوم والأصنام، راح إبراهيم يتطلع إلى السماء، باحثا عن رب أقوى، وأكثر إقناعا لعقله الذى رفض الأرباب التى يعبدها أهله، من تماثيل صنعوها بأيديهم، وكواكب فى السماء العلا ، وقال رب العالمين موضحا سورة الأنعام :

ـ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ صلى الله عليه وسلم ٧٥)

.. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال :

ـ هذا ربى .

.. فلما أفل قال :

ـ لا أحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغا قال :

ـ هذا ربى .

فلما أفل قال :

ـ لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة قال :

ـ هذا ربى هذا أكبر .

فلما أفلت قال :
ـ يا قوم إنى برئ مما تشركون، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .
واهتدى إبراهيم عليه السلام إلى الذات العليا، وقال :
ـ آمنت بالله رب العالمين، وإنى أول المسلمين .
ثم قال لأبيه يدعوه لأن يرقى إلى ما صار عليه الابن :
ـ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .
قال الأب عاجبا :
ـ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟..لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا .
قال إبراهيم υ :
ـ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا، واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا .
.. ثم التفت إلى قومه يسألهم :
ـ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ .
قالوا :
ـ وجدنا آباءنا لها عابدين .
قال إبراهيم υ :
ـ هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون ؟!!.
قالوا :
ـ وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .
قال إبراهيم υ :
ـ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ صلى الله عليه وسلم ٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ صلى الله عليه وسلم ٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ صلى الله عليه وسلم ٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي صلى الله عليه وسلم ٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي صلى الله عليه وسلم ٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي صلى الله عليه وسلم ٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ صلى الله عليه وسلم ٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ صلى الله عليه وسلم ٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ صلى الله عليه وسلم ٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ صلى الله عليه وسلم ٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ صلى الله عليه وسلم ٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنْ الضَّالِّينَ صلى الله عليه وسلم ٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ صلى الله عليه وسلم ٨٧) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ صلى الله عليه وسلم ٨٨) إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ صلى الله عليه وسلم ٨٩) سورة الشعراء
.. وأصر إبراهيم على أن يتبع قوله بالعمل، فلما أقبل الصبح، وخرج قومه إلى احتفالهم بعيدهم، اتجه إلى أصنامهم فطاح فيها ضربا وتدميرا، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم، ثم علق الفأس التى فعل بها فعلته فى رقبة التمثال، ولما رأوا ما صارت إليه آلهتهم، سألوه :
ـ أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم !!.
أشار إبراهيم υ إلى التمثال الذى تدلت الفأس من رقبته، وقال :
ـ بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون .
.. وصدقه قومه، ثم نكسوا على رؤوسهم، وقد أدركوا أن إبراهيم هو الفاعل، وأن قولته تحمل السخرية بهم والاستخفاف بما يعبدون، وقالوا :

ـ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .
قال إبراهيم υ :
ـ أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم وشيئا ولا يضركم، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون .
وجادله النمرود ملك البلاد، فقال له :
ـ ماذا يستطيع ربك ؟ .
قال إبراهيم :
ـ ربى الذى يحيى ويميت .
قال النمرود :
ـ أنا أحيى وأميت .
.. ثم أمر بسجينين حكم عليهما بالإعدام، فقتل أحدهما، وعفا عن الآخر .
قال إبراهيم υ :
ـ الله يأتى بالشمس من المشرق فآت بها من المغرب .
.. فبهت الذى كفر !! .
وغضب الملك أشد الغضب لهزيمته، وتنادى أنصاره، قالوا :
ـ ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم .
.. وتنافس القوم فى جمع الخشب والقش، وتأججت النار تفح كالأفاعى، وتصاعد لهبها يلفح الوجوه فيكويها، وألقوا بإبراهيم فى النار، وجاءها أمر الله :
ـ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ صلى الله عليه وسلم ٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ صلى الله عليه وسلم ٧٠) سورة الأنبياء
.. وخرج إبراهيم من النار سالما بأمر الله، ورغم المعجزة الخارقة التى رآها الكفار رأى العين، ورغم تجلى قدرة رب إبراهيم سبحانه وتعالى علوا كبيرا، إلا أن إبليس حاورهم ووسوس لهم فأعماهم عن الحقيقة الملموسة التى تجلت أمام أبصارهم، وعن الحق الذى بين أيديهم .
.. خرج إبراهيم υ من قريته بالعراق، مهاجرا إلى أرض فلسطين، وليس معه إلا من آمن وهما : زوجته سارة، وابن أخيه لوط الذى قال فى إيمان وهو خارج :
ـ إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم .
.. ثم استأذن لوط من عمه فى أن يتجه بالدعوة إلى أرض عمورية وسدوم بالقرب من البحر الميت، وهى بلاد صحراوية أهلها غلاظ منحرفون، فأذن له .
.. تزوج لوط υ من بينهم وانتسب إليهم، وظل سنين وسنين يدعوهم للكف عن الشر : فلا يقطعون الطريق لينهبوا القوافل، ويروعوا المسافرين جماعات وأفرادا، ولا يغشون فى الكيل والميزان، ولا يأتون الرجال من دون النساء، فلم يستمع إليه ولم يؤمن معه إلا قليل، وظلت الكثرة الكاثرة تفاخر بفجرها وقوتها وجبروتها، ويتناسون ما يؤكده لهم لوط υ من أن الله هو الجبار ذو القوة، وأن الله غاضب من أفعالهم وظلمهم، وأنه يخاف عليهم من سخط الله .
.. قنط لوط υ من صلاح حال قومه، فدعا عليهم بالهلاك، ثم خرج مهاجرا بمن آمن من قومه، بعد أن أتاه أمر ربه عن طريق الملائكة :
ـ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ صلى الله عليه وسلم ٨١) سورة هود

.. ثم حل بهم غضب الله، فأرسل ملائكته الغلاظ الشداد، فقلبوا الأرض التى يعيشون عليها، وجعلوا عاليها سافلها، ودمرها الله تدميرا، واستوت الأرض، فكأنها لم تعمر من قبل، ولم تكن عليها حياة ولا أقوام، وسبحان القادر العظيم .

.. بينما خرج إبراهيم υ إلى مصر، ثم خرج بأمر من الله ومعه زوجه هاجر وابنه إسماعيل من مصر إلى وادى مكة حيث قواعد بيت الله الحرام، فأسكنهما بواد غير ذى زرع بالقرب من الكعبة المشرفة، و دعا ربه قائلا :

ـ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

.. وحتى يومنا هذا، ما تزال أفئدة المسلمين تهفو إلى بيت الله الحرام، فيجعلها الشوق تترك المال والدار والأهل والولد، وتخرج ساعية لزيارته، فلقد قال الله تعالى :

ـ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ صلى الله عليه وسلم ٢٧) سورة الحج

.. ولما شب إسماعيل، أختبر إبراهيم υ فى مدى طاعته لله تعالى، ومدى صدق عقيدته، فأرى الرؤيا التى رأى، وأمر أن يذبح ابنه الحبيب إسماعيل، فأطاع أمر الله، وأطاع الابن أباه، ففداه الرحمن الرحيم بذبح عظيم، ثم بدأ يرفعان القواعد بأمر الله،

وهما يرجوان رضاء الله، قائلين:

ـ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

.. ثم اتجه إبراهيم υ إلى الله داعيا، يقول :

ـ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

.. ثم قال، راجيا، وأملا فى البشارة برسول الله :

ـ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم .

ـ ٥ ـ

خرج موسى υ أول ما خرج، من بيت أمه وهو لم يزل وليدا، فلقد كان فرعون يقتل كل ذكر يولد خوفا من تحقق نبوءة جاءه بها كهانه تقول : إنه سوف يولد طفل من بنى إسرائيل سيقتله، ويبيد ملكه، وكان يفعل فعلته تلك عاما ثم يترك من يولدون فى العام التالى أحياء حتى لا يبيد قومه،ولقد ولد موسى فى عام القتل، كما جاء فى سورة القصص :

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ صلى الله عليه وسلم ٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ صلى الله عليه وسلم ٨) وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ صلى الله عليه وسلم ٩)

.. ثم يخرج موسى ثانية بعد أن صار رجلا، فارا من قومه بعد أن قتل رجلا من عدوه، إلى أن أتاه أمر ربه أن : اذهب إلى فرعون إنه طغى .

.. ويظهر موسى خوفه من العودة إلى مصر حتى لا يقتل عقابا لقتله من قتل من عدوه، ويضرع إلى ربه أن يرسل معه أخاه هارون، ليشدد به أزره .

.. ويستجيب الرحمن الرحيم، ثم يأمره سورة الشعراء:

ـ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ صلى الله عليه وسلم ١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ صلى الله عليه وسلم ١٧)

قال فرعون لموسى معاتبا، ومذكرا يمن عليه بما قدم له فى سالف الأيام، لعله يرجع عن طلبه :
- ألم نربك فينا وليدا و لبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين .
قال موسى υ :
- فعلتها إذا وأنا من الضالين، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين، وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل .
قال فرعون :
- وما رب العالمين .
قال موسى :
- رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .
قال فرعون لمن حوله ساخرا :
- ألا تسمعون ؟!! .
استطرد موسى قائلا :
- رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .
قال فرعون غاضبا ومتوعدا :
- لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين .
قال موسى :
- أولو جئتك بشىء مبين .
.. وتتوالى المعجزات الحسية الواضحة، ويخرج موسى يده المسودة من جيبه فإذا هى بيضاء بأمر الله، ثم يتفوق على السحرة الذين حشدهم فرعون، بأن يلقى عصاه فلقفت إفكهم بأمر الله، ويبطل سحرهم، ولكن فرعون لا يستجيب، ويصر على حصر الذين آمنوا، فلقد تمكن إبليس منه حتى جعله يظن نفسه إلها، وساعده شعبه باستكانته وحبه لمليكه على أن يتمادى فى غيه، ويزداد طغيانا وكفرا .
إلى أن جاء أمر الله لموسى υ بالخروج :
- واسر بعبادى ليلا، إنكم متبعون .
.. ويخرج موسى بمن آمن معه من بنى إسرائيل، يسرع بهم مبتعدا عن الشرك بالله، فارين من الهلاك الذى يلاحقهم به فرعون وجنوده ؛ يقطعون الفيافى والقفار متحملين مشاق الطريق، وقلة الزاد، فكل أمر يهون فى سبيل رضا الله، ثم واجههم البحر بأمواجه المخيفة تزمجر وتعوى، وبامتداد مياهه بلا انتهاء على مدى ما يدرك البصر، فانتاب اليأس نفوس من لم يستقر الإيمان فى قلوبهم استقرارا يقينيا ثابتا، بينما لم تهتز ثقة موسى υ فى ربه، وفى أنه سبحانه وتعالى مغيثه ومنقذه من هذا الكرب العظيم، ومن هذا الخطر الذى أحاط بهم، لأن فيه هلاكه، وهلاك قومه، وانتصار الكفر والشرك، فلو لحق بهم فرعون لقتلهم تقتيلا، ولأفناهم جميعا، ولو خاضوا البحر لغرقوا، ولابتلعتهم أمواجه ؛ ولكن ثقة موسى لم تهتز فى تحقق وعد الله، وقال لأتباعه :
- إن الله معى سيهدينى .
.. وحين اشتد اقتراب فرعون وجيشه من المهاجرين، حتى كاد أن يطبق عليهم، جاء غوث الله، وأمر الله موسى أن:اضرب بعصاك البحر.
.. ففعل موسى فانشق البحر فلقتين، فسار هو والذين آمنوا معه فى رعاية الله وحفظه، حتى وصلوا إلى الشاطئ الآخر، بينما كان فرعون قد أعماه الغضب، وأصابه الجنون، لأن موسى

ينتصر عليه، ويفلت بمن آمنوا من عقابه، فراح يشتد فى سعيه، ويلهث للحاق بهم، فأمر الله البحر فانطبق عليهم، وغرق فرعون وجنوده فى أليم .
.. وخرج موسى مهاجرا إلى أرض الميعاد .

- ٦ -

.. عاد اليهود إلى المعصية، فكانت معجزة الله الأزلية إليهم بأن جعل مريم ابنة عمران، القانتة الصالحة، التى تنتمى لأشرفهم نسبا، تلد السيد المسيح من غير أن يمسسها بشر، فكما نفخ الله من روحه فى آدم فحيا، نفخ من روحه فى مريم فولدت عيسى υ بلا أب :
وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ صلى الله عليه وسلم ١٢) سورة التحريم
.. إِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ صلى الله عليه وسلم ٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنْ الصَّالِحِينَ صلى الله عليه وسلم ٤٦) سورة آل عمران .
قالت مريم من سورة آل عمران :
- قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .
قالت لها ملائكة الرحمن :
- قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ صلى الله عليه وسلم ٤٧) سورة آل عمران
فحملته مريم، فانتبذت به مكانا قصيا، فجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت :
- يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا صلى الله عليه وسلم ٢٣) سورة مريم .
فناداها الوليد من تحتها، قائلا :
- أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا صلى الله عليه وسلم ٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا صلى الله عليه وسلم ٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا صلى الله عليه وسلم ٢٦) سورة مريم
فأتت مريم قومها تحمل عيسى، قالوا :
- يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا صلى الله عليه وسلم ٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا صلى الله عليه وسلم ٢٨) سورة مريم
فأشارت إلى طفلها أن اسألوه، قالوا متعجبين :
- كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا صلى الله عليه وسلم ٢٩) سورة مريم
وأجابهم الوليد قائلا :
- إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا صلى الله عليه وسلم ٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا صلى الله عليه وسلم ٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّاصلى الله عليه وسلم ٣٢)وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا صلى الله عليه وسلم ٣٣) سورة مريم
.. فتن اليهود بالمعجزة الربانية، وأصبحوا ولا حديث لهم إلا معجزة الله فى بنت عمران، وهو ما أوغر صدور كهانهم، فخاضوا فى سيرة مريم، مما جعلها تخرج بابنها، وهو بعد صبى إلى مصر، ثم عادت بعد أن كبر عيسى υ، ليدعو قومه إلى عبادة الله الواحد، وأعطاه الله من فضله الكثير، واختصه بمعجزات مادية، فكان يشفى الأبرص بأمر الله، ويجعل الأعمى بصيرا بأمر الله، والتف حوله الحواريون مؤمنين مصدقين، داعين الناس إلى الدخول فى دين الله، ولكن الأحبار بعد أن قل نفوذهم بين الناس، وضاعت مكانتهم، وسوس الشيطان فى

نفوسهم، ونمى فيهم الكراهية لعيسى u، فتآمروا عليه، وكادوا له عند الملك فأحل دمه، وأمر بقتله، ولكن شبه لمن ذهبوا لتنفيذ حكم الملك، وصلبوا الواشى وقتلوه !! .
وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا صلى الله عليه وسلم ١٥٧) سورة النساء
.. ورفع عيسى ابن مريم u بمعجزة ربانية، فخرج مغادرا الأرض بمظالمها، إلى السماء برحمتها، بعد أن بشر بمجيء الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ،إذ قال عيسى ابن مريم:
- يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد .

- ٧ -

.. وتمر السنون .
.. ويعود النسيان والشيطان من ورائه،ليفسدا على البشرية حياتها، فتشرك بالله ..
وقال الله تعالى فى ذلك، بسورة التوبة :
وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ صلى الله عليه وسلم ٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ صلى الله عليه وسلم ٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ صلى الله عليه وسلم ٣٢)
.. وها قد جاء أحمد الخاتم صلى الله عليه وسلم ، النبى الأمى : دعوة إبراهيم، ونبوءة موسى، وبشارة عيسى، عليهم السلام، ليدحض قول المشركين والكافرين، ويصلح دينهم، داعيا الإنس والجن إلى العودة إلى الله، وأن يشهدوا أنه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يكن له صاحبة، ولم يكن له ولد : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ صلى الله عليه وسلم ١) اللَّهُ الصَّمَدُ صلى الله عليه وسلم ٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ صلى الله عليه وسلم ٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ صلى الله عليه وسلم ٤) سورة الإخلاص
.. وها هو ذا قد خرج من داره مهاجرا فى سبيل الله، تاركا وراء ظهره الوطن والأهل والصحبة، والظلم والظلمة، ساعيا إلى نصرة دين الله، متمما لخروج من سبقه من الرسل والأنبياء، حاملا وعد الله له بالعودة إلى مكة، من بعد الخروج :
- إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ صلى الله عليه وسلم ٨٥) سورة القصص
: وإنك لتعلم يا حبيبى، أنه الحق من ربك ..
.. وأن الله على كل شئ قدير .

الفصل العاشر :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

سورة التوبة

الله ثالثهما

- ١ -

.. التقى الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق أمام جبل ثور، حيث تواعدا من قبل، وبدأ يرتقيان الأحجار، بحثا عن مكان يختبئان فيه، بعيدا عن عيون المشركين، وبعد جهد جهيد من الارتقاء، إذا ببصر الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يرتفع لأعلى، فإذ بهما يقفان أسفل غار قد فتح فاه، وكأنه يود أن ينطق يدعوهما للاستخفاء .

كان الغار يقع أسفل صخرة ضخمة، مرتفعا بما يزيد على طول قامة الرجل بقليل، وحين هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل متقدما، مس الصديق يد الحبيب صلى الله عليه وسلم ، حتى يبعدها عن المحاولة قائلا :

ـ لا تلج الغار يا رسول الله، حتى أدخله قبلك .

.. تسلق الصديق النتوءات وصعد إلى الغار، ودخله، ثم اعتدل واقفا، وراح يجوس ببصره فيما حوله مدققا ومستكشفا المكان .

.. كان الغار قليل الضوء فهو أقرب إلى الظلمة منه إلى النور، وأقرب للضيق منه للاتساع، فهو بالكاد يتسع لشخصين أو ثلاثة، ولما اطمأن أبو بكر إلى أنه لا يوجد بالغار حيوان أو زاحف، بدأ يمزق من ثوبه قطعا صغيرة، أخذ يدسها فى الفتحات التى تفغر فاها بين

الصخور، حتى إذا كان بها ثعبان أو عقرب منعته من الخروج، وحالت بينه وبين إيذاء الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلما انتهى الصديق، فرد ذراعه لرسول الله، يدعوه ليصعد إلى الغار.. فصعد .

- ٢ -

ازداد لهيب الشمس ..

.. وما زال المتآمرون على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقفون أمام بابه، وكأنهم أعجاز نخل خاوية، فلما لسعتهم أشعة الشمس أفاق من غشيته من أفاق، ثم راح يوقظ بعضهم بعضا، وهم في أشد العجب من الحال التى كانوا عليها، ومر بهم مار فسألهم مستغربا وقفتهم :

- يا قوم، فيم وقوفكم بباب محمد ؟! .

قالوا :

- لننفذ ما اتفقنا عليه .

قال ساخرا :

- و فيمن ستنفذون القتل يا قوم، وقد خرج محمد من داره فى الليل، وقبل بزوغ الشمس ونثر على رؤوسكم التراب، وأنتم نائمون .

.. تحسسوا رؤوسهم فإذا بالتراب يعلوها، فراحوا ينفضونه فى ضيق، وإن كانوا فى شك مما قيل، فلعلها ريح قد هبت فطمرتهم بترابها، أما أن يخرج محمد من بينهم وهم يترقبون خروجه، فهذا ما يتعدى قدرة الساحر وإن سحرهم .

ظلوا على وقفتهم لحظات، وقد أخذهم التفكير فى سراديبه، فتاهت منهم السبل، لكن سرعان ما تغلب عليهم الشك وحب الاستطلاع، فتدافعوا إلى جدر بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسلقونها، وينظرون داخل الدار فى قلق،فإذا بهم يرون محمدا نائما فى فراشه، وقد تدثر ببردته الخضراء، فتصايحوا مستبشرين، وهم يرمون بالحصى من نبأهم بهربه قائلين :

- خسئت، إن محمدا ما يزال متدثرا ببردته الخضراء، نائما بفراشه .

.. ثم تنادوا متنافرين :

- فلنقتله وهو نائم .

.. اندفعوا إلى باب الدار يخلعونه متكاتفين، وقد سيطر عليهم هوس الدم، فانهار الباب منفتحا تحت ضغط أجسادهم ؛ شهروا سيوفهم، وتسابقوا يرفعون البرد عن وجه النائم، ولما رأوه، تراخت السيوف المشرعة منهزمة، وصرخ أحدهم :

- واللات والعزى، لقد سحرنا محمد وهرب أمام عيوننا ، ولقد كذب من قال إننا كنا نائمين، فما غفلت أعيننا لحظة واحدة؛ وإن محمدا لساحر عظيم !!.

.. انتاب الجمع غم شديد، وشعروا بالعار مما حدث، ثم خرجوا من دار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم من غيظهم يهرولون فى كل اتجاه، وقد انقسوا إلى مجموعات صغيرة، راحت تتخبط ذات اليمين، وذات اليسار، فلعلهم لاحقون بالمهاجر .

ذهب البعض منهم إلى دار أبي بكر، فلم يجدوا محمدا، ولم يجدوا الصديق، ونفثوا عن غضبهم بأن لطم أبو وجهل أسماء ابنة أبى بكر على وجهها فأدماه، لما رفضت ان تدلهم على مكان أبيها، وقالت لهم إنها لا تعرف وجهته، وكانت صادقة فيما قالت، فلم ينبئها فى أى طريق سوف يسير، ولا أى درب سوف يسلك ؛ بينما ذهب البعض الآخر إلى غار حراء فلم يحصلوا إلا على ما حصل عليه الآخرون ؛ ثم اجتمعت خطاهم متجهة إلى مخرج القوافل من مكة إلى طيبة، فكان لهم الفشل بالمرصاد .

- ٣ -

.. رغم سير قطيع الأغنام، التى تبع بها عامر بن فهيرة خطي مولاه أبى بكر ، لتمسح أثار أقدامه وهو متجه إلى غار ثور، حتى لا يستدل المتآمرون على مكان اختفائه، فلم تترك الأغنام أثرا إلا طمسته، ورغم تخير رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن يسلك طريقا معاكسا للطريق المؤدي إلى طيبة، كما أنه لم يتجه إلى جبل حراء حيث عهدوا توجهه إليه متحنثا ؛ رغم هذا جميعه ؛ فإن حنكة القرشى فى تقصي الأثر، وفطرته الفذة التى تجعله يحسن التوقع، قد انتهت بالمطاردين لأن يتجهوا إلى جبل ثور، بل ها هم أولاء يتقافزون حوله، وفوق صخوره، حتى وصلوا إلى الغار، وأصبحت خطواتهم تسمع بوضوح وهى تدب فوق سطحه، ومن حوله، وكان الصديق يرتعد فرقا وهو يكاد يتمزق من الخوف على الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، همس فى قلق :

- يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت رجليه لرآنا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هدوء :

- ما بالك باثنين الله ثالثهما .

.. ولقد نظر المشركون فلم يبصروهما، فلقد أراهم الله ما يؤكد استحالة أن يكون هناك مخلوق قد دخل الغار منذ سنوات طوال، بعد أن نسج العنكبوت بأمر ربه ساترا من الخيوط على المدخل وعشش به، وأمرت حمامتان بريتان، فوقفتا فى سلام فوق حجر صغير فى مقدمة الغار، فلما قال قائل منهم :

- لندخل الغار، ولنبحث بداخله عن محمد وصاحبه .

سخر الجميع منه، قائلين فى استنكار :

- إن نسيج العنكبوت أقدم من مولد محمد !! .

وقال بعضهم :

- ما بالك بالحمامتين تقفان فى اطمئنان، ولو وفد عليهما وافد لارتاعتا ولفارقتا مكانهما !! .

.. وانحدر المشركون منفضين من حول الغار إلى أسفل الجبل يصفقون فى عجب .

قال أبو بكر τ :

- تري ماذا كنا فاعلين لو دخلوا الغار يا نبى الله ؟! .

أجابه النبي صلى الله عليه وسلم فى ثقة بالله :

- لو جاءونا من هاهنا، لخرجنا من هاهنا .

ونظر أبو بكر فرأي الغار قد شقت، وإذا البحر قد اتصل بالجبل، وسفينة مشدودة بجانب الغار، فبكي أبو بكر من ضعفه وقلقه قائلا :

- والله لا أخاف على نفسي، ولكن خوفى عليك أنت يا رسول الله، فلو مات أبو بكر، فقد مات واحد من المسلمين، أما لو مت أنت، لضاعت شهادة : لا إله إلا الله .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يطمئنه :

- لا تحزن إن الله معنا .

.. ثم رفع يديه إلى السماء متضرعا وقال :

- اللهم اجعل أبا بكر معي فى درجتي من الجنة .

وجاءه جبريل υ، يخبره : أن الله قد استجاب لدعائه، فالتفت الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر مستبشرا، وأبلغه بما نبئ به، فهلل أبو بكر وكبر، وسجد شاكرا لله ما أنعم به عليه .

- ٤ -

.. انصرف المشركون من حول الجبل منتشرين فى كل الدروب التى تصل إلى طيبة، يلهثون فى سعيهم، ويلحون فى سؤال كل من يقابلهم :

ـ هل من راء لمحمد ؟!! .

.. وكان الجواب دائما بالنفى، فعادوا إلى مكة يجرون أرجلهم جرا، والخزى والهزيمة يعششان على رؤوسهم، كما عشش فوقها التراب من قبل، وأعلنوا عن جائزة مائة بعير، تكون لمن يأتى بمحمد حيا أو ميتا، فتسابق الفتيان ما بقي من النهار يبحثون فى الشعاب والدروب بلا جدوى، فلما غلبهم الليل، انكفئوا
عائدين إلى مضاربهم ! .

.. وحين ظهر بصيص من ضوء يوم جديد، عادوا إلى البحث مرة أخرى .

.. ومرت أيام ثلاثة .

.. والبحث والمطاردة للمهاجر لا ينقطعان .

.. ثم سكنت حركة الطلب، بعد أن يئس المتآمرون من أنهم سيلحقون به.

.. فى مساء الليلة الثالثة : تسلل عبد الله بن أريقط دليل الرحلة، فى غفلة من قريش، وقد صحب معه عامر بن فهيرة مولى أبى بكر، قاصدين جبل ثور ومعهما الراحلتان .

.. نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من فوق جبل ثور، يتبعه الصديق تارة، وتارة يتقدمه، مستطلعا الطريق، جاعلا من جسده درعا للحبيب .

.. وحين وصلا إلى سفح الجبل وجدا عامرا، وابن أريقط فى إنتظارهما، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقته، وركب أبو بكر الناقة الثانية ، وأردف عامر خلفه ..

.. وبدأت الرحلة إلى الصحاب من المهاجرين والأنصار بطيبة، وتخير الدليل طريق الساحل، ليبتعد قدر المستطاع عن الطرق التى اعتادت أن تسلكها قوافل
الحجيج والتجارة .

.. ولكن هل لهم أن يأمنوا جانب المغامرين، والباحثين عن المجد والسمعة، أو الفوز بالمائة ناقة ؟!! .

يقول سراقة بن مالك : إنه لما خرج محمد من مكة مهاجرا إلى طيبة، جعلت قريش لمن يرده عليهم مائة ناقة ؛ فبينما أنا جالس فى نادى قومى، إذ جاء رجل منا فقال :

ـ والله لقد رأيت ركبا لثلاثة مروا على آنفا، وإنى لأظنه محمدا .

فأومأت إليه بعينى، أن أسكت، وقلت :

ـ إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم .

قال :

ـ لعلهم كذلك .

.. وسكت، ولما انصرف القوم تبعتهم متخفيا لأري ماذا سيفعلون .

وحين اطمأن سراقة إلى أن القوم قد انطلت عليهم حيلته، وإلى أنه قد صرف
ذهنهم عن الحقيقة التى أدركها، فلقد تفرقوا كل لشأن ؛ أسرع عائدا إلى داره، ودعا جاريته وأمرها بأن تعد له فرسه الشهباء، وتضع فى ركابها زادا يكفيه عدة أيام، ثم استل رمحه، وتمنطق سيفه، وانطلق بفرسه مسرعا ليلحق بالمهاجر، وهو واثق كل الثقة من أنه لاحق بالمهاجر، وفائز بالمائة ناقة التى وعدت بها قريش من يعود إليها بمحمد.

.. وصدق حدث سراقة، وكان له ما توقع، فبعد مسيرة يومين وليلة، رأى عن بعد ليس بالبعيد الناقتين يتقدمهما الدليل، فاستحث فرسه فأسرعت فى عدوها، حتى كادت أن تمسك بمؤخرة الركب، وهنا صرخ فى نشوة المنتصر ملوحا برمحه، مسددا نصله ناحية رسول الله ، وقال :

ـ ما يمنعك منى اليوم يا محمد ؟ .

قال الحبيب صلى الله عليه وسلم في ثقة :
ـ يمنعني الجبار الواحد القهار .
وطار الرمح من يد سراقة، فقد انكفأت الفرس فجأة على وجهها عاجزة عن الحركة، فصاح سراقة وقد ارتمي واقعا على الأرض، مستجيرا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكي يطلق إساره وإسار فرسه ؛ فلما أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجائه، ودعا الله أن يطلقه : فأطلق، حدثت سراقة نفسه الأمارة بالسوء ، بأن يكر عليهم مرة ثانية، فما إن نخس بكعبيه الفرس لتبدأ ركضها، حتى بدأت ساقاها الأماميتان تغوصان فى
الصخور، ويتصاعد لغوصهما دوامة هائلة من الدخان،حملت معها ذرات من الرمال غطت ساقيه، وبطن فرسه، فما استطاع كرا، ولا استطاع فرا .
وأدرك سراقة أنه هالك لا محالة، وأنه فى مواجهة رجل قد حفظه الله، فامتلأ رعبا وصاح مستجيرا :
ـ الأمان يا محمد .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :
ـ قل له، وما تبتغي منا ؟ .
ونفذ أبو بكر ما طلبه الحبيب، وسأل سراقة فأجابه قائلا :
ـ تكتب لي كتابا يا محمد يكون آية بيني وبينك، على ألا أعود إلى المطاردة، وأن أكتم سرك إذا ما عدت إلى مكة .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :
ـ أكتب له .
فكتب أبو بكر كتابا فى رقعة، ثم رمي به إلى سراقة فتناوله من على الأرض، واستوت الفرس واقفة، وطلب سراقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يقبل ما يحمله من زاد هدية تساعدهم فى سفرهم الطويل، أو أن يأخذ قوسه وسهامه علامة لغلمان يرعون له قطعانا من الأغنام، فإذا ما عثروا بهم، قدموا إليهم السهام، فيعطيهم الغلمان ما يريدون من لبن أو خراف .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :
ـ قل له لا حاجة بنا فيما يعرض .
.. واستأنف ركب المهاجر سعيه إلى طيبة .
وعاد سراقة إلى مكة .
وأوفى بما عاهد عليه .
فكتم ما حدث حتى عن جاريته .

ـ ٥ ـ

وتمر أيام ..
وتتبعها أيام ..
وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل كلما غربت الشمس، ويتوقف حينما يشتد لهيبها، ليلجأ مع رفقته إلى الظل.
.. وسط قيظ الصحراء، وطول الرحلة، نفد منهم الماء، فأناخ الركب إلى جانب دار فى الخلاء يستريحون، فإذا بالدار لأعرابية تدعى " أم معبد "، فلما سألوها أن تبيعهم طعاما يطعمونه، أو لبنا يشربونه، قالت آسفة :
ـ لو كنا نملك شيئا من هذا لما أحوجناكم للسؤال، ولكننا لا نملك إلا هاتين الغنمتين الهزيلتين، وهما كما تريان لا لبن بهما، فاذهبوا إلى دار سيد القبيلة، فهو اقدر على أن يضيفكم .

.. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن "أم معبد" فى أن تسمح له بحلب إحدى نعجتيها، فأذنت منه إحداهما، وهي تعجب من طلبه غاية العجب، حتى صارت تخاطب نفسها، أكثر مما تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلة :

ـ والله لو بهما جهد لا لبن، للحقتا بصويحباتهما إلى المرعى، وما بقيتا تشقيانى بغثائهما .

مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم على ضرع النعجة، وسمى باسم الله تعالى، وتوسل بقدرة القادر، ثم طلب إناء، فجاءته الأعرابية بإناء من فخار، وهى متكاسلة غير راغبة، فلا أمل أو رجاء من وراء سعى الرجل الطيب، وكل ما سوف يحلبه من نعجتها : خيبة الرجاء !.

.. تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء، وبدأ يحلب النعجة، وهى مستسلمة تغثو فى حنو وخفوت، فإذا باللبن يتدفق بأمر الله تعالى فى الإناء، فلما امتلأ، ناوله لأبى بكر فكبر وسمى باسم الله ثم شرب، ثم أعاده إلى رسول الله، فدعا رفاقه لأن يقبلوا، فشربوا جميعا حتى ارتووا، وارتوت معهم الأعرابية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخرهم مشربا .

.. ثم ترك الإناء للأعرابية ممتلئا حتى حافتيه، فتناولته وهي ذاهلة مما يحدث، عاجبة من أمر هذا الوافد بالخير، الذي يتميز عن صحبه، بحب العزلة، وبالنظر طويلا إلى السماء، وكثرة مخاطبتها، وكثرة الحمد، ورفع اليدين بالدعاء، مع الإكثار من السجود، ولا تملك " أم معبد" لنبى الله إلا الشكر .

.. ومع ميل الشمس للغروب .

صلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي بكر وعامر، صلاة المغرب والعشاء جمعا، ثم تجهزوا لمغادرة الواحة، مودعين من " أم معبد " بالدعاء .

.. انطلق الركب معاودا مسيره الحذر إلى طيبة، فى خطوط متعرجة، ودروب غير مأهولة، رأي دليلهم أنها الأكثر أمنا وبعدا عن قوافل قريش، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستر وجهه حتى لا يعرف، وكانوا كلما عثروا بقافلة من قوافل التجارة، وهم يعبرون طريقا مأهولا، اتجه أهل القافلة إليهم، يسألون عن آخر أخبار مكة، ثم انثنوا

إلى أبى بكر، الذي يعرفهم ويعرفونه، وسألوه عن رفيقه، قائلين :

ـ من هذا الذي معك يا ابن قحافة ؟! .

فيصدقهم الصديق τ قولا حين يجيبهم :

ـ إنه هاد يهدينى إلى الطريق .

.. وهو ما كذب فيما قال .

.. فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم هاديا لأبى بكر، يهديه إلى طريق الله .

الفصل الحادى عشر :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ 

سورة الحشر

ويؤثرونهم

- ١ -

اعتاد الأنصار، أن يخرجوا إلى أطراف طيبة مع إشراقة كل صباح، بعد أن علموا بنبأ خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا إليهم، وعرفوا بما حاكت له قريش من مؤامرات لإيذائه أو قتله، وهو ما جعل القلق يأكل قلوبهم خشية على رسول صلى الله عليه وسلم .

لقد أحب الأنصار من الأوس والخزرج رسول الله من أعماق قلوبهم، رغم أنهم كانوا فى كثرتهم قد سمعوا به، وسمعوا عنه ولم يروه، ولكنهم رأوا صحبه ممن سبقوه فى الهجرة إليهم، فإذا كان أولئك المهاجرون، قد أصبحوا بحسن خصالهم، ونبيل سلوكهم : يتصدرون مجالسهم، ويتحركون داخل عيونهم، بما اكتسبوه من محبة وتقدير واحترام ؛ فما بالكم بالنبى الذى علم وربى ؟ .

.. ما بالكم بالحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، كيف سيكون، وأى رحمة وبركة ستحل بهم مع وصوله ؟.
.. كانوا راغبين بكل وجودهم ووجدانهم، فى أن يحظوا بلقاء الحبيب، فيروه رؤيا العين، وفى أن يعيشوا معه ويعيش معهم، هو وصحبه، إخوانا آمنين، بعد أن طحنتهم الحروب التى لم تنقطع بينهم كأوس وخزرج لسنوات طوال، إلا مع دخولهم فى دين الله .
كان الأنصار يقضون أغلب نهارهم فى الصعود إلى أعالى التلال والجبال، وفى التوجه إلى مداخل طيبة، يبحثون بالعيون والأقدام، فى الطرقات والدروب، ويسألون الوافدين عن الموكب المرتقب، فلا يجدون عندهم إجابة تطفئ قلقهم ؛ وحين تشتد عليهم شمس الظهيرة فتلهب جلودهم، يعودون إلى دورهم، والرجاء لا ينقطع فى تحقق ما يتمنونه مع ما تبقى من سويعات النهار، وهو ما يجعلهم يعاودون الخروج بعد صلاة العصر، ثم مع كل صبح جديد، يترقبون منتظرين، بلا كلل أو ملل .
ولما كان يوم الإثنين، الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وفد من أعلمهم بوصول ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء، فهلل الأنصار وكبروا، وحمدوا الله كثيرا على نجاة الحبيب محمدصلى الله عليه وسلم من مكر مشركى قريش .
أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه بقباء ثلاثة أيام، فى ضيافة كلثوم بن هدم، وقد بدءوا منذ اليوم الأول لوصولهم، فى تأسيس مسجد قباء، وخلال عملهم فى إرساء قواعد المسجد، كانوا يقيمون صلاة الجماعة فى أرض البناء، كما كان كلثوم وصحبه يفعلون منذ دخلوا فى الإسلام .
ثم لحق على بن أبى طالب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يغادر قباء إلى طيبة، بعد أن نفذ ما أوكله به الأمين ؛ فرد ما كان لديه من أمانات إلى أصحابها، ثم غافل قريشا، وخرج فى ظلام الليل، متتبعا خطوات رسول الله وصحبه إلى أرض المهجر .
وأشرق صباح يوم الجمعة ..
السادس عشر من ربيع الأول ..
فإذا بطيبة قد ازينت .
.. وأخذت زخرفها وتجملت .
.. حتى أنه ما من وافد أتاها فى ذلك اليوم، إلا وقال :
ـ والله ما شهدناك يا طيبة من قبل، على مثل هذا البهاء .
.. وجاء من أفصح بالسر وبين، قائلا :
ـ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وصل إلى ضاحية " الحرة "، ونزل بنخل بها، وهو آخذ طريقه إلى الطيبة المتطيبة .
.. تعالى نبض القلوب وازداد، فها هو ذا الحبيب قد أصبح إلى الأحضان أقرب من حبل الوريد، وتنادى المسلمون وخرجوا فيما يزيد على خمسمائة رجل، من الأنصار والمهاجرين، وقد تجهزوا بأسلحتهم، وتعاهدوا على فداء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما أراد به كائن من كان سوءا ؛ وكما توحدوا فى العهد، توحد فيهم الحلم، فكل رجل منهم يحلم بأن يكون له السبق فى رؤية الحبيب صلى الله عليه وسلم ومصافحته، فما إن اقتربوا منه حتى أحاطوا به كالسوار، والدمع يفيض من العيون فرحا بلقائه، والأيدى كل الأيدى، ممتدة فى شوق آملة فى عناق يده الشريفة، وهو صلى الله عليه وسلم يمد يده إليهم مصافحا ومستبشرا، فلم يترك يدا إلا وقد عانقتها يده .
.. وبعد أن هدأ منهم انفعال لحظات اللقاء الأولى، قال له الأنصار :
ـ اركب يا رسول الله إلى ديارنا فى عزة ومنعة .

وركب الحبيب صلى الله عليه وسلم ورفاقه إلى طيبة، وقد أحاط به جند الله، وراح الركب يتحرك ببطء شديد وسط أمواج من البشر لا تتلاطم، بل تتعانق وتتوحد وتذوب فى ذات واحدة، على عقيدة واحدة هى : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

- ٢ -

.. ظل من لم يخرج من أهل طيبة، يترقبون وفود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما اقترب وقت الظهيرة، صعد يهودى إلى تل مرتفع يبصر بأمر يخصه، وكانت الشمس قد اشتد هجيرها، فراح يتماوج كاللهب؛ ووسط هذا التماوج ابصر اليهودى برسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وقد لبس ثوبا أبيضا، فإذا بالنور قد أخذ يشع من حوله، بينما سحابة سحابة تظله، فارتاع اليهودى من هول المشهد، ولم يتمالك نفسه، وراح يصيح مناديا دون وعى، يقول :

- يا بنى العرب هذا حظكم الذى كنتم تنتظرون قد أقبل .

.. فتدافع لصراخه من بقى من المسلمين يهرولون فى لهفة، خارجين من دورهم إلى الطرقات، وهم ما بين ماش وراكب، وقد ارتدوا أبهى ما عندهم من ثياب، غير آبهين بحرارة الشمس، ولا بضياع لحظات إغفاءة القيلولة التى اعتادوا على الاعتكاف خلالها، بل لقد شاركهم كثير من اليهود فى الخروج للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغبة فى رؤية من تناقل الآباء منهم عن الأجداد : بشارة مبعثه، فهم يعلمون بمقدمه، قبل أن تتكلم به قريش .

.. فلما لحقوا بركب رسول الله صلى الله عليه وسلم خارج طيبة، اكتفى اليهود بمراقبة ما يحدث عن مبعدة، بينما انضم المسلمون إلى الركب .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما مر بحى من الأحياء، استقبله أهله من الأنصار، يتنافسون على استلام خطام ناقته، مهللين مكبرين، يدعونه إلى النزول بحيهم، وهو يشكر لهم دعوتهم، ويدعو لهم بالخير، ويطلب منهم أن يتركوا خطام الناقة فهى مأمورة ؛ إلى أن أدركتهم صلاة الجمعة على مشارف طيبة، بديار بنى سالم بن عوف، فتنادى الحضور للصلاة، وانعطف الموكب إلى الوادى، وتراص المصلون، فأصاب اليهود ممن رأوهم الرعب : حقا إنها ليست المرة الأولى التى يرون فيها المسلمين يتجمعون لصلاة الجماعة، فلقد رأوهم من قبل كثيرا وهم يصلون بطيبة، ولكنهم لم يكونوا على هذا القدر من العزم والهمة ، ولا على مثل هذا العدد والعدة، ولا على مثل هذا المشهد المهيب .

.. كان المسلمون متراصين، متوحدين، أحدهم لصيق أخيه، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وقد اشرأبت أعناقهم، وتعلقت عيونهم فى حب بوجه الحبيب محمد، متمنين أن تحفر قسماته داخل أفئدتهم، فلا تغادرها للحظة، متشوقين لسماع كلماته .

نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ناقته، ونظر إلى الحشد الحاشد أمامه، وهو يحمد الله كثيرا على ما أنعم به عليهم بأن جعلهم إخوانا متحابين .

ولعلك يا حبيبى صلى الله عليه وسلم وأنت تنظر إليهم فى تلك اللحظة قد رفرف قلبك مسبحا يقول : يا رب، هذه بشارة أمتى، أمة الموحدين الحامدين، قد تكاتفت وتآلفت على كلمة واحدة : لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلا إله إلا أنت سبحانك، واحد، أحد، فرد، صمد، ولك الحمد يارب على ما أنعمت به علينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ..

تخير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مكانا وسطا فى مواجهة جموع المصلين، ثم خطب فيهم، قائلا:

- الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادى من يكفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، ودنو من

الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا ؛ أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخر، وأن يأمره بتقوى الله عز وجل، فحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك ذكرا، وإن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر لآخرة، ومن يصلح الذى بينه وبين الله تعالى من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت، حين يفتقد المرء إلى ما قدم، وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا : "وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"، هو الذى صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك، فإنه يقول عز وجل : " مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ " فاتقوا الله فى عاجل أمركم وأجله فى السر والعلانية فإنه :" وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا " ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما، وإن تقوى الله توقى مقته، وتوقى عقوبته، وتوقى سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجوه، وترضى الرب، وترفع الدرجة ؛ فخذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله، فقد علمكم كتابه ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فاحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا فى الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين :" لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ " ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله تعالى، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه .

الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

.. توقف نبى الله صلى الله عليه وسلم لحظات، وجلس، ثم قام وواصل خطبته، قائلا :

ـ إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله فى قلبه،

وأدخله فى الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه .

أحبوا من أحبه الله، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده.

أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك ؟ . فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

.. وأقيمت الصلاة،والمسلمون متراصون فى صفوف متلاحمة، والكتف بالكتف، والقدم لصق القدم، والكل متوحد فى التوجه الواحد : لله الواحد، بينما الدمع يفيض على الوجوه، ويتساقط من على شعر الذقون فى فرحة وثقة وثبات عقيدة، واطمئنان لوجود القائد الذى ارتفع صوته مرتلا آيات القرآن العظيم، لتصل كلمات الله إلى الأفئدة فتقشعر منها الأبدان والجلود : فإذا ما استقام صلى الله عليه وسلم استقاموا، وإذا ما رتل صلى الله عليه وسلم

أنصتوا فى خشوع لكلام الله، وإذا ما ركعصلى الله عليه وسلم ركعوا، وإذا ما سجد سجدوا .

.. فلما انتهت الصلاة، امتدت الأيدى تتعانق فى مودة وعزم، وكأنها تتعاهد على ألا تتفرق أو تفترق .

.. ركب الحبيب صلى الله عليه وسلم ناقته، فحفت به مئات الأرواح تسنده وتسانده، ولم يركب أحد غيره، فلقد سار الجميع على أقدامهم يغبرونها محبة فى الله، وفى حبيب الله .

.. وتحرك ركب المسلمين الأول، ليواصل زحفه إلى طيبة، ووقع أقدامهم فوق الأرض يدكها دكا، فيبدو كدقات الطبول، بينما الأرض من تحتهم تهتز طربا وسعادة بما تحمل فوقها من رجال أطهار أخيار، يسعون لنصرة نبى الله صلى الله عليه وسلم ، الآتى بدين الله، منادية .. : اللهم زدنى منهم، فأزداد بهم شرفا وطهرا .

ـ ٣ ـ

.. أخذت طيبة تظهر وتقترب، وتتضح ملامحها ، وقد غشيها نور لم غشها من قبل، فتوهجت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنوار، وتألقت دورها التى بنى بعضها بالطوب اللبن وبنى البعض الآخر بالحجارة، مرتفعة عن الأرض ما بين طابق وطابقين، تحيط بها الحدائق المثمرة، وتفصل بين أحيائها غابات من أشجار النخيل باسقات شامخات، فهى ليست فى مجموعها كمكة، أحياء متلاصقة، بل هى وحدات متباعدة تسكن كل منها قبيلة من القبائل، أما طرقها فهى وسيطة لا هى بالضيقة ولا هى بالمتسعة .

وحين دخل الموكب إلى المدينة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ اللهم أجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة .

.. كانت الطرقات والساحات قد امتلأت بمن تبقى فيها من الصبية، أما النساء فقد اعتلين أسطح الدور، والكل مستبشر بمقدم الحبيب صلى الله عليه وسلم ، يريدون أن يحظوا برؤيته، وجميعهم ينشدون فى نشوة، راحت تهتز بها الكلمات، وأخذت تهتز لها السماوات :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وعاد أهل طيبة إلى التعلق بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلما مرت بدار من الدور، أو حى من الأحياء، وراحوا يعددون ما أنعم به الله عليهم من فضل ومنعة ومال ونسب، راجين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بينهم وأن ينزل بدورهم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم باسما :

ـ بارك الله فيكم، خلوا سبيل الناقة، فإنها مأمورة .

فلما مر بحى بنى بياضة، قال له سعد بن عبادة والمنذر بن النجار :

ـ نحن أخوالك،هلم إلى العدد والعدة، والعزة والقرابة، لا تجاوزنا لغيرنا، فإن قومك أولى بك .

.. فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تكرار قوله، وهو يشير إليهم بأن يتركوا زمام الناقة :

ـ إنها مأمورة .

.. ولعل قلبك الشريف فى هذه اللحظة يا حبيبى، قد خفق بذكريات الطفولة، وما قبل المولد .

.. فهنا يا حبيبى، على هذه الأرض شاء الله أن يمرض أبوك، ويتخلف عن قافلة التجارة التى قودته عليها قريش، ثم يموت ويدفن بترابها، لتتيتم وأنت ببطن أمك جنينا .

وهنا على ذات الأرض ماتت أمك بعد أن زارت قبر أبيك، وشاركت وأنت طفل، لم تتخط السادسة من عمرك فى دفنها، وبهذا فقدت أركان نصرتك ونصرة أى طفل : الأب والأم .

.. وكأنما شاء ربك الكريم، أن يجعل من بلد اليتم، بلد نصرة لك، فتكون هى وأهلها من الأنصار، أشد وأمنع من الأهل الذين قلوك، بعد أن خالفت ما وجدوا آباءهم عليه من شرك بالله، ثم ها هم أولاء قد أخرجوك من بينهم، فإذا أنت أكثر أثرة على المسلمين والمسلمات من إيثار : الأب لابنه، والأم لفلذة كبدها، بل إنهم ليؤثرونك على أنفسهم، ولو كانت بهم خصاصة .

فسبحانك اللهم ..

سبحانك يا حنان، يا منان .

.. بيدك الأمر .

وأنت على كل شئ قدير .

.. استمرت الناقة فى سيرها وقد علاها الحبيب صلى الله عليه وسلم ، والناس يسيرون ملتفين حوله، وقد تعلقت عيونهم فى شغف بوجهه الشريف، بينما أيديهم تتلمس ما تستطيع أن تصل إليه من جسده، فكأنهم نيام يريدون أن يتأكدوا من تجسد ما يرون، ومن كون الحبيب صلى الله عليه وسلم حقيقة بينهم، وليس رؤيا، كتلك التى يرونها فى نومهم، أو أمانى كتلك التى كانوا يتمنونها فى صحوهم .

.. وبعد طول مسير وترقب وانتظار، أناخت الناقة وحدها فى مربد لتجفيف التمر به عريش، وهو من حى بنو النجار، ولما حاول بعض المسلمين تحريكها، لتتجه إلى دورهم، فتكون لهم سعادة نزول الحبيب صلى الله عليه وسلم عليهم، ألصقت الناقة عنقها بالأرض، ورفضت التحرك من مكانها، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها قائلا :

ـ رب أنزلنى منزلا مباركا، وأنت خير المنزلين .

ولجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العريش يستظل به، فأسرع أبو أيوب الأنصارى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا، وهو يشير إلى دار من طابقين فى مواجهة المربد :

ـ هذه دارى، وهى الأقرب، أفلا تنزل عندى يا نبى الله ؟.

قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :

ـ نعم .

وحمل أبو أيوب متاع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى داره، وأخذ يسرع فى مشيه، وهو فى نشوة تفوق كل ما شعر به على مدى حياته مما كان يظنه سعادة، ولما أشار آخرون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن دورهم هى أيضا قريبة، قال صلى الله عليه وسلم يطيب خاطرهم :

ـ المرء مع رحله حيث كان .

ـ ٤ ـ

نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفا على دار " أبو أيوب "، وطلب أن يكون مقامه فى
دورها الأول، ورغم إلحاح صاحب الدار على الحبيب صلى الله عليه وسلم أن يكون هو فى دورها الأعلى، وقوله للحبيب راجيا :

ـ يا نبى الله، بأبى أنت وأمى إنى لأكره أن أكون فوقك وتكون تحتى، فاظهر أنت فكن فى العلو، وننزل نحن فنكون فى السفل .

فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم :

ـ انه من الأرفق بنا وبمن يغشانا، أن نكون فى سفل البيت .

واستراح رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلا، ثم توافد المسلمون من أنصار ومهاجرين لتحيته، وليسعدوا بالجلوس فى حضرته، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حوله عن أصحاب المربد التى أناخت بها الناقة، فعلم أنها مملوكة لصبيين يتيمين، وأن أسعد بن زرارة وبعض المسلمين يتخذونها مسجدا لصلاة الجماعة، ويستترون بشجرها وعريشها إذا ما اشتدت عليهم الشمس، فأرسل إلى الصبيين مع صحبه، فلما حضرا إليه، طلب منهما رسول الله صلى الله عليه وسلم شراء المربد ليقيم عليها المسجد، ولكن الغلامين قالا:

- بل نهبها لك يا رسول الله، خالصة لله .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أصر على أن يتقاضيا ثمن الأرض، لأنهما يتيمان، وفى سن لا تسمح لهما بالتصرف فى أموالهما، وقد أوصى رب العالمين باليتامى خيرا : "ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ."

.. وقد كان، واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض منهما بعشرة دنانير أداها لهما، أما الأرض التى كانت تحيط بالمربد فكان جزء منها بستانا، والجزء الآخر أرضا بوارا يمتلكها بنو النجار، ولقد أصروا على أن يهبوها خالصة لله ولرسوله .

وفى اليوم التالى، ما إن أدى المسلمون صلاة الصبح، حتى تنادوا للبدء فى بناء المسجد ؛ وتسابق الأنصار والمهاجرون إلى العمل، فرفع ما كان بالأرض من خبث، ونكت ما كان بها من عظام الموتى، ثم دفنت خارج المسجد، وقطعت جذوع النخيل، وصرف ما ظهر بالأرض من ماء، وحفر الأساس، وبنى بالحجارة، ثم بدأ ضرب الطوب اللبن، فكان يخلط الطين بزعاف النخيل، ويصنع على شكل قوالب كبيرة، تصف على الأرض، وتترك فى الشمس لتتماسك وتجف، ثم تحمل لتبنى بها حوائط المسجد .

.. كان النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه أصحابه، يشاركون فى البناء، فكان صلى الله عليه وسلم يحمل الأحجار، وقوالب الطوب حتى يتغبر صدره، ولقد حاول كثير من المسلمين، مرات عديدة، أن يثنوا رسول اللهصلى الله عليه وسلم عن العمل، لينهضوا هم به، حياء من قدره، ولمكانته العظيمة فى قلوبهم، ولكنهصلى الله عليه وسلم ظل يرفض قول من يقول له :

- يا رسول الله اعطنى هذا الحجر أحتمله عنك .

.. ويجيب قائلا صلى الله عليه وسلم فى تواضع :

- اذهب فاحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله منى .

وهكذا تتكرر الأحداث عبر الأيام، فها هو إمام المسلمين ونبيهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يشارك فى بناء ثانى أعز ثلاثة أماكن على المسلمين : الكعبة المشرفة، ومسجد رسول الله، والمسجد الأقصى، فلقد شارك فى شبابه قريشا فى بنائها الكعبة، بل لقد وضع الحجر الأسود بيديه فى مكانه، حين اختلفت بطون قريش على من يكون أحقهم بوضعه، ثم ها هو ذا يعود ليعمل فى بناء مسجده بالمدينة المنورة دار الهجرة والمستقر، وليكرم رب العزة سبحانه وتعالى مسجده، نزل فيه قوله تعالى بسورة التوبة : لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ صلى الله عليه وسلم (١٠٨)

- ٥ -

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما انتهى من البناء، يذهب فى المساء، إلى دار " سعد بن خيثمة "، وكان "سعد" بلا زوجة، وكان يؤوى فى داره العزاب من مسلمى مكة، ومن هاجر منهم دون زوجاتهم، فيجلس صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، وإلى من يفد عليهم من المسلمين يدارسهم القرآن ويرتله معهم، ويحفظهم ما يتنزل به جبريل υ، ويناقشهم فى أمور دنياهم تفقيها لهم فى أمور دينهم، وكان يحثهم على أن يتحابوا فى الله، وأن يبتعدوا عن الظلم والتظالم، فالظلم ظلمات، ويذكرهم بما أوحى إليه عن رب العزة Ψ أنه قال :

ـ يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما، فلا تظلموا، يا عبادى، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم، يا عبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى، لو أن أولكم وأخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندى، إلا كما ينقص المخيط، إذا أدخل البحر، يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه .

.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبارك عمل من أحسن عملا، ويعلم فى حلم وصبر لا ينفد : من يجهل، أو تاه منه السبيل، فينصحه ويهديه إلى طريق الرشاد .

.. جاءه فتى وهو فى صحابته وقال :

ـ يا رسول الله ائذن لى فى الزنا .

فصاح الصحابة فى غضب مستنكرين مقولة الفتى، فتحريم الله تعالى للزنا شديد فى قوله بسورة الإسراء :

ـ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا صلى الله عليه وسلم ٣٢) ، وأكد ذلك فى قسوة الجزاء الذى رصده لمن يقدم عليه فى قوله سبحانه وتعالى : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وسلم ٢) سورة النور

.. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرع يسكتهم، وقرب الفتى منه، وسأله فى أناة قائلا :

ـ أتحبه لأمك ؟ .

قال الفتى :

ـ لا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ وهكذا الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لأختك ؟ .

قال الفتى :

ـ لا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ وهكذا الناس لا يحبونه لأخواتهم، أتحبه لعمتك ؟ .

قال الفتى :

ـ لا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ وهكذا الناس لا يحبونه لعماتهم، فاكره لهم ما تكره لنفسك، وأحب لهم ما تحبه لنفسك .

قال الفتى وقد أخذته رعدة، وتنزلت الخشية من الله فى قلبه، وسال الدمع على خديه مدرارا :

ـ أدع لى يا رسول الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يمسح على صدر الفتى :

ـ اللهم حصن فرجه، وطهر قلبه، وأغفر له ما تقدم من ذنبه .

.. وغشيت الصبى راحة، وقد انهد شيطانه، وسط تكبير الموجودين، واستبشارهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

.. كان المسلمون يسارعون ببشائر ثمارهم، ليقدموها إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم فيتلقاها مستبشرا ويضعها على عينيه، وهو يقول :

ـ اللهم بارك لنا فى ثمرنا وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه .

وبعد أن ينتهى من دعائه، يعطى أصغر من حوله سنا ذاك الثمر .

ـ ٦ ـ

.. يقول حبر يهود المدينة عبد الله بن سلام :

ـ لقد وجدت أهل الإسلام يسعون كل ليلة فى عزم، وقد تجمعت خطاهم متجهة إلى دار " سعد بن خيثمة "، فراودتنى نفسى أن أكتشف سرهم، فسرت معهم، ولم أكن قد دخلت فى دين الله بعد، فوجدتهم يقصدون من وراء هذا السعى لأن يجلسوا إلى رجل ذى هيبة ووقار، يجلس بين كوكبة من الصحاب، لا يتميز من بينهم، إلا بأنه يتكلم، بينما هم ينصتون إليه فى خشوع، فلما تبينت وجهه، عرفت أنه ليس بوجه كذاب، وكان أول شئ سمعته منه قوله :

ـ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة فى سلام .

فلما كان ثانى الأيام، ذهبت إليه بدار " أبى أيوب "، وقلت له :

ـ أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بالحق، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فأدعهم فسلهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت، قالوا فى ما ليس فى .

.. ورجعت إلى أهلى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت الأمر عن اليهود .

.. بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب أحبار اليهود، وهو بدار سعد، فقدموا عليه، وعبد الله بن سلام مختبئ، فقال لهم :

ـ يا معشر يهود ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا، وأنى جئتكم بحق فأسلموا .

قالوا منكرين :

ـ ما نعلمه .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ .

قالوا :

ـ سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ أفرأيتم إن أسلم ؟ .

قالوا :

ـ حاش لله ما كان ليسلم .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ يا ابن سلام اخرج عليهم .

.. فخرج " ابن سلام " عليهم، وقال لهم :

ـ يا معشر يهود، اتقوا الله، فو الله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق.

قالوا :

ـ كذبت، فأنت شرنا وابن شرنا .

قال :

ـ يا رسول الله هذا الذى كنت أخاف .
قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ لا تحزن يا ابن سلام، فلقد قال فيهم رب العالمين فى قرأنه العظيم : وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ صلى الله عليه وسلم ٨٩) سورة البقرة

ـ ٧ ـ

.. وتمر الأيام والشهور .
والمسجد يعلو، ويرتفع البنيان، فلقد تسامقت جدرانه، وبنيت قبلته من الحجر المنضد وكانت إلى بيت المقدس، وعن يمينها كان جذع نخلة بدلا من المنبر، وجعلت أعمدة المسجد من جذوع النخيل، وفرشت أرضه بالحصى، وكانت مساحته تزيد على الأربعة آلاف ذراع، أما السقف فقد عرش بسعف النخيل وغطى بالطين، وجعل للمسجد ثلاثة أبواب : باب الرحمة، وباب النساء، وباب جبريل، وهو الباب الذى يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه يفتح على داره، وجعلت فى الجهة الجنوبية من الجامع، مظلة من سعف النخيل، فكان يلجأ إليها الوافدون من خارج المدينة، والمهاجرون ممن ليست لهم دور، وسميت بالصفة .
.. وأثناء البناء مات بقباء كلثوم بن هدم، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنه، وقام على قبره، ثم لحق به " أبو امامة "، فقالت اليهود والمنافقون ساخرين :
ـ لو كان محمد نبيا بحق لما مات صاحبه .
.. ولقد تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من قولهم، وقال :
ـ لبئس الميت أبو أمامة، اليهود ومنافقو العرب يقولون : لو أن محمد نبى ما مات صاحبه، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئا .
.. ولقد حاول بعض المقتدرين من المسلمين أن يزخرفوا المسجد، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
ـ ما أمرت بتشييد المساجد لنزخرفنها، كما زخرفت اليهود والنصارى .
.. وقال أيضا :
ـ لا تقوم الساعة حتى يتباهى فى المساجد .

ـ ٨ ـ

منذ القدم كانت العداوة والبغضاء مستعرة بين الأوس والخزرج، وكان اليهود ينفخون دائما فى نارها كلما هدأت ليشعلوا جذوتها، ولكن بعد دخول الكثرة من القبيلتين فى دين الله، استطاع الإسلام أن يؤلف بينهم، ونزل جبريل بقول من الله تعالى بسورة آل عمران، يحضهم على التمسك بنعمة الله "*وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ صلى الله عليه وسلم ١٠٣) وإذا كان الحث على التآلف والاعتصام بدين الله، واضح كل الوضوح فى هذه الآية، فإن التحذير الإلهى بالبعد عن التفرق والعداوة واضحا كل الوضوح ، فلقد شبه التفرق بحفرة من النار ..
: إذن أليس من الكياسة أن يكون هناك عقد يؤاخى بين كل هذه العناصر، ويكون ميثاقا بينهم، يتواثقون عليه أمام الله ورسوله ؟ .
.. استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنس بن مالك أن يدعو إلى داره الأوس والخزرج والمهاجرين، وتنادى المسلمين، فلما تجمعوا كانوا تسعين رجلا أو يزيد، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يتآخوا فى الله، قائلا :
ـ تآخوا فى الله أخوين أخوين .

.. فلبوا دعوته بلا تردد، وأخذ كل واحد ممن حضروا اللقاء يتخذ له أخا، وأوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تواصوا ويرث بعضهم بعضا بعد الممات، فلم يبق إلا على، فقال τ وقد دمعت عيناه :

ـ يا رسول الله قد آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بينى وبين أحد .

.. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد على بن أبى طالب، وضرب عليها قائلا :

ـ أما ترضى أن أكون أخاك .

قال على τ :

ـ بلى يا رسول الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ فأنت أخى فى الدنيا والآخرة .

.. وهكذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أول خطوة فى بناء قواعد راسخة للأمة، توحيدا بين أهم عناصرها من المسلمين الذين فى أصولهم ينتمون لعناصر ثلاثة : الأوس والخزرج والمهاجرين، ثم أضيف إليهم عنصر رابع وهم غير المسلمين من يهود وغيرهم .

.. وظهرت الأثرة بين الأنصار والمهاجرين تهز القلوب هزا، فلقد أصر من يملك مالا أو دارا، على أن يقتسم ما يملك مع أخيه فى حياته، ولكن المهاجرين رفضوا، واكتفوا بأن يكون الاقتسام فى ثمار الزرع والتجارة.

.. بل لقد وصل حد الأثرة بسعد بن الربيع، أن يقول لعبد الرحمن بن عوف:

ـ هاك مالى، فاقتسمه معى، وهاك زوجتى،اختر إحداهما فأنزل لك عنها فتتزوجها بعد أن تنقضى عدتها .

.. فإذا بعبد الرحمن τ يرد عليه قائلا :

ـ بارك الله لك فى زوجك ومالك، إنما دلنى على السوق لأتجر وأربح .

أما البقية من الذين ليس لهم سبيل على التجارة، فلقد اشتغلوا بالزراعة مع إخوانهم من الأنصار، ونزل فيهم قول الله تعالى سورة الحشر: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ صلى الله عليه وسلم ٩)

.. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع ويرى، ويحمد الله على ما أنعم به على عباده من الأنصار والمهاجرين، فجعلهم إخوانا متحابين :

وجاءه الوحى ينبئه برضا الله تعالى،عما قضى به من مؤاخاة، وبما صاغ من عهد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصيهم :

ـ أنصر أخاك ظالما أو مظلوما .

قالوا :

ـ يا رسول الله ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما ؟! .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ بمنعه عن ظلمه .

ويؤكده بقول الله تعالى فى سورة الأنفال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .

.. وتنادى بعض من المهاجرين، بالمؤاخاة لمن بقوا فى مكة من المسلمين، ووتتابع كلمات الآية من ذات السورة، فى قول الله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ صلى الله عليه وسلم ٧٢)

.. وحسمت القضية، ولم يعد أحد من المهاجرين للخوض فيها .

.. ولقد وصل الحال من كثرة ما أغدق الأنصار من رعاية وحب على المهاجرين، أن المهاجرين قد خشوا من ضياع أجرهم عند رب العالمين، فلقد فاق عمل الأنصار أعمالهم، فذهبوا إلى رسول الله، قائلين:

ـ يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل، ولا أحسن بذلا فى كثير، مثل الأنصار، لقد كفونا المئونة، وأشركونا فى المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم .

: ما أروع نصحك يا حبيبى : ما أثنيتم عليهم ، ولم لا وقد قال الله تعالى فى سورة إبراهيم : " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ."

الفصل الثانى عشر :

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

المدرسـة

- ١ -

لما انتهى بناء المسجد، هفت أفئدة المسلمين إليه، وزاد من تعلقهم به، وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه دائما، فتكاد تكون حياته كلها قائمة بالمسجد، فهو لا يغادره إلا للنوم، أو لقضاء حاجة .

توافدت جموع المسلمين على مسجد رسول الله، من يقيم منهم بالمدينة، ومن يفد من البادية، وانتظمت فى مداومة ترددها عليه، لأداء الصلاة، أو للجلوس بين يدى نبى الله، وكان صلى الله عليه وسلم يقول ممتدحا عملهم :

- ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة،وذكرهم الله فيمن عنده.

يقول الله عز وجل، فى حديث قدسى : أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإذا ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ، ذكرته فى ملأ خير منه، فإن اقترب إلى شبرا، اقتربت إليه ذراعا، وإن اقترب إلى ذراعا، اقتربت منه باعا، وإن أتانى مشيا أتيته هرولة .

ويرتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العزة سبحانه وتعالى قوله فى سورة التوبة :

ـ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ صلى الله عليه وسلم ١٨)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ من بنى مسجدا ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتا فى الجنة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس .

ـ صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا الحرام.

ـ ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة، ومنبرى على حوضى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم، وقد وجد أحدهم قد تفل فلصقت بصقته بقبلة المسجد :

ـ إن أحدكم إذا قام فى الصلاة فإنما يناجى ربه، فلا يبصقن أحدكم قبل قبلته .

ثم مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم البصقة بطرف بردته .

وفد أعرابي من البادية،ليسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أمور دينه، فلما ولج إلى المسجد انفرد بركن منه، وبال على أرضه، وحين هم بعض الصحابة بزجره، أسكتهم الحبيب صلى الله عليه وسلم قائلا فى رحمة :

ـ لا تروعوه .

ولما انتهى الأعرابى من قضاء حاجته، أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزجره، ولم يعلن الحرب على عشيرته، ولا أمر بهدم مضاربهم، كما فعل " أبرهة الأشرم "، فى الماضى البعيد، لما أحدث أعرابي فى كنيسته، فقدم على مكة يريد أن يهدم الكعبة؛ بل هش فى وجهه، وقال لمن حوله :

ـ إنما جعلت المساجد للطهر وللصلاة .

ثم أمر بوعاء به ماء، وصار ينثره على بول الأعرابى .

ـ ٢ ـ

.. كان يجمع للصلاة فى المسجد بغير دعوة، فيفد بعض المسلمين بعد انتهاء صلاة الجماعة، فيأسى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين فاتهم ثوابها، فصلاة الجماعة بعشر صلوات منفردة، وهو ما كان يجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب من بعض أصحابه إعادة الصلاة مع من وفد متأخرا، قائلا :

ـ من يأخذ ثواب أخيه ؟.

.. ولقد شغل ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبحث عن سبيل لتنبيه المسلمين إلى مواقيت الصلاة، وحين أخبر أصحابه بأنه يريد أن يعلن بالصلاة، قال البعض :

ـ لنعلن عن موعدها بالبوق .

ولم يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

ـ هو من أمر اليهود .

قال البعض الثانى :

ـ لنعلنها بالناقوس .

.. ولم يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

ـ هو من أمر النصارى .

قال البعض الثالث :

ـ لو رفعنا نارا .
.. ولم يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :
ـ ذلك للماجوس .
وانفض المجلس دون الوصول إلى رأى، ولحظ " عبد الله بن زيد " وهو نفر من الأنصار، انشغال بال رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر، فعز عليه أن يكون الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم على مثل هذا الحال، ونام ليلته وهو مهموم، فأتاه آت فقال له :
ـ إيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمره أن يقول : الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله .
ثم جلس القائل قليلا، ونهض يقول : الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله ."
قام عبد الله من نومه منشرح الصدر، فلقد ذهب عنه الهم، وأسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بما أرى، فقال الحبيب صلى الله عليه وسلم لعبد الله :
ـ إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى، فقم إلى بلال فألق عليه ما رأيت، ليؤذن به فإنه ندى الصوت .
.. وكان جبريل υ قد جاء نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فى ذات الليلة بمثل ذلك، فلما صعد بلال إلى حائط المسجد ونادى للصلاة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول مثل ما يقول بلال، عدا : حى على الصلاة، حى على الفلاح، فلقد كان رسول الله يقول :
ـ لا حول ولا قوة إلا الله .
فإذا ما انتهى الأذان، قال :
ـ اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، صل على محمد وأعطه سؤله يوم القيامة .
وعند أذان الإقامة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثلما يفعل عند الأذان، وعندما يقول المؤذن : قد قامت الصلاة، يقول :
ـ أقامها الله وأدامها .
.. وحين تجمع المسلمون للصلاة، إذا بعمر بن الخطاب يقبل مهرولا، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ والذى بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت فى نومى مثل الذى أرى .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ فلله الحمد فذلك ثبت .

ـ ٣ ـ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم المصلين، وهو يعلم تمام العلم مدى التصاق عيونهم بحركاته وسكناته ليتأسوا به، وتلهف آذانهم لالتقاف كلماته ليتعلموا منها ويعلموا، فهو النبى المقتدى .
كان ُيعلمهم كل شئ، بدءا بإظهار وضوئه خارج المسجد، فيؤتى له بالإناء، فيسمى اسم الله، ثم يصب على يديه فيغسلهما ثلاثا، ثم يحسو بكفيه من الإناء فيتمضمض ثلاثا، ثم يستنشق ثلاثا، ويغسل وجهه ثلاثا،ويغسل ذراعه اليمنى فاليسرى ثلاثا حتى المرفقين، ثم يمسح على رأسه ثلاثا، ويمسح بأذنيه، ثم يغسل رجليه ثلاثا بادئا باليمنى ثم اليسرى .
ويقول أثناء وضوئه :
ـ اللهم اغفر لى ذنبى، ووسع لى فى رزقى .

.. وكان صلى الله عليه وسلم يقول عن ماء الوضوء :
ـ الماء لا ينجسه شئ، إلا ما غلب على : طعمه وريحه ولونه .
.. وإذا لم يكن هناك ماء تيمم، فضرب الأرض بكفيه ومسح على وجهه، ثم ضربها ومسح على يديه، ويكرر ذلك كل صلاة إذا لم يتوافر الماء .
.. وحين يتجه صلى الله عليه وسلم إلى المسجد، يقول وهو يدخله :
ـ اللهم صل على محمد، اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك .
فإذا اجتمع المسلمون للصلاة، دعاهم لأن يسووا صفوفهم، ويصفهم بيديه، أو بإشاراته، قائلا :
ـ استووا، أقيموا صفوفكم وتراصوا، لا تختلفوا فتختلف قلوبكم .
فإذا ما اطمأن إلى تراص الصفوف، اتجه إلى القبلة رافعا ذراعيه مكبرا، ثم وضع يديه على صدره، اليمنى فوق اليسرى، واستغرق فى ذكر الله، وراح يناجى ربه فى سره قائلا :
ـ وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك الحق لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، أنت ربى وأنا عبدك، لا شريك لك، ظلمت نفسى، واعترفت بذنبى، فاغفر لى ذنوبى جميعا، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق، وأحسن الأعمال، لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها، وقنى سئ الأعمال وسئ الأخلاق، لا يصرف سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله فى يديك، والشر ليس إليك، الهدى من هديت، فأنا بك وإليك، لا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك .
.. وكان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا ما انتهت صلاة الفجر، أن يبقى فى مجلسه يذكر الله، ثم يستدير إلى جموع الحاضرين يدعو قائلا :
ـ اللهم إنى أعوذ بك من كل عمل يخزينى، وأعوذ بك من كل غنى يطغينى،
وأعوذ بك من كل صاحب يردينى، وأعوذ بك من كل أمل يلهينى، وأعوذ بك من من فقر ينسينى .
وكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ اللهم إنى أسألك رزقا طيبا،وعلما نافعا، وعملا متقبلا.
ويرفع صوته ليسمع أصحابه دعاءه، مكررا كل دعاء ثلاث مرات :
ـ اللهم أصلح لى دينى الذى جعلته عصمة أمرى .
اللهم أصلح لى آخرتى التى جعلت إليها مرجعى .
اللهم أصلح لى دنياى التى جعلت فيها معاشى .
اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك .
اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
ـ لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من بعد صلاة الفجر إلى أن تطلع الشمس، أحب إلى من أن أعتق أربعة من بنى إسماعيل، دية كل رجل منهم اثنا عشر ألفا، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من بعد صلاة العصر الى أن تغرب الشمس، أحب إلى من أن أعتق أربعة من بنى إسماعيل، دية كل رجل منهم اثنا عشر ألفا .
جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بالمسجد يوما، فقال :
ـ أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون يبقى ذلك من درنه شيئا ؟.
قال الحاضرون :
ـ لا يبقى ذلك من درنه شيئا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله تعالى بها الخطايا .
فإذا ما انقضت الصلاة، وختم الدعاء، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج من المسجد قال :
ـ اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب فضلك .
جاء رجل إلى المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس، ومعه صحابته، وقال :
ـ يا رسول الله إنى أصبت حدا فأقمه على .
فتشاغل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعاد الرجل مقولته، فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن لإقامة الصلاة، وقام الحاضرون إلى صلاتهم، فلما انقضت، انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتبعه الرجل، وأعاد عليه ما قاله من قبل، فقال له الحبيب :
ـ أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء ؟.
قال الرجل :
ـ بلى يا رسول الله .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ثم شهدت الصلاة معنا ؟.
قال الرجل :
ـ نعم يا رسول الله .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ فان الله تعالى قد غفر لك ذنبك .
: ألا ما أرحمك يا حبيبى .
: وما أعظم صبرك .
: وما أشرح صدرك .
ذات يوم، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل، فقال :
ـ يا رسول الله، لقد ربحت اليوم ربحا ما ربحه أحد من أهل هذا الوادى .
فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ويحك، وما ربحت ؟.
قال الرجل :
ـ ما زلت أبيع وأبتاع، حتى ربحت ثلاثمائة أوقية .
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أفلا أنبئك بخير وأربح ؟.
قال الرجل :
ـ ما هو يا رسول الله ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ركعتين بعد الصلاة .
سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أى الأعمال أفضل ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ الصلاة لأول وقتها .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصحا بعض ضيوفه :

ـ عليك بكثرة السجود، فانك لا تسجد سجدة لله تعالى، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع،واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع .
ـ من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك .
ـ بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة .

ـ ٤ ـ

.. كان من يغدون على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحبون أن يسألوه فى أمور دينهم، زيادة فى العلم، واستزادة فى التفقه، ولما سألوه عن الصوم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى : إلا الصوم، فإنه لى، وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى .
ـ للصائم فرحتان : فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .
وقال :
ـ الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن شاتمه أحد أو قاتله، فليقل : إنى صائم، إنى صائم .
ـ من صام يوما فى سبيل الله تعالى، جعل الله بينه وبين النار خندقا كما بين السماء والأرض .
ـ إن فى الجنة بابا يقال له باب الريان، لا يدخله إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد .
ـ إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وسلسلت الشياطين، وينادى مناد كل ليلة : يا باغى الخير هلم، ويا باغى الشر أقصر .
.. ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحج والعمرة، قال :
ـ جهاد الصغير والكبير، والضعيف والمرأة : الحج والعمرة .
قال أبو هريرة τ :
.. خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فقال :
ـ يا أيها الناس، قد فرض عليكم الحج فحجوا .
فسأله رجل :
ـ أفى كل عام يا رسول الله ؟.
فسكت رسول الله، حتى قالها الرجل ثلاث مرات، ثم قال :
ـ ذرونى ما تركتكم، لو قلت : نعم، لوجبت ولما استطعتم، إنما أهلك من قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإن أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شئ فاجتنبوه .

ـ ٥ ـ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه، ويحبب إليهم التعلم، فكان ينقل إليهم بعض ما يحمله إليه جبريل υ من علم، ولا يفصح به كله، فهو ينبئهم بما تطيقه أفئدتهم، لأنه لا

ينسى كيف ارتعدت الأفئدة، واهتز اليقين، حين سمع المسلمون الأول بأمر إسرائه ومعراجه، فما بالكم لو قال بما يوحى إليه من السماء من أمور الغيب، إذن لاختلت العقول ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ من سلك طريقا يطلب به علما، سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وان الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العلم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء، وأن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر .

.. ويحض رسول الله صلى الله عليه وسلم على التعلم، فيقول :

ـ من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين .

ـ من خرج فى طلب العلم، فهو فى سبيل الله حتى يرجع .

ـ من سئل عن علم فكتمه، ألجم بلجام من نار .

ـ ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا .

.. ولقد شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء ذات يوم وهو فى مجلسه، وكثيرا ما يفعل، ثم قال :

ـ هذا أوان يختلس العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شئ .

وتساءل " زياد بن لبيد الأنصارى " دهشا، قال :

ـ كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن، والله : لنقرأنه ونقرأنه أولادنا ونساءنا ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ إنى كنت لأعدك يا زياد من فقهاء المدينة، هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغنى عنهم ؟.

وقام " زياد " وفكره مشغول بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يدرك معناه، فلقى " عبادة بن الصامت " τ فحدثه بما سمع، فقال له عبادة :

ـ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن شئت أخبرتك ما أول علم يرفع : أول علم يرفع من الناس الخشوع، يوشك أن تدخل المسجد الجامع، فلا ترى فيه رجلا خاشعا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ تعلموا الفرائض والقرآن، وعلموا الناس فإنى مقبوض .

ذات يوم، بينما بعض الصحابة، جلوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسجد، طلع عليهم رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منهم أحد، حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد أسند ركبتيه إلى ركبتيه، وقال :

ـ يا محمد أخبرنى، عن الإسلام ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال الرجل :

ـ صدقت .

وتعجب الصحابة من أمر الرجل، يسأل رسول الله ويصدقه، ثم قال الرجل :

ـ فأخبرنى عن الإيمان ؟ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره .
قال الرجل :
ـ صدقت، فأخبرنى عن الإحسان ؟ .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك .
قال الرجل :
ـ صدقت، فأخبرنى عن الساعة ؟ .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ما المسئول عنها بأعلم من السائل .
قال الرجل :
ـ فأخبرنى عن إماراتها ؟ .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان .
.. ثم انطلق الرجل خارجا من المسجد، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صمت مليا، ثم التفت إلى عمر بن الخطاب، وقال :
ـ يا عمر أتدرى من السائل ؟ .
قال عمر :
ـ الله ورسوله أعلم .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

ـ ٦ ـ

.. سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الصلاة، عن القضاء والقدر، فقال :
ـ قال موسى : يا رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة . فأراه الله أباه آدم υ، فقال : أنت أبونا آدم ؟ . قال : نعم . فقال : أنت الذى نفخ الله فيك من روحه، وعلمك الأسماء كلها، وأمر الملائكة فسجدوا لك ؟. قال : نعم . فقال : فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟. قال آدم : ومن أنت ؟ . فقال : أنا موسى . قال: أنت الذى اصطفاك الله برسالاته، أنت نبى بنى إسرائيل الذى كلمك الله من وراء الحجاب، ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه ؟. فقال : نعم . قال : فما وجدت ذلك فى كتاب الله قبل أن أخلق ؟. فقال : بلى . قال : فيم تلومنى، فى شئ سبق من الله فيه القضاء قبلى ؟!.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى عليهما السلام .
.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لصحابته ناصحا :
ـ لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر، خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه، لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.
ـ من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله تعالى، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله تعالى، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله تعالى .
ـ المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ، فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان .

ـ ان خلق أحدكم : يجمع فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب :رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح ؛ فوالذى لا إله إلا غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

ـ لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر ؛ فمن مات منهم فلا تمشوا فى جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال .

جاءه " سراقة بن مالك بن جثعم " τ ، فقال :

ـ يا رسول الله، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن : فيم العمل الآن ؟ .. أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل ؟ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ لا . بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير .

قال سراقة :

ـ ففيم العمل ؟ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، وكل عامل بعمله .

ـ ٧ ـ

.. فرضت الزكاة على المسلمين فى مسجد نبى الله صلى الله عليه وسلم ، تأكيدا على روح المؤاخاة بينهم، وعلى التكافل، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذها من المقتدرين منهم، ويعطيها لفقرائهم، وبهذا اكتملت أركان الإسلام الخمسة :

ـ "* خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ."

ـ "* يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ."

ـ " * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ."

.. وذات يوم، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، فقال :

ـ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن : لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة .

جاءه رجل، وقال له :

ـ يا رسول الله، عندى دينار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ تصدق به على نفسك .

قال الرجل :

ـ عندى آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ تصدق به على ولدك .

قال الرجل :

ـ عندى آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ تصدق به على زوجك .

قال الرجل :

ـ عندى آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ تصدق به على خادمك .
قال الرجل :
ـ عندى آخر .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أنت أبصر به .
.. دخل المسجد رجل على هيئة توحى بالفاقة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالصدقة، فتصدق الناس، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل ثوبين، ثم قال صلى الله عليه وسلم :
ـ تصدقوا .
فأعطاه الرجل أحد الثوبين، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :
ـ أترون إلى هذا الذى رأيته فى هيئة بذة فأعطيته ثوبين، ثم قلت تصدقوا، فطرح أحد ثوبيه .
ومد يده بالثوب يعيده إلى الرجل، قائلا :
ـ خذ ثوبك .
.. جاءه رجل بمثل بيضة من الذهب، فقال :
ـ يا رسول الله، أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة .
فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصار الرجل يكرر قوله، فأخذها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ردها إليه، وقال:
ـ يأتى أحدكم بما يملك فيقول : هذه صدقة، ثم يقعد يتكفف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول .
ـ إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، فلها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما اكتسب، وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئا .
ـ لا تنفق المرأة من بيت زوجها إلا بإذنه .
قيل :
ـ يا رسول الله ولا الطعام ؟ .
قال :
ـ ذلك أفضل أموالنا .
ـ العائد فى صدقته، كالعائد فى قيئه .
ـ ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان : من عبد الله وحده، وعلم أنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة، ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله تعالى لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره .
سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
ـ ما الإيمان، وما الإسلام يا نبى الله ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من شعب الإيمان، فأفضلها قول : لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق .
ـ ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، كما يكره أن يلقى فى النار .
ـ من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان .

ـ من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من عمل .

ـ والذى نفس محمد بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار .

ـ يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

ـ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ـ عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

ـ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت .

ـ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم .

قال رجل :

ـ يا رسول الله، أى الإسلام خير ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .

ـ إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، كتب الله له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، وكان بعد ذلك القصاص، كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يجاوز الله عنها .

ـ من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله، دخل الجنة .

قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم

ـ أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا أدخل الجنة .

قال أحد الصحابة :

ـ وإن زنا، وإن سرق ؟.

قال : وإن زنا، وإن سرق .

.. وعنه أنه قال صلى الله عليه وسلم :

ـ أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة، من قال : لا إله إلا الله خالصة من قلبه .

ـ كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ـ ٨ ـ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض على مكارم الأخلاق، ويقول :

ـ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ويدعو ربه قائلا :

ـ اللهم كما أحسنت خلقى، فحسن خلقى .

ـ إن صاحب الخلق، يبلغ به يوم القيامة درجة الصائم القائم .

ـ اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن .

ـ من حسن الخلق ترك مالا يعنيك .

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فقال لهم :

ـ إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تتجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تنابذوا، وكونوا عباد الله إخوانا، كما أمركم الله تعالى : المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ؛

كل المسلم على المسلم حرام : ماله، ودمه، وعرضه ؛ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .
.. وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يشير إلى صدره، ويقول :
ـ التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا .
ـ ألا لا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.
ـ مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعت له سائر الجسد بالسهر والحمى .
ـ من غشنا فليس منا .
ـ من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورا، لم يرض الله له ثوابا دون الجنة .
ـ أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما .
ـ يقول الله تبارك وتعالى :وجبت محبتى للمتحابين فى، وللمتجالسين فى، وللمتزاورين فى، وللمتباذلين فى.
ـ ان من عباد الله ناسا ما هم أنبياء، ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها ؛ فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس .. وقرأ صلى الله عليه وسلم هذه الآية : "* ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ."
ـ المسلم أخو المسلم : لا يظلمه، ولا يسلمه؛ ومن كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته ؛ ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ؛ ومن ستر مسلما، ستره الله يوم القيامة، ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ؛ والله فى عون العبد، ما كان العبد فى عون أخيه .
ـ من ذب عن عرض أخيه، رد الله النار عن وجهه يوم القيامة .
ـ ما أكرم شاب شيخا لسنه، إلا قيض له الله تعالى من يكرمه عند سنه .
ـ ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر .
ـ أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك : ارحم اليتيم، وامسح رأسه، يلن قلبك، وتدرك حاجتك .
ـ حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس .
ـ أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العانى .
ـ طوبى لمن هدى للإسلام، وكان عيشه كفافا وقنع .
ـ لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصا، وتروح بطانا .
ـ ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس .
ـ إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه، فذلك أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم .
ـ ليس الشديد بالصرعة، وإنما الذى يملك نفسه عند الغضب .
ـ من ضار ضار الله به، ومن شاق شق الله عليه .

ـ إياكم والجلوس فى الطرقات، فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه : غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتغيثوا الملهوف، وتهدوا الضال .
ـ إذا كانوا ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه .
ـ لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم .
ـ إذا خرج رجل وعاد، فهو أحق بمجلسه .
ـ لا يحل لرجل أن يجلس بين اثنين، إلا بإذنهما .
ـ لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقى .
ـ المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل .
ـ ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ .
قالوا :
ـ بلى يا رسول الله .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هى الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين .
ـ أحبب لأخيك ما تحب لنفسك .
ـ المسلم الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم .
ـ الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، وان الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وان الكذب يهدى إلى الفجور، وان الفجور يهدى إلى النار، وان الرجل ليكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا .
ـ دع ما يريبك إلى مالا يريبك، فان الصدق طمأنينة، والكذب ريبة .
ـ أد الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك .
ـ من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.
ـ إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر .
ـ إنكم منصورون، ومصيبون، ومفتوح عليكم، فمن أدرك ذلك منكم، فليتق الله تعالى، وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .
.. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى بوصل الأقارب، ويقول :
ـ الرحم معلقة بالعرش، تقول : من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله .
ـ من سره أن يبسط الله تعالى فى رزقه، وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه .
ـ تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثراة فى المال، منسئة فى الأثر .
ـ الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان .
.. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث بصلة الرحم رجل، فقال :
ـ يا رسول الله لى أهل أصلهم ويقطعوننى .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ صلهم .
قال الرجل :
ـ أعطيهم ويمنعوننى .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ لا تمنعهم وصلهم .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى المسلمين بالتراحم :
ـ الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .
ـ لا يرحم الله من لا يرحم الناس .
ـ لا تنزع الرحمة إلا من شقى .
.. قبل رسول الله حفيده " الحسن "، وكان عنده رجل من المسلمين، فقال :
ـ ان لى من الولد عشرة، ما قبلت منهم أحدا .
فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
ـ من لا يرحم لا يرحم .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ جعل الله تعالى الرحمة مائة جزء، فامسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
ـ بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا، فنزل فشرب، ثم خرج، وإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له .
قالوا :
ـ يا رسول الله، وان لنا فى البهائم أجرا ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ فى كل كبد رطبة أجر .
ـ دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض .
ـ ان الرفق ما كان فى شئ إلا زانه، وما نزع من شئ إلا شانه .
ـ من يحرم الرفق، يحرم الخير كله .

ـ ٩ ـ

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى الخلاء لقضاء حاجته، فبينما هو راجع، أبصر بامرأة عجوز تحمل على رأسها حملا ثقيلا من الحطب، فأقترب منها، وقال مستأذنا :
ـ ألا أحمله عنك يا خالة .
قالت العجوز، وهى تنقل إليه حملها :
ـ نعم .
ولما استوى الحمل على كاهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت له العجوز :
ـ أى بنى، ألا أسدى إليك نصيحة ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم .
قالت العجوز :
ـ لقد نزل بالمدينة رجل يقال له محمد، فإذا رأيته فلا تتبعه فهو ما ينصحك إلا بما يهلكك .
وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعقب، واستمر يحمل الحطب حتى أوصله إلى خيمة
العجوز، فأنزله حيث طلبت منه، وشكرت له العجوز صنيعه، ثم سألته :
ـ ما اسم الفتى ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ محمد بن عبد الله .
قالت العجوز :
ـ أأنت هو من خوفونى من اتباع دينه ؛ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله .
.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا بعث أحدا فى بعض أمره قال :
ـ بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا .
كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم النصح لصحابته باتقاء الله فى جيرانهم، وعن أم المؤمنين عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن رسول الله قال :
ـ ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته :
ـ لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .
سأله سائل :
ـ يا رسول الله لى جاران، فمن أهدى ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أقربهما منك بابا .
.. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الاستماع لمن يسأل، بلا ملل، ولا كلل، بسام لا يغضب إلا لله، يفيض فى كل ما ينفع أصحابه، ويشرح للكل بينما السائل واحد، مرحبا يهش ويقول صلى الله عليه وسلم :
ـ سل عما شئت .
.. جاءه عامرى يقول :
ـ أشهد بالله الذى لا إله غيره، أن أمرك حق، فأنبئنى بأشياء أسألك عنها ؛ فأخبرنى يا ابن عبد المطلب ما يزيد فى العلم ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ التعلم .
قال العامرى :
ـ فأخبرنى ما يدل على العلم ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ السؤال .
قال :
ـ فأخبرنى ماذا يزيد فى الشر ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ التمادى .
قال :
ـ فأخبرنى، هل ينفع البر بعد الفجور ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم، التوبة تغسل الحوبة، والحسنات يذهبن السيئات، وإذا ذكر العبد ربه عند الرخاء، أغاثه عند البلاء .
قال العامرى :
ـ وكيف ذلك يا ابن عبد المطلب ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ذلك بأن الله يقول : لا وعزتى وجلالى، لا أجمع لعبدى أمنين، ولا أجمع له أبدا خوفين، إن هو خافنى فى الدنيا، أمننى يوم أجمع فيه عبادى عندى فى حظيرة الفردوس، فيدوم له أمنه،

ولا أمحقه فيمن أمحق، وإن هو أمننى فى الدنيا، خافنى يوم أجمع فيه عبادى لميقات يوم معلوم، فيدوم له خوفه .

قال العامرى :

ـ يا ابن عبد المطلب، أخبرنى إلام تدعو ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع الأنداد، وتكفر باللات والعزى وتقر بما جاء من الله من كتاب أو رسول، وتصلى الصلوات الخمس بحقائقهن، وتصوم شهرا من السنة، وتؤدى زكاة مالك، يطهرك الله بها ويطيب لك مالك، وتحج البيت إذا وجدت له سبيلا، وتغتسل من الجنابة، وتؤمن بالموت، والبعث بعد الموت، وبالجنة والنار .

قال العامرى :

ـ يا ابن عبد المطلب، إذا فعلت ذلك، فما لى ؟.

رتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى :

ـ "* جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ."

قال :

ـ يا ابن عبد المطلب، هل مع هذا من الدنيا شئ، فإنه يعجبنى الوطاءة من العيش ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ النصر والتمكن فى البلاد .

.. ولم يتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم للحظة، عن رعاية المسلمين وتعليمهم، سواء من كان منهم بالمدينة أو فيما حولها، فكان يذهب كل يوم سبت ماشيا، أو راكبا، إلى مسجد قباء ليصلى فيه، فهو أول مسجد بنى فى الإسلام، ويقول عنه :

ـ صلاة فى مسجد قباء كعمرة .

وفى مسجد قباء، يلتقى بصحبه ويتذاكرون أمورهم، ويلقى فيهم درسه، ويجيبهم عما يسألون عنه، ويفصل فيما يحتكمون فيه إليه من الأمور، حسب ما شرع الله فى قرآنه المجيد، وحسب ما يدرسه له جبريل υ .

وكان يحرص على مشاركة أهل المدينة، المسلم منهم وغير المسلم فى سرائهم وضرائهم، فكان يحضر أفراحهم، ويمشى فى جنازاتهم، ويحثهم على الاقتداء به، وفعل ما يفعل، فكل عمله خير، وتوحيد للمشاعر فى أوقات الفرح والكرب .

.. كان يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام من يهود، فمرض الغلام مرضا شديدا أقعده، فلما انقطع عن الذهاب إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأل عنه، فلما علم بالحال التى هو عليها عاده، وقعد عند رأسه، متأثرا لشدة مرضه، وقال له فى عطف بالغ، وهو يشعر بدنو أجل الغلام :

ـ أسلم .

فراح الغلام ينظر إلى أبيه، وهو لا يدرى ما يقول، فقال له أبوه :

ـ أطع أبا القاسم .

فأسلم الغلام، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده وهو مسرور، وقال :

ـ الحمد لله الذى أنقذه بى من النار .

.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض المسلمين على التزاور، وعيادة المريض، ويقول :

ـ ما من رجل يعود مريضا، إلا وخرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف فى الجنة، ومن أتاه مصبحا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسى، وكان له خريف فى الجنة .

ـ من عـاد مريـضا، أو زار أخـا لـه فـى الله تعـالى، نـاداه منـاد : أن طبـت، وطـاب ممـشاك، وتبوأت من الجنة منزلا .
ـ من توضأ، فأحسن الوضوء، وعاد أخاه محتسبا، بوعد من النار مسيرة سبعين ألف خريف .

وكـان رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم يعلمهـم، أنـه مـن آداب زيـارة المـريض، تخفيـف الجلوس، وقلة الصخب، وأنه يحسن أن يدعو الزائـر لمـزوره بطـول الأجـل، قـال صـلى الله عليه وسلم :
ـ إذا دخلتم على مريض، فنفسوا له فى أجله، فإن ذلك يطيب نفسه.
ـ من عاد مريضا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات :
أسأل رب العرش العظيم أن يشفيك . إلا عافاه الله تعالى من ذلك المرض .

ـ ١٠ ـ

.. لما أحس رسول الله صلى الله عليه وسلم باستقرار الحيـاة فـى المدينـة، بعـث زيـد بـن حارثة وأبـا رافـع إلـى مكـة، ليخرجـوا أهلـه، وأهـل أبـى بكـر، ومـن يـستطيعون إخراجـه مـن المسلمين
المحصورين فى مكة، وقد ذهب معهما عبد الله بن أريقط ليدلهما على الطريق ؛
فعادوا ومعهم : فاطمة وأم كلثوم ابنتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمـا إبنتـه رقيـة فكانـت قد سبقت إلى المدينة مع زوجها عثمان بن عفان، مع مـن أذن لهـم مـن المـسلمين بـالهجرة إلـى طيبة، وأما زينب فمنعها زوجهـا أبو العاص بن ربيع، كما عادوا بسودة زوجة رسول اللهصلى الله عليه وسلم ، وأم أيمن وابنهـا أسامة، وعبـد الله بـن أبىبكـر ومعـه جدتـه، وأختـه أسـماء وزوجهـا الزبير بن العوام، وأم رومان زوج أبيه وابنتها عائشة .
وانتقـل رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم إلـى داره، ليعـيش مـع إبنتيـه : فاطمـة وأم كلثـوم وزوجته سودة، بعد أن أقام بدار أبو أيوب طيلة سبعة أشهر، ولشد ما حزن أبو أيوب وزوجته، لمفارقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
..وبنى الأنصار والمهاجرون بيوتا لهم فى الأرض المحيطة بالمسجد، رغبة منهم فـى القـرب من بيت الله، والتصاقا بالحبيب محمد صلى الله عليـه وسـلم ؛ وحتـى الأسـواق المتنـاثرة بـين أحياء المدينة بدأت تتجمع وتتوحد فى سوق رئيسية بالقرب من المسجد، وأخذت المدينة تتشكل على صورة أخرى غير تلك التى كانت عليها، حين وفد إليها رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم .

فلقد توسعت الحياة حول الجامع، وأصبحت مبـانى المدينـة كتلـة سـكنية واحـدة، بعـدما كانـت وحدات متفرقة، وهو أمر لم يأت عبثا، بعد أن سادت روح الإسلام التى بثها نبى الله صلى الله عليه وسلم فى النفوس، لتتغلغل فيها وتتأصل، فتـصير سـلوكا، ويـصبح التـواد والتـراحم، هـو سمة هذا المجتمع الإسلامى الأول، فالمسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومن هنا زالت مـشاعر التربص والقلق والخوف بين القبائل والأفراد، لتحل بدلا منها مشاعر التآخى والتواد، وما كـان تقـارب المبـانى إلا تعبيـرا عـن توحـد المجتمـع، وزوال الفرقـة بـين أفـراده، فهـم كالبنيـان المرصوص يشد بعضه بعضا .
.. وإذا كان هذا قد حدث بين من دخل الإسلام من أوس وخزرج وهود، فلقـد ظـل مـن عمـوا عن نعمة الإسلام من اليهود، يعيشون فى أحيائهم المتطرفة، والتى تكاد تكون حصونا .

.. وبهذا توحد المسلمون فى المدينة، وأنشأت وحدتهم مدينـة جديـدة، تقـوم فـى ظاهرهـا علـى وحدة البناء، وفى أساسها على التقوى .

الفصل الثالث عشر :

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

الطاعنون

- ١ -

كان يهود المدينة منذ قديم الأزل، يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهم فى التوراة، وكانوا كلما دارت عليهم الدوائر، أو أغار عليهم نفر من العرب يؤذونهم، يسألون الله عز وعلا أن يبعثه فكانوا يقولون :

- اللهم ابعث النبى الأمى الذى نجده فى التوراة، والذى وعدتنا أنك باعثه فى آخر الزمان .

فإذا ما قاتلوهم، يستفتحون عليهم، ويقولون :

- اللهم إنا نستنصرك بحق محمد النبى الأمى، إلا نصرتنا عليهم .

ولأنهم كثيرا ما انتصروا بدعائهم، كان الأوس والخزرج، منذ عاد كبرائهم من مكة يحملون دين الله، يبشرون قومهم، ويحضونهم ليدخلوا فى دين الله أفواجا، حذر أن يسارع اليهود إلى الإسلام، فتكون لهم الكثرة والفضل عليهم، ولكن اليهود لم يسعوا ولم يسارعوا إلى داعى الحق

؛ رغم كونهم كثيرا ما أعلنوا الأوس والخزرج منذرين ومخوفين، بقدوم النبى الخاتم، وأنهم سينضمون إليه، ويحاربوهم معه، فيقتلوهم، ويشردون بهم، فما زالوا ينظرون إلى الأوس والخزرج، رغم مرور مئات السنين على هجرتهم من اليمن إلى طيبة، على أنهم دخلاء علي بلدهم، وأن هودا هم وحدهم الأحق بطيبة وما حولها، رغم أنهم هم أيضا قد جاءوها مهاجرين، فلم تكن اليهود هى الأصول الأولى التى سكنت طيبة، وكانوا يقولون :

ـ سيبعث نبى هذا أوانه، نؤمن به ونقتلكم معه قتل عاد وارم ..

.. وظن الأوس والخزرج أن هود ينتظرون قدوم رسول الله إليهم، ليعلنوا إسلامهم، فلما وفد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طيبة، ظل اليهود على دينهم، ولم يتسابق بنو قريظة والنضير على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليدخلوا فى الإسلام أفواجا، بل إذا بهم لما عرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام يرفضون، وقالوا :

ـ سمعنا وعصينا .

.. وفضحهم الله جل وعلا، ونزل جبريل υ بقول رب العالمين :

ـ "* الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ."

.. وإنه لقول الحق، فلقد كان اليهود يقولون دائما :

ـ والله إننا لأعرف برسول الله منا بأبنائنا، من أجل الصفة والنعت الذى نجده فى كتابنا، أما أبناؤنا فلا ندرى ما أحدث النساء .

.. ولكن ها هم أولاء يفعلون اليوم مع محمد صلى الله عليه وسلم ، ما فعله أجدادهم مع موسى υ، فجاهدوه وأجهدوه ليا بألسنتهم، رافضين الاستماع إلى صوت العقل، منكرين لما سبق لهم أن قالوه، فها هم أولاء يدعون أنهم ما قالوا بمقدم النبى الخاتم، وما استفتحوا باسمه على أعدائهم حتى ينصرهم الله، وما قرءوا فى التوراة، أو سمعوا الآباء ينقلون إليهم عن الأجداد أن اتبعوا النبى العربى الذى سيفد إليكم !!.

.. ولم يكفهم إنكارهم، وقالوا منكرين وطاعنين فى نبوة بعض أنبياء الله، فقال أحبارهم :

ـ ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا،والله ما كان إلا ساحرا.

فأنزل الله علا شأنه، وجل قوله من سورة البقرة :

ـ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ صلى الله عليه وسلم ١٠٢)

.. بل إنهم لما أعيتهم السبل، تجاوزوا كل حدود العقل، وأعلنوا طعنهم فى كل الرسالات، وقالوا :

ـ ما أنزل الله على بشر من شئ .

فأنزل الله نقضا لقولهم فى سورة الأنعام :

ـ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَصلى الله عليه وسلم ٩١)

.. ولم يتوقف بهم الحال عند حد الرفض والعصيان، وإنكار نبوة من سبقوا، بل أظهروا إنكارهم لنبوة النبى الخاتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وراحوا يخوضون قائلين قائلين لرسول الله :
- إن لكل نبى ملكا من الملائكة يأتيه من عند ربه بالرسالة والوحى، فمن صاحبك حتى نتبعك ؟.
فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
- جبريل .
طاعنه اليهود، قائلين :
- ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال، هو عدونا، لو قلت إن صاحبك ميكائيل الذى ينزل بالقطر والرحمة لتابعناك .
ونزل على نبى الله صلى الله عليه وسلم رد رب العالمين من سورة البقرة :
- قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وسلم ٩٧) .. وحين سمعوا بتوعد رب العالمين لهم بالعذاب، زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه،
وما هم بمعذبين، وكذبهم الحق سبحانه وتعالى، وجاءهم السؤال مفحما :
- "* فلم يعذبكم بذنوبكم .."
.. لم يستسلموا، وراحوا يهاجمون دين الله، وقالوا ان " ورقة بن نوفل " هو من ألقى على محمد هذه الكلمات، ولقد كان " ورقة " من قبل يهوديا، ثم ترك اليهودية إلى النصرانية، ولكن الله سبحانه رد عليهم كذبهم، وتنزل جبريل υ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنبأه من سورة النحل:
- وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ. صلى الله عليه وسلم ١٠٣)
وصدق رب العالمين، فلقد كان ما يتلو ورقة بلغة العجم، بينما تنزل القرآن بلغة عربية، تكريما للنبى العربى صلى الله عليه وسلم ، ولم يستح اليهود، بل راحوا يدعون بغير ما جاءهم به موسى من عند ربه، وهذا غير مستغرب، فقد سبق وأنكر بعضهم النبوة عن موسى υ، بعد أن خاف كهنتهم على سلطانهم، وخاف أغنياؤهم على ثرواتهم، وحرص هؤلاء وهؤلاء على الجاه الذى يجدونه فى الدنيا، ويمكنهم من أن يختصوا أنفسهم بالكبر والتكبر والتعالى على خلق الله .
فإذا ما اشتد عليهم الدليل، وأعوزهم المخرج فلم يجدوه، كانوا يمالئون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يضمرون غير ما يبدون، فإذا لقوه، قالوا :
- راعنا .
وهى كلمة تحمل معنيين، معناها بالعربية : طيب يحمل التقدير والعرفان، ومعناها بلغة اليهود : يحمل السخرية والاستهزاء، وما أرادوا غير الأخير، طعنا فى نبى الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل جبريل υ، محذرا وموضحا، بقول الله عز وعلا علوا كبيرا فى سورة النساء :
- مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا صلى الله عليه وسلم ٤٦)
.. ومن أجل هذا ما إن سمعها منهم " سعد بن معاذ " وكان يعرف لغة اليهود، حتى ذهب إلى كبرائهم غضبان، وقال لهم :

ـ عليكم لعنة الله، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه .

قالت اليهود :

ـ ألستم تقولونها .

وكان بعض المسلمين يقولونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذا نهاهم الله عن ذلك فى سورة البقرة :

ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ صلى الله عليه وسلم ١٠٤)

.. ولم يعد المسلمون لقولها، أما هود فلم يرتدعوا، واستمروا على كراهيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،وفى ليهم للكلام ليا.

.. مر ببيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود، فقالوا :

ـ السام عليكم .

فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ وعليكم مثل ما قلتم .

وغضبت أم المؤمنين عائشة τ، وقالت لهم :

ـ عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم .

قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ بالرفق، وإياك والعنف والفحش .

قالت أم المؤمنين τ :

ـ أولم تسمع ما قالوا ؟!.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أولم تسمعى ما قلت، رددت عليهم ما قالوا، فيستجاب لى فيهم، ولا يستجاب لهم فى .

وحين أعيتهم الأقوال والادعاءات، قالوا :

ـ إن محمدا يتجه فى صلاته إلى المسجد الأقصى تابعا لقبلتنا، وانه بهذا قد تنازل لنا عن نصف دينه .

ولما بلغ قولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شق عليه، ورفع وجهه إلى السماء وراح يقلب بصره ضارعا إلى الله أن يرد كيد اليهود.

ـ ٣ ـ

ورغم هذا جميعه، أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب العهد بينه وبينهم، فلقد أراد أن يوحد جهوده لتربية الأجيال الجديدة من المسلمين، ولإنشاء مجتمع المدينة على أسس إسلامية، توضح العلاقة بين المسلمين، وغيرهم من أصحاب النحل الأخرى .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة بذلك، جاء فيها :

ـ " بسم الله الرحمن الرحيم

" هذا كتاب من محمد النبى بين : المسلمين من قريش وطيبة، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وبنو النجار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى،وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وإن المؤمنين لا يتركون ذا غرم مفظع بينهم، بل يجب أن يعطوه بالمعروف فداء أو عقلا .
وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .
وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو سعى بينهم بظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم .
ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن .
وإن ذمة الله واحدة، يجير عاليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .
وإن من تبعنا من يهود، فله النصر والأسوة،غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .
وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.
وإن كل غازية غزيت بها معنا يعقب بعضها بعضا .
وإن المؤمنين يكف بعضهم عن بعض، ويعاون بعضهم بعضا فى سبيل الله .
وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا فإنه يقتل إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .
وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مجرما أو يحميه أو يؤويه، وإن نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .
وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم .
وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .
وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .
وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .
وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .
وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .
ومثل ذلك بقية اليهود، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه .
وإن البر دون الإثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم .
وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته .
وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب من أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون إثم، وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وان الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .
وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم طيبة، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .وإن

يهـود الأوس مواليهـم وأنفسهـم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحصن، من أهل هذه الصحيفة ."

ـ ٤ ـ

أعلن اليهود رضاهم عن المعاهدة وأقروا بها، وهو إقرار المغلوب علـى أمـره، وإن أضـمروا غير ما أبطنوا، وأصبحوا كالـسوس الـذى ينخـر بـاطن الخـشب دون ظـاهره، ليهلكـه ويـدمره، فجعلوا كل همهم أن يلغوا الأثرة التى أبداها الأنصار للمهاجرين، فكانوا يتقربون إلي الأنصار، يظهرون لهم النصح، ويضمرون الشر، قائلين :

ـ لا تنفقوا أموالكم على من أسلم، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهاب دين محمـد، ولا تـسرعوا فى الثقة، فإنكم لا تدرون علام يكون محمد ؟.

فأظهر الله قولهم، ونزل جبريل بقول عالم الغيب، فى سورة النساء :

ـ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَـا آتَـاهُمْ اللَّـهُ مِـنْ فَـضْلِهِ وَأَعْتَـدْنَا لِلْكَـافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا صلى الله عليه وسلم ٣٧)

.. كف اليهود عن وسوستهم للأنصار، بعد أن كشف الله سترهم، وانقلبوا يحـاولون الوقيعـة بينهم، فلقد هالهم ذلك التـآلف الذى ساد بين الأوس والخـزرج، فأصبحوا بفضل من الله إخوانـا متحـابين، ولقد حـاولوا الوقيعـة بيـنهم أكثـر مـن مـرة، ولكـن الله أطفـأ نـار الفتن التـى أرادوا إشعالها، لكنهم لا ييأسون، ويكررون المحاولة عقب المحاولة، وذات يوم جلس شاس بن قيس ـ وهو من زعماء اليهود ـ وراح يدير الحديث بين جماعة من الأنصـار، ليلتف به كالأفعى ويصل إلى ما كان فـى القديم بـين القبيلتـين مـن قتـال، حتـى تـذاكر القـوم مـا قالـه شـعراؤهم، ونـزغ الشيطان اللعين بينهم، فاشتد القول، وتنابذوا، واستيقظت الفتنة، فتنادوا إلى السلاح، وقالوا :

ـ تعالوا نرد الحرب جذعا كما كانت .

ونادى رجل من الأوس :

ـ يا لأوسـاه .

ونادى رجل من الخزرج :

ـ يا للخزرج .

وتحول كل فريق مـن القبيلتـين إلـى الانحيـاز لقبيلتـه، وتواجهـت جمـوع القبيلتـين مـستنفرين للقتال، ووصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فى مجلسه بالمسجد، فأسرع إليهم ومعه نفر من المهـاجرين، ووقفوا يفصلون بين الفريقين، ليحولوا بينهم وبـين التـضارب، وقال الحبيب صلى الله عليه وسلم مذكرا، قائلا فى أسف :

ـ يا معشر المسلمين، الله، الله، أدعـوى الجاهلية، وأنـا بـين أظهـركم بعـد أن هـداكم الله إلـى الإسلام، وألفكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألف بينكم بالإسلام ؟! .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَـرُدُّوكُمْ بَعْـدَ إِيمَـانِكُمْ كَـافِرِينَ صـلى الله عليه وسلم ١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَـيْكُمْ آيَـاتُ اللَّـهِ وَفِـيكُمْ رَسُـولُهُ وَمَـنْ يَعْتَـصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صلى الله عليه وسلم ١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ صلى الله عليه وسلم ١٠٢) سورة آل عمران

وماتت نعرة الجاهلية فى قلوب الأنصار، وطفرت الدموع أسفا على ما فرطوا فـى حـق الله، وهرب الشيطان من بينهم وهو يـرى انبعـاث نـور الله فـى القلـوب، وانتبـه القـوم إلـى أنهـم قـد سقطوا فى الفتنـة، فتمكن منهـم الشيطـان ونـزغ بينهـم، فألقـوا سيوفهـم وحـرابهم، وأزاح الله مـا بهم من طائف الشيطان، وتعانقـوا فى صفاء الاخوة، وأكلت نار الفشل أكباد اليهود .

وراح إبليس يتلظى من الغيظ ..

.. رغم كل ما أضمر اليهود، وأعلنوا، وكادوا، لم ينكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما واثقهم عليه، بل كان يصبر، ويجادلهم بالتى هى أحسن، فهكذا علمه ربه، وهم لا يستحون من الله سبحانه وتعالى، ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم ، فحين سمعوا بقول الله عز من قائل :

ـ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا صلى الله عليه وسلم (١٠١) سورة الإسراء

.. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رهط منهم، يسألونه عن ماهية هذه الآيات التسع، وكأنهم سوف يعجزونه، ويوقعوا به فى شراك الجهل، ولكنه صلى الله عليه وسلم قال لهم :

ـ لا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببرئ إلى سلطان، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، وعليكم يا يهود خاصة : ألا تعتدوا فى السبت .

فقبلوا يديه ورجليه قائلين :

ـ نشهد أنك نبى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ما يمنعكم أن تسلموا ؟.

قالوا :

ـ نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا يهود، فنحن ضعفاء بينهم .

ولم يكن يهود المدينة هم المجادلين وحدهم، بل لقد استقدموا حبرين من عتاة العلم من أحبار الشام، فلما دخلا على النبى صلى الله عليه وسلم ،عرفا فيه مما كان مذكورا عندهم فى الكتاب، فقالا له :

ـ أنت محمد ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ نعم .

قال الحبران :

ـ وأنت أحمد .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ نعم .

قالا :

ـ نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها، آمنا بك وصدقناك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ سلا ما تريدان .

قالا :

ـ اخبرنا عن الأعظم شهادة فى كتاب الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ قال الله عز وعلا "* شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ."

.. فشهد الحبران، وأسلما، وحسن إسلامهما .

.. ساء يهود المدينة ما حدث فشحذوا الهمم، واستنجدوا بشياطينهم، ثم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يواصلون المطاعنة، قائلين :

ـ يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله ؟.

غضب النبى صلى الله عليه وسلم أشد الغضب لربه، حتى امتقع لونـه، وجـاءه جبريـل τ، فقال له:

ـ خفف عليك يا محمد، يقول ربك تبارك وتعالى : لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور صلى الله عليه وسلم ١٨٦) سورة آل عمران

وصدع نبى الله للأمر، وهدأ من انفعاله، وتنزل من عند الله عز وعلا علوا كبيرا، ردا على ما قيل :

ـ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ صلى الله عليه وسلم ١) اللَّهُ الصَّمَدُ صلى الله عليه وسلم ٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ صلى الله عليه وسلم ٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ صلى الله عليه وسلم ٤) سورة الإخلاص

ـ صف لنا يا محمد ربك : كيف خلقه، كيف ذراعه، كيف عضده ؟.

فاشتعل غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه ثانية، فأتاه جبريل فهـون عليـه، ونـزل قول الله سبحانه وتعالى :

ـ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ صلى الله عليه وسلم ٦٧) سورة الزمر

وبعد أن سمعها هود، قاموا يتكفأون على وجوههم، وقد أخزاهم الله .

ولكن هل للمطموس على قلبه أن يدرك ؟..

جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود، فقالوا :

ـ يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنها، لا يعلمها إلا نبى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلونى عما شئتم، ولكن اجعلوا لى ذمة الله عـز وجـل، وما أخذ يعقوب على نبيه، لئن حدثتكم لتتبعننى .

قال اليهود :

ـ فذلك لك .

ثم استطردوا قائلين :

ـ أربع خلال نسألك عنها : أى طعام حرم إسرائيل على نفسه من قبـل أن تنـزل التـوراة ؟.. وأخبرنا كيف يشبه الولد أمه، وإنما النطفة من الرجـل ؟.. وأخبرنا كيف هـذا النبـى الأمـى فـى النوم، ومن يليه من الملائكة ؟.. وأخبرنا ما هذا الرعد ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا طال سقمـه، فنذر لئن عافاه الله عز وجل، ليحرمن أحـب الطعـام والـشراب، وكـان أحـب الطعـام إليـه لحـم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها .

قالت اليهود :

ـ اللهم نعم، اللهم اشهد .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق،فأيهما علا كان الولد والشبه بإذن الله عز وجل،إن علا ماء الرجل كان الشبه للرجل بإذن الله تعالى، وإن علا ماء المرأة كان الشبه للمرأة بـإذن الله تعـالى .

قالت اليهود :

ـ اللهم نعم، اللهم اشهد .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ فأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن النبى الأمى تنام عينه ولا ينـام قلبه .

قالت اليهود :

ـ اللهم نعم، اللهم اشهد .

ثم استطردوا قائلين :

ـ أنت الآن حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ وليى جبريل، ولم يبعث الله عز وجل نبيا قط إلا وهو وليه .

قالت اليهود :

ـ فعندها نفارقك،لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ فما يمنعكم أن تصدقونى ؟.

قالت يهود :

ـ هذا عدونا من الملائكة .

وقال الله تعالى فيهم :

ـ "* أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ."

وانصرف هود غير مصدقين، فما كانوا مؤمنين، وما كانوا يبحثون عن الحق والحقيقة، ولكنه الأمل فى هزيمة رسول الله صلى الله عليه وسـلم يـداعب أحلامهـم، لهـذا لـم يكفـوا جماعـات وأفرادا عن السعى بطعنهم إلى الصابر صلى الله عليه وسلم .

ـ ٦ ـ

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حبر من يهود فقال :

ـ أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ فى ظلمة دون الجسر .

قال الحبر :

ـ فمن أول الناس إجازة ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ فقراء المهاجرين .

استطرد الحبر :

ـ فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ زيادة كبد نون .

قال الحبر غير قانط :

ـ فما غذاؤهم على أثره ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها .

واصل الحبر أسئلته مغتاظا :

ـ فما شرابهم عليه ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ من عين فيها تسمى سلسبيلا .

زفر الحبر وقد أفحم، فاسود وجهه من شدة الغيظ، وقال :
ـ صدقت .
.. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثعلبة بن الحارث وهو من يهود، ليواصل اللجاجة، فكأنه يواصل مقالة الحبر، قال :
ـ يا أبا القاسم أتزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ .
.. وهمس بما يضمر فى نفسه قائلا، قبل أن يسمع قولة الحق : " إن أقر بها خصمته ".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم، وتجدها فى كتابكم .
قال ثعلبة :
ـ نعم .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ والذى نفسى بيده إن أحدكم ليعطى قوة مائة رجل إلى المطعم والمشرب والجماع.
قال ثعلبة :
ـ الذى يأكل ويشرب يكون له حاجة !.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل ريح المسك، فتضمر بطونهم .
جاءه يهودى، فقال :
ـ يا محمد أخبرنى عن النجوم التى رآها يوسف ساجدة له، ما أسماؤها ؟.
فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء، وانصرف اليهودى يزوم منتصرا ؛ فجاءه جبريل υ بأسمائها، فأرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم إلى اليهودى، يسأله :
ـ أتسلم إن أخبرتك بجواب سؤلك ؟.
قال اليهودى فى تردد :
ـ نعم، أسلم .
قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ هى : حرثان، وطارق، والذيال، وذو الكنفات، وذو الفرغ، ووثاب، وعمودان، وقابس، والضروج، والمصبح، والفيلق، والضياء، والنور، رآها يوسف فى أفق السماء ساجدة له .
قال اليهودى :
ـ هذه والله أسماؤها .
وهرول منصرفا، ولم يسلم !! .
.. حين سمع اليهود من رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى :
ـ "* من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ."
قال فنحاص أحد زعماء يهود، وهم فى المدراس :
ـ والله ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وآنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا أموالنا
كما يزعم محمد، ينهاكم عن الربا ويعطيه لنا، ولو كان عنا غنى ما أعطانا الربا .
وسمع أبو بكر بما قال فنحاص فضربه على وجهه ضربا شديدا، وقال له :
ـ والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله .
وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حدث، فبعث إلى فنحاص يستدعيه، وواجهه بما حدث، وحاول فنحاص أن ينكر ما قاله لأبى بكر، فنزل قول الله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران مؤيدا للصديق فيما قال، مكذبا المنافق فنحاص :

ـ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ صلى الله عليه وسلم (١٨١)

ـ ٧ ـ

اجتمعت أحبار اليهود فى بيت الدراس، وقد زنى رجل محصن بامرأة محصنة، فقالوا لبعض منهم :

ـ خذوهما إلى محمد فإنه قد أمر بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم أخذنا بها واحتججنا بها عند الله، وقلنا فتيا نبى من أنبيائك، وإن كنا نعلم أنه ليس بنبى، ولكنه ملك قومه .

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد، فقالوا :

ـ يا أبا القاسم، هذا رجل زنى بعد إحصانه، بامرأة قد أحصنت، فاحكم، فقد وليناك الحكم فيهما .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ما تجدون فى التوراة ؟.

فقالت اليهود :

ـ نفضحهما ويجلدان .

فأفتاهم نبى الله صلى الله عليه وسلم بالرجم، فأنكروه، فلم يكلمهم، ونهض وصحبه إلى مدارسهم فوقف بالباب، وقال :

ـ يا معشر يهود أخرجوا إلى علماءكم .

فخرج علماؤهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

ـ أنشدكم الله الذى أنزل التوراة على موسى، ما تجدون فى التوراة على من زنى بعد إحصان ؟.

قالوا :

ـ يحمم ويجبب .

قال عبد الله بن سلام :

ـ كذبتم فإن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة .

فجاءوا بالتوراة فنشروها، ووضع حبر كفه فوق آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام :

ـ ارفع يدك .

فرفع الحبر كفه، فإذا آية الرجم ظاهرة .

قال عبد الله بن سلام :

ـ الله أكبر وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يا رسول الله، إننا قد حدنا عن حدود الله لما فشى الزنا بين أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، وجلدناه، ثم اجمعنا على أن نأخذ بحد ينفذ على الغنى والفقير، فأجمعنا على التحميم والجلد، أما والله يا رسول الله إنهم ليعرفون أنك نبى مرسل، ولكنهم يحسدونك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قديما بالشهوة .

ـ ٨ ـ

.. حين ضاقت باليهود سبل الانتصار بالمجادلة ولى الكلام، لم يملكوا إلا أن قالوا :

ـ نحن أبناء الله وأحباؤه، ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى .

وأنزل الله عز وجل، على نبيه صلى الله عليه وسلم من سورة البقرة :

ـ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ صلى الله عليه وسلم ٩٤)
وذهب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لهم :
ـ إن كنتم صادقين فى مقالتكم، قولوا : اللهم أمتنا، فوالذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه .
وأصيب يهود بهلع شديد، وزاغت منهم الأبصار، وعاتبوا رسول الله فيما قال، ولم يتمنوا الموت .

.. ونزل قول الحق سبحانه وتعالى :
ـ "*ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ."

ـ ٩ ـ

بسم الله الرحمن الرحيم
وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينصلى الله عليه وسلم ٨ ُ(يخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ صلى الله عليه وسلم ٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ صلى الله عليه وسلم ١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ صلى الله عليه وسلم ١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ صلى الله عليه وسلم ١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ صلى الله عليه وسلم ١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ صلى الله عليه وسلم ١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ صلى الله عليه وسلم ١٥) سورة البقرة

.. صنف جديد على الحياة، لم يكن موجودا فى مكة، لأن المسلمين فى مكة لم يكونوا قوة ترهب الذين لا دين لهم، ولكن الوضع فى المدينة قد اختلف تماما عنه فى مكة، فالمسلمون هنا قوة وكثرة ووحدة، ولذلك دخل الإسلام تظاهرا ورياء من دخل، وهم لم يؤمنوا،فكانوا أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من الكفار، ومن أهل الكتاب من يهود ونصارى، لأنهم كانوا يظهرون غير ما يبطنون .

كان " نبتل بن الحارث " من الذين دخلوا الإسلام نفاقا، وكان يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينقل كلامه إلى اليهود، وكان يقول :
ـ إنما محمد أذن، من حدثه شيئا صدقه .
فأنزل الله عز وعلا، قوله بسورة التوبة:
ـ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ صلى الله عليه وسلم ٦١)
ولقد جاء جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له :
ـ إنه يجلس إليك رجل أذلم، ثائر الشعر، أسفح الخدين، أحمر العينين، كأنهما قدران من صفر، كبده أغلظ من كبد الحمار، ينقل حديثك إلى المنافقين، فأحذره .
.. وقد كانت هذه هى صفات " نبتل بن الحارث "، فطرده المسلمون من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شر طردة .

جاء إلى المدينة وفد من نصارى نجران، فى ستين رجلا فيهم أربعة عشر من أشرافهم، ومن بين الأربعة عشر هؤلاء فوضوا ثلاثة يتولون أمرهم هم : العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم، ولا يصدر عنهم أمر إلا عن رأيه، وأسمه : عبد المسيح ؛ والسيد وهو منظم وقتهم، وإقامتهم وترحالهم، واسمه الأيهم ؛ وأسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم وهو أبو حارثة بن علقمة، وكان من أعلم قومه بأمور دينهم، حتى لقد بنى له الحكام الكنائس وجعلوا أموالهم طوع بنانه، تقربا إليه وتوددا، وطلبا لبركته .

.. توجه الوفد إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانضم إليهم بعض نفر من أحبار يهود، لمجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر دينهم، ولقد حل مع وصول النصارى ميقات صلاتهم، فقاموا إلى ركن من المسجد فصلوا إلى المشرق، فلما أراد بعض الصحابة التعرض لهم، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- دعوهم .

ولما انتهوا، أقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحدث العاقب والسيد والحبر، وتحاج الحضور، واختلف اليهود والنصارى حين قال اليهود إن إبراهيم υ كان يهوديا، وقالت النصارى إنما كان إبراهيم υ نصرانيا، وقال نبى الله صلى الله عليه وسلم بما تنزل من عند الله تعالى من سورة آل عمران :

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ صلى الله عليه وسلم ٦٥) هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ صلى الله عليه وسلم ٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ صلى الله عليه وسلم ٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وسلم ٦٨) .

فتطاول واحد من أحبار يهود، قائلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

- أتريد أن نؤمن لك، ونعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثنى الله، ولا أمرنى، يقول ربى سبحانه وتعالى : "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاس كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُون اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ صلى الله عليه وسلم ٧٩) سورة آل عمران .

.. وتحدث النصارى فعرضوا ما يؤمنون به فى شعبهم، فقالوا : انهم فى مجموعهم يؤمنون بأن المسيح هو الله، وسبب ذلك عند بعضهم، أنه كان يحيى الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا ؛ ويحتج البعض الآخر منهم بأن المسيح هو ابن الله، فلم يكن له أب يعلم، وقد تكلم فى المهد، وهذا جميعه لم يصنع لولد آدم من قبل ؛ وهؤلاء وهؤلاء يجمعون بأن السيد المسيح ثالث ثلاثة، ودليلهم أن الله يقول فى الإنجيل حين يتحدث عن ذاته : فعلنا، وقضينا، وأمرنا، وخلقنا، ولو كان وحده لقال : فعلت، وقضيت، وأمرت، وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم .

.. فصمت عنهم نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله فيما قالوا سورة آل عمران، فقرأ عليهم :

- إِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ صلى الله عليه وسلم ٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنْ الصَّالِحِين صلى الله عليه وسلم ٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ صلى الله عليه وسلم ٤٧) وَيُعَلِّمُهُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ صلى الله عليه وسلم ٤٨) وَرَسُولا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وسلم ٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي صلى الله عليه وسلم ٥٠)

فلما سمعت النصارى ما تنزل من عند الله، اقشعرت جلودهم، وتغشتهم تجليات الحقيقة، فما عادوا يدرون من أمر أنفسهم شيئا، فران عليهم صمت عميق، ولم يلفظوا بكلمة ؛ وحين وجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة، بأن يدخلوا فى دين الله، ارتج عليهم، وقالوا ملاينين :

ـ يا أبا القاسم، دعنا ننظر فى أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه.

وانصرفوا ..

ولما خلوا إلى بعضهم، سألوا العاقب :

ـ يا عبد المسيح، ماذا ترى ؟.

قال عبد المسيح :

ـ والله يا معشر النصارى،لقد عرفتم أن محمدا نبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل فى صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم، ولا نبت سترهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم، فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم .

.. فلما ثار بينهم النقاش، انتهوا إلى رأى الغلبة منهم، وأقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا فى مودة :

ـ يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا،

ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها فى أموالنا، فلكم عندنا رضا .

.. فلما سمعت يهود بمسالمتهم، ثاروا عليهم ثورة هائلة، وقالوا لهم :

ـ ما أنتم على شئ .

وردت النصارى على اليهود، قائلين :

ـ بل ما أنتم على شئ .

واشتد بينهم الخلاف واحتدم فى شدة حتى تسابوا، ثم انصرفوا مغاضبين .

.. وتنزل قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

ـ وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَصلى الله عليه وسلم ١١٣)

.. وحين تجهز وفد النصارى للعودة إلى ديارهم، تخير رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوعبيدة بن

الجراح ليرافقهم، فيكون حكما فيما قد ينشب بينهم من خلاف، ومنذ ذلك اليوم أطلق على أبو عبيدة τ : حبر الأمة .

الفصل الرابع عشر :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ سورة الحج

الجهاد

- ١ -

دخلت الهجرة عامها الثانى، واستقرت الحياة فى المدينة، وثبتت العقيدة الإيمانية فى نفوس المسلمين من الأنصار، بعدما نزع الله ما فى قلوبهم من غل، وألف بين قلوبهم، فأصبح الأوس والخزرج : اخوة متحابين، رحماء فيما بينهم، فهم عون لبعضهم البعض فى الضراء قبل السراء، يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ صلى الله عليه وسلم ٦٣) سورة أنفال

.. وكان هذا هو حال الأنصار مع المهاجرين أيضا، وهو ما جعل المدينة أمنا وأمانا وبركة، من فضل الله ورحمته .

.. ورغم ذلك، لم يتوقف اليهود عن لغوهم، ومحاولة الوقيعة بينهم، والقول والمجادلة بالباطل فى دين الله، حسدا وكراهية، ولما ييئسوا من فتنة المسلمين، أو الوقيعة بينهم ؛ بعثوا رسلهم فى كل ناحية، لاستعداء قريش وغيرها من القبائل المحيطة بالمدينة، وتنزل تحذير رب العالمين لنبيه صلى الله عليه وسلم بآيات من سورة البقرة :

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ صلى الله عليه وسلم ١٠٩)

.. أثار هذا السلوك العدائى من اليهود، غضب كثير من المسلمين،وتحدثوا بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتنزل قول الله تعالى، من سورة آل عمران :

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ صلى الله عليه وسلم ١٨٦)

ونبأهم نبى الله بما نبئ به، والتزم المسلمون بالصبر ..

.. ولم يكن هذا هو مطلب الصبر الوحيد، فالمهاجرون قد اختصوا بالتزام ثان، وهو أن يعفوا ويصفحوا عن الذين انتهلوا أموالهم ودورهم بمكة ظلما واجتراء، فلقد كانوا يتذاكرون ذلك، ويتحدثون به داخل نفوسهم، ويتكلمون به فيما بينهم، ولما فاض بهم الحزن، أفاضوا بالحديث إلى الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءت المطالبة الثانية بالصبر، فى سورة آل عمران :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ صلى الله عليه وسلم ٢٠٠)

.. ثم بشرهم نبى الله صلى الله عليه وسلم ، بما تنزل عليه من الله تعالى بسورة الإنسان، من جزاء أعد للصابرين منهم، قال :

ـ إن الله تعالى، يعدكم بما هو أفضل مما أخذ منكم، فى جنات النعيم : وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا صلى الله عليه وسلم ١٢)

.. أسعدهم رد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهون من شعورهم بالظلم والعجز، وأفرغ على قلوبهم صبرا وسلاما ؛ ولكن إلى حين، فلقد عاودتهم أحاديث المرارة ثانية، ونزل جبريل υ، بآيات من سورة الحج، تعطهم الحق فى قتال من ظلموهم :

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ صلى الله عليه وسلم ٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ صلى الله عليه وسلم ٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ صلى الله عليه وسلم ٤١)

.. وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد المسلمين للجهاد فى سبيل الله، وفى مجلسه أفاض الحديث، فيما تنزل عليه من رب العالمين، من حث على القتال فى سبيل الله، ثم جاء الأمر بالتحريض على القتال، وبالتحول من القول إلى العمل، فى آيات من سورة الأنفال :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ صلى الله عليه وسلم ٦٥)

.. ونزلت الآيات تترى حول فضل المقاتلين فى سبيل الله، وفضل المقاتل على من سواه، فى سورة النساء :
لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا صلى الله عليه وسلم ٩٥)
.. ولما سمع عبد الله بن مكتوم، وكان أعمى، ما تنزل من رب العالمين، انتابه هم عظيم، فعتمت حياته، فامتنع ليومين عن الطعام، وعن الكلام، ثم حزم أمره ووقف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتعد، وقد شحب لونه من خشية الله، وقال :
ـ يا رسول الله، فكيف من لا يستطيع الجهاد ؟؟.
وغشيت رسول الله صلى الله عليه وسلم السكينة، ثم سرى عنه، فأعاد ترتيل الآية، بما تنزل عليه تبيانا من الله سبحانه :
لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا صلى الله عليه وسلم ٩٥)
.. فما أرحمك يا إلهى بعبادك .
.. استمعت إلى عبدك فأفضت .
.. ولم ترض له ألما ولا خوفا .
.. وأبنت عن هذه الرحمة فى قولك تعاليت، حاسما لأى شك، مانعا لأى ظن، فى سورة الفتح :
لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا صلى الله عليه وسلم ١٧)
.. كما بينت يا ربنا للمؤمنين عظمة قدر الشهداء، وما أعددته لهم من جنات النعيم، ونزل طيبة، وحياة لا تنقطع، فى سورة آل عمران :
وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ صلى الله عليه وسلم ١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ صلى الله عليه وسلم ١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وسلم ١٧١)
.. وهكذا أصبحت أعظم أمنيات المسلم، أن يكون له شرف الجهاد فى سبيل الله، وسعادة الاستشهاد والفوز بالجنة .

ـ ٢ ـ

.. وحتى لا يثير رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاوف اليهود، أو يروعهم، تخير متسعا من الأرض البور خارج المدينة، وبدأ المسلمون يتدربون فيه على فنون القتال .
.. وتغير إيلاف الناس، واعتادوا مجافاة نوم القيلولة، بخروجهم وقت الظهيرة فى مهام يكلفون بها، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسرايا فى مهام استطلاعية، وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة أول سرية خرجت من المدينة واتجهت إلى الأبواء، حيث دفن بيديه الشريفتين، وهو صبى، أمه آمنة بنت وهب، فوادعه بنو ضمرة أصحاب المكان، وأعطوه عهدا بالا ينصروا عليه أحدا، وألا تكون أرضهم موقعا لعدو، أو مكانا تستطلع

منه قوة المسلمين بالمدينة من قبل أعدائهم، وعادت السرية دون قتال، وإن كان المسلمين قد كسبوا حليفا جديدا .

.. ويتوالى إرسال السرايا للاستطلاع، والتدريب، ومتابعة تحركات قوافل قريش، التى تروح وتأتى بين مكة والشام عابرة حدود المدينة، ولتأمين هذه المداخل من أية محاولة للغزو .

.. ولقد خرجت هذه السرايا بقيادات مختلفة لاكتشاف قدرات القادة، ومنها ما عقد لعبيدة بن الحارث بن عبد مناف، فلقد خرج مؤمرا على كتيبة قوامها ثمانون من المهاجرين، فالتقوا بجمع عظيم من قريش قدم مستطلعا قوة المسلمين بالمدينة بأسفل ثنية المرة، وقد كثر الله عدد المسلمين فى نظر المشركين فأصابهم الرعب، وارتدوا مدبرين، ولم يقاتلوا المسلمين رغم تفوق المشركين عددا وعدة، حتى أنه كان يواجه المسلم الواحد عشرة من المشركين .

.. وعاد المسلمون إلى المدينة، وقد لجأ إليهم بضعة نفر من المسلمين ممن كانوا مع المشركين، وكانوا قد احصروا بمكة، وهم يكتمون إسلامهم، ولم يستطيعوا الهجرة : مهللين مكبرين، يحمدون الله على ما أعزهم به

.. بينما عاد المشركون إلى مكة، يقصون على أهلهم ما أراهم الله من القوة التى أصبح عليها من هاجروا .

.. وفى شهر شعبان من ذات السنة، اكرم الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، واستجاب لكثرة دعائه، لتكون قبلته كقبلة الخليل إبراهيم υ، وأن تتحول الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة، فتنزل قوله تعالى من سورة البقرة :

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ صلى الله عليه وسلم ١٤٤)

.. وتحول المسلمون، وجعلوا قبلتهم إلى مكة المكرمة، وتحدث اليهود بكل ما يسئ، وكثر لغطهم، ورد عليهم علام الغيوب، ووصفهم بالسفهاء فى قوله تعالى بسورة البقرة :

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صلى الله عليه وسلم ١٤٢)

.. ثم عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة بن عبد المطلب τ، لواء سرية من ثلاثين رجلا من المهاجرين، مضت إلى العيص حيث طريق الساحل الذى تسلكه قوافل قريش إلى الشام، فلاقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة من المشركين، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فنكصوا عن قتال المسلمين، وفروا فرارا، وازدادت خشية قريش، وعظم خوفها من قوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه .

كما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سريتين، الأولى إلى "بواط"، واستخلف عند خروجه

السائب بن مظعون، تدريبا وتعليما لصحابته على الولاية ؛ وكانت سريته الثانية

إلى العشيرة، وهناك وادع بنى ضمرة للمرة الثانية، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا، قال فيه :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم، وأن النبى صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك عهد الله وعهد رسوله .

وإذا كانت كل تلك السرايا لم يتحقق فيها قتال بين المسلمين وأعدائهم من المشركين، فلقد علمتهم السمع والطاعة، وحطمت فيهم إيلافهم .

.. وفى تلك الأيام من شهر شعبان، فرض الصيام على المسلمين، بعد أن كان تطوعا، ليزيدهم تدريبا على مقاتلة النفس، والصبر على المكاره، فنزل قول الله تعالى، فى سورة البقرة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ صلى الله عليه وسلم ١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَصلى الله عليه وسلم ١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ صلى الله عليه وسلم ١٨٥)

.. ومع ثبوت رؤية هلال رمضان ولليلتين خلتا منه، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر قافلة ضخمة بقيادة أبى سفيان، كانت عائدة بتجارة لقريش من الشام فى ألف بعير، فبعث صلى الله عليه وسلم بطلحة بن عبد الله التيمى وسعيد بن نفيل، ليتحسسا أخبارها .

ـ ٣ ـ

اليوم : السبت الثانى عشر .
الشهر : رمضان .
السنة : الثانية من الهجرة .

.. هذا مشرق بدر الكبرى، يوم الفرقان، ورغم مرور ما يقرب من عشرة أيام، لم يعد الرسولان اللذان خرجا لاستطلاع قافلة أبى سفيان، وعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا ينتظر عودتهما، فجمع أصحابه، وقال لهم:

ـ هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

.. وظن المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقصد قتالا، وإنما يحفز المهاجرين ليستردوا أموالهم التى انتهبتها قريش، فاستجاب البعض للنداء، وتثاقل البعض الآخر من الذين هان عليهم ما خلفوا وراءهم فى قريش، مفضلين ما وعدهم به الله من جزاء أوفى، وإن خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار لأول مرة، فلقد كانت السرايا الأولى جميعها من المهاجرين، فكان تعداد من خرجوا ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلا، ولم يخرج معهم عثمان بن عفان، لاشتداد المرض على زوجه رقية بنت محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لرقية خادمة ترعاها .

.. واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا لبابة الأنصارى أميرا لها، واستخلف عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة بالمسلمين، ثم سار بجند الله، وليس معهم إلا ثلاثة أفراس، وسبعون بعيرا، فكان يتعاقب كل ثلاثة منهم على ركوب البعير الواحد، وكذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى بن أبى طالب، ومرثد بن أبى مرثد، فقالا للحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ نحن نمشى عنك يا رسول الله، وتظل أنت راكبا .

فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ما أنتما بأقوى منى على المشى، ولا أنا بأغنى عنكما عن الأجر .

وتواصل مسير جيش المسلمين، حتى نزل فى بيوت السقيا خارج المدينة، فعسكر بها، وعندما أذن لصلاة المغرب، أمر نبى الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بالشرب من مائها وشرب معهم، ثم توضأ واستقبل القبلة وكبر وتوجه إلى السماء، وقال :

ـ اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك، دعاك لأهل مكة بالبركة، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مدهم وصاعهم، مثلما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين .

.. وبعد أن انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته، ثم إفطاره، لبس درعه، وتقلد سيفه، واستعرض المقاتلين، ودعا لهم قائلا :

ـ اللهم انهم حفاة فاحملهم، عراة فاكسهم، جياع فأشبعهم، عالة فأغنهم من فضلك .

.. ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الجند بعض الضعفاء والغلمان، أمر بردهم إلى المدينة، ولكن "عمير بن أبى وقاص" بكى ـ وكان ابن ستة عشر عاما ـ فرق له قلب الحبيب صلى الله عليه وسلم فأجازه .

كما رأى بين الجند "حبيب بن أساف"، فرفض مشاركته فى الحرب، لأنه كان على غير دين الإسلام، وقال :

ـ لا يصحبنا إلا من كان على ديننا .

فأعلن "حبيب " إسلامه، وضمه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجند، وسلم اللواء إلى مصعب ابن عمير بن هاشم، وكان لون اللواء أبيض، وكانت فى المقدمة رايتان لونهما أسود وهما أصغر قليلا من اللواء، إحداهما مع على بن أبى طالب τ، والثانية مع سعد بن معاذ τ، وعين على المشاة، وهم مؤخرة الجيش، قيس بن أبى صعصعة .

.. وصل جيش المسلمين إلى بئر الروحاء يوم الاثنين، ورد رسول الله اثنين من المرضى إلى المدينة، وصحبهم الحارث بن حاطب العمرى فلقد ولاه نبى الله صلى الله عليه وسلم على بنى عمرو بن عوف، بعد أن بلغه عنهم، ما جعل الشكوك تساوره منهم.

.. وبعد أن استراح الجند، عادوا إلى السير قاصدين بدرا .

ـ ٤ ـ

وعلم أبو سفيان بأمر خروج المسلمين لحصار قافلته،وكان ذا دهاء وحنكة، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى، وبعثه إلى مكة ليستثير همة رجالها ليهبوا إلى نجدته، بعد أن أجزل له العطاء وأمره أن يدخل على قريش فى حال ذرية حتى يستثير حماسهم .

وبعد ذلك سلك أبوسفيان طريقا مغايرا للطريق الذى اعتاد أن يسلكه، مبتعدا بالقافلة عن بدر، وأخذ يستحث العير ويسرع بها إلى طريق البحر، ليفلت من المسلمين .

.. وحين وصل جيش المسلمين إلى ذفران، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عير قريش قد نجت من الحصار، وأن قريشا قد استنفرت، وأن القرشيين قد خرجوا إليهم فى نفر كبير، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، وقال :

ـ إن القوم قد خرجوا إليكم من مكة على كل صعب وذلول مسرعين، فما تقولون : العير أحب إليكم من النفير ؟.

فقال بعضهم :

ـ يا رسول الله امش بنا إلى العير، فإننا إنما خرجنا لها، هلا ذكرت لنا القتل حتى نتأهب .

وتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر الصديق τ فقال وأحسن القول، ثم تبعه عمر بن الخطاب τ، فقال :

ـ يا رسول الله إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، وسوف يقاتلونك بكل قوة، فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال :

ـ يا رسول الله، امض لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها : اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون ؛ ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون . والذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك حتى تبلغه .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد بخير، ثم اتجه إلى جموع المسلمين قائلا :

ـ أشيروا على أيها الناس .

فنهض سعد بن معاذ وقد أدرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يريد كلمتهم هم : الأنصار، وقال :

ـ أنا أجيب عن الأنصار يا نبى الله، فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، أظعن حيث شئت، وصل من شئت، واقطع من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت ؛ والذى نفسى بيده ما سلكت هذا الطريق قط وما لى به من علم، وما نكره أن نلقى عدونا، وإنا لصبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله .

أشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور الرضا بمن نصروه، وقال :

ـ سيروا على بركة الله، وابشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين إنها لكم ؛ والله لكأنى الآن أنظر مصارع القوم .

ـ ٥ ـ

هب جهيم بن الصلت بن عبد المطلب من غفلته فزعا، فقال لقريش :

ـ إنى بين النائم واليقظان، إذ أنظر إلى رجل قد أقبل على فرس، ومعه بعير له، حتى وقف عليه، ثم قال : قتل عتبة وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وأبو البحترى، وأبو الحكم بن هشام ..

.. واستطرد يعدد أسماء رجالا من أشرافهم أعمل فيهم القتل، وعدد رجال آخرين تم أسرهم، ثم قال :

ـ ولقد رأيت الرجل ضرب لبة بعيره بسلاحه ، فتفجر منها الدم فأرسلها فى العسكر تجرى، فما بقى خباء من أخبيتنا إلا أصابه منها دم .

.. أصابت قريش فزعة عظيمة مما سمعت، فلقد سبقت رؤية جهيم، رؤية أخرى لعاتكة بنت عبد المطلب، تحققت بوفود رسول أبى سفيان يستنفر القوم، وأراد أبو جهل أن يذهب الروع عن صحبه، فقال متهكما من رؤيا جهيم :

ـ هذا نبى آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غدا إن نحن التقينا من منا المقتول، نحن أو محمد وأصحابه .

لما اطمأن أبو سفيان على نجاة عيره من أيدى المسلمين، أرسل إلى من خرجوا من قريش، كتابا يقول فيه : لا حاجة إلى مجيئكم فارجعوا .

فلما وصل كتابه، قال أبو جهل :

ـ والله لا نرجع حتى نحضر ماء بدر، فنقيم عليها ثلاثة أيام ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف القيان، وتسمع بنا قبائل العرب وبسيرنا وجمعنا .

.. بينما أشار الأخنس بن شريق على قومه من بنى زهرة بالرجوع، قائلا :

ـ يا بنى زهرة، قد نجى الله أموالكم، وخلص لكم صاحبكم وما معه، ولم تبق لنا حاجة فى أن تخرجوا من غير منفعة، فاجعلوا الرأى لى،ولا تسمعوا قول أبى جهل.

وحاول أبو جهل أن يثنى الأخنس عن رأيه، لكن الأخنس ذكر له مقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصارع الأقوام، ثم سأله، قائلا :

ـ باللات والعزى أترى محمدا يكذب ؟!.

قال أبو جهل :

ـ ما عهدنا عليه وهو بين أظهرنا أنه كذب قط، وكنا نسميه الأمين، ولكن إذا كانت فى بنى عبد المطلب السقاية والقيادة، ثم تكون فيهم النبوة، فأى شئ قد تبقى لنا ؟!!.

.. ولم يستجب له الأخنس ورجع ببنى زهرة، وتبعهم بنو عدى، فكان مجموع من عادوا إلى مكة وتركوا معسكر المشركين ثلاثمائة رجل .

ـ ٦ ـ

عسكر المسلمون بالقرب من بدر، وارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصحبه أبو بكر فابتعدا عن المعسكر، يتحسسان الأخبار فالتقيا بشيخ من العرب، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال الشيخ :

ـ لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما ؟!.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ إذا أخبرتنا أخبرناك .

قال الشيخ :

ـ نعم، ذاك بذاك، بلغنى أن قريشا خرجوا من مكة يوم كذا، فإن صدقنى الذى أخبرنى، فهم الآن بقرب بدر، وبلغنى أن محمدا وصحبه قد خرج من يثرب يوم كذا، فإن صدقنى الذى أخبرنى، فهم الآن بالقرب من بدر، فممن أنتما ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ من ماء .

.. ثم انصرف ومعه أبو بكر عائدين، فظن الشيخ أنهما من ماء العراق .

وفى المساء، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر ليتقصوا الأخبار، فعثروا بغلامين يرتوون مع نفر من قريش، فأمسكوا بالغلامين، وعادوا بهما، وسألوهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى، من يكونان فقالا أنهما غلامان لبنى الحجاج وبنى العاص، فقالوا:

ـ وماذا كنتما تعملان .

قالا :

ـ نحن سقاة قريش، بعثتنا لنستقى لهم .

فقالوا للغلامين :

ـ بل أنتم لأبى سفيان وتستقيان لعيره .

وأنكر الغلامان ذلك، فضرباهما، فلما أوجعهما الضرب، قالا :

ـ نحن لأبى سفيان .

.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتهى من صلاته، فدفعوا إليه الغلامين، فقال لهم :

ـ إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما ؛ والله لقد صدقا، إنهما لقريش .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للغلامين :

ـ أخبرانى عن قريش ؟.

قالا :

ـ هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى .

فقال لهما :
ـ كم القوم ؟.
قالا :
ـ كثير عددهم .
قال :
ـ وما عدتهم ؟.
قالا :
ـ لا ندرى .
قال :
ـ كم ينحرون من الإبل كل يوم ؟.
قالا :
ـ يوما تسعا، ويوما عشرا .
فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وقال :
ـ القوم ما بين التسعمائة والألف .
ثم قال للغلامين :
ـ فمن فيهم من أشراف قريش ؟.
..وراح الغلامان يرددان أسماء أشراف قريش، ولما انتهيا، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وقال :
ـ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .
.. كان جيش المسلمين قد نزل فى العدوة الدنيا، وهى ذات تراب كثير ورمال ناعمة، فعطش المسلمون، واشتد بهم العطش، حتى هدهم هدا، قال بعضهم :
ـ أتزعمون أنكم أولياء الله، وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم عطاش، حتى إذا ضعفتم هجموا عليكم وقتلوكم .
وقدمت السحب تترى، وأعتمت السماء، ثم أنزل الله مطرا فجاجا، أطفأ الغبار ولبد الأرض، وشرب المسلمون وسقوا الركائب، واغتسلوا، فطابت أنفسهم، وهدأت وساوس الشيطان ؛ وحمدوا الله كثيرا على ما رزقهم، ثم غلبهم النعاس فناموا لليلتهم نوما عميقا ؛ بينما تحركت السحب إلى حيث أقام المشركون، فاشتد المطر وتواصل، وأبرقت السماء وأرعدت، فذعروا وأصابهم الخوف والفزع .
وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنودى للصلاة، وبعد انتهائها، وقف فيهم خطيبا، فقال بعد أن حمد الله تعالى:
ـ فإننى أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق، لا يقبل الله فيه أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر فى مواطن البأس يفرج الله به الهم، وينجى به من الغم، وتدركون النجاة فى الآخرة، فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شئ من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول : " لمقت الله أكبر من مقتكم لأنفسكم ". انظروا الذى أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم به بعد ذله، فاستمسكوا به، يرض به ربكم عنكم، وابلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير،يغفر الله لى وللمسلمين.

.. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش أن يتقدم إلى أقرب مكان من بئر بدر، فينزل بها، فجاءه الحباب بن المنذر بن الجموح، فقال :
ـ يا رسول الله، أهذا المنزل أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟.
قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ بل هو الرأى والحرب والمكيدة .
قال الحباب :
ـ يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزل به، فإنى أعرف عذوبته وكثرته، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ونقذف فيه الآنية، ونغور ما سواه من الآبار، لئلا يأتوها من خلفنا فيشربوا، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ لقد أشرت بالرأى يا حباب .
ونهض بمن معه من جند الله، وعمل بما أشار حباب، وبات ليلته يصلى عند جذع شجرة قطع أعلاه .
فلما أصبح الصباح ..
.. وانتهى المسلمون من الصلاة، وجلس سعد بن معاذ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له :
ـ يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا، ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ينصحونك ويجاهدون معك .
وتقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله " سعد " قبولا حسنا، ودعا له، ونهض سعد إلى العمل، فتخير تلا يشرف على ساحة القتال، وبنى فوقه العريش من سعف النخيل .

ـ ٧ ـ

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمر بن الخطاب إلى قريش، وطلب منه أن يقول لهم :
ـ ارجعوا، فإنه إن يلى هذا الأمر منى غيركم، أحب إلى من أن تلوه منى، وإن أليه من غيركم، أحب إلى من أن يكون أليه منكم .
ولما سمع المشركون ما حمله إليهم عمر، قام من بينهم حكيم بن حزام، وقال :
ـ قد عرض محمد نصفا فاقبلوه، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من الإنصاف .
واغتاظ الشيطان من ميل الناس للمسلامة والسلام، ولم يعجبه الحال، فوسوس لأبى جهل حتى أغضبه، فانتفض يرد على حكيم منكرا، وقال :
ـ والله لا نرجع بعد أن أمكنا منهم .
وعاد عمر τ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليعلن رفض قريش للمسالمة .
.. ولم يكف الشيطان عن النفخ فى النار التى أوقدها فى نفوس المشركين، بل زين لهم أن يؤكدوا رغبتهم فى القتال ، وإعراضهم عن المسالمة وهم أهل القوة والكثرة، والأقدر على الانتصار، وفح قائلا :
ـ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم .

واستشاط المشركون غرورا، واندفعوا يسعون إلى حوض الماء الذى أحاط به المسلمون، حتى وردوا الحوض ليعبوا من مائه، وسارع المسلمون لمنعهم، ولكن نبى الله صلى الله عليه وسلم ، قال لهم :
ـ دعوهم، فلا يشرب منهم أحد إلا هلك .
.. ثم بعثت قريش أبا سلمة الجشمى، ليستطلع حال المسلمين ويقدر عددهم، فأخذ يصول ويجول بفرسه عن مبعدة، وبعد وقت ليس بالقليل، عاد يقول :
ـ هم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر إذا كان لهم كمين أو مدد.
.. وانطلق بفرسه ثانية، وراح يجوس فى الوادى باحثا، ورجع إليهم يقول :
ـ والله ما رأيت جلدا ولا عددا ولا حلقة ولا كرعا، ولكنى رأيت قوما لا يريدون أن يعودوا إلى أهليهم، قوما مستميتين، ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنها الحصى تحت الجحف، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلا منكم، فقروا رأيكم .
فلما سمع حكيم بن حزام ما قيل، مشى فى الناس ليرجعوا عن حرب محمد، حتى أتى عتبة بن ربيعة، وقال له:
ـ يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك فى أمر تذكر فيه بخير حتى آخر الدهر ؟.
قال عتبة :
ـ وما ذاك يا حكيم ؟.
قال حكيم :
ـ ترجع بالناس، وتتحمل أنت دية عمرو الحضرمى .
وكان عمرو قد قتل فى إحدى السرايا التى أخرجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عتبة :
ـ قد فعلت، وأنت شاهد على بذلك، ولكن عليك بأبى جهل فإنى لا أخشى أن يخالف بين الناس غيره .
وذهب حكيم ليبحث عن أبى جهل، بينما وقف عتبة يخطب فى الناس، قال :
ـ يا معشر قريش، لا تصنعوا شيئا لمحمد وأصحابه، والله لئن ننتصر عليه، لا يزال الرجل منكم ومنهم ينظر فى وجه الرجل الذى قتل أخاه، أو ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته فيندم، وإن انتصروا عليكم كانت الطامة الكبرى، ورأيى أن ترجعوا وتخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم وحدكم لم تتعرضوا له بسوء .

.. ولما عثر "حكيم" بأبى جهل، عرض عليه العودة، وما رأى عتبة من افتداء لعمرو، فارتعب الشيطان مما عرض حكيم رعبا شديدا، وثار ومار، وقال أبو جهل بلسان الشيطان، وقد أصبح على نفس حاله من الثورة والغضب :
ـ جبن والله عتبة حين رأى محمدا وأصحابه، كلا، واللات والعزى، لا نرجع
حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما قال عتبة ما قال إلا خوفا على ابنه الذى يقاتل فى صفوف المسلمين .
وبعث أبو جهل إلى عامر الحضرمى شقيق عمرو، فلما جاءه عامر، نفخ الشيطان فى النار، وقال له :
ـ هذا عتبة حليفك، يريد أن يرجع بالناس بعد أن رأى خذ ثأرك علينا سهلا .

.. ونفث الشيطان، فانتفض عامر وقد أهوسه الغضب، ورمى بقوسه ودرعه، وحثى التراب على رأسه، وأخذ يجأر صارخا فى وجوه المشركين، يقول :

ـ وا عمراه، وا عمراه .

.. أثار ما فعل عامر حمية الجاهلية فى قريش، وتنادوا إلى القتال، وخفت صوت العقل والحكمة، وخرج من بينهم الأسود بن عبد الأسد المخزومى، وقد اشتدت حميته وتمكن منه الشيطان، وأقسم أنه سيرد ماء المسلمين أو يهلك دونه، واندفع مهووسا يجرى إلى معسكر المسلمين، شاهرا سيفه مناديا للمبارزة، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب τ بضربة من سيفه فبتر ساقه، ثم ضربه ضربة ثانية أهلكت المشرك .

.. وكبر المسلمون وهللوا للنصرة الأولى، وقال نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أرى الغيب :

ـ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ..

.. ثم أخذ نبى الله صلى الله عليه وسلم ، يشير بيده إلى أماكن محددة من الأرض، ويقول:

ـ هذا مصرع عتبة، وهذا مصرع أمية، وهذا مصرع أبى جهل، وهذا مصرع فلان، وفلان ...

.. وراح نبى الله صلى الله عليه وسلم يعدد أسماء المشركين الذين سيقتلهم الله ببدر، ويحدد الأماكن التى سيهلك فيها كل واحد منهم، وكان ذلك ليلة الجمعة .

ـ ٨ ـ

.. ولما أشرق صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إباحة الإفطار للصائمين، وبدأ بنفسه فأكل كسرة من الخبز وتبلع بالماء، وتبعه المسلمون، ثم أخذ يصف الجند ويناديهم بالاسم،ليأخذوا مواقعهم مستوين متلاصقين، وقد جعل الشمس خلفه، وبينما هو ينظر إلى الصفوف لمح سواد بن غزية، وقد تقدم الصف ببضع خطوات، فدفعه فى صدره برفق، وقال :

ـ استو يا سواد .

قال سواد متألما :

ـ أوجعتنى يا رسول الله .

فتألم رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولة سواد، وكشف عن صدره، وقال :

ـ رد ضربتى يا سواد .

واندفع سواد من الصف، إلى حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتضنه، وأخذ يلصق وجهه بصدره ويقبله، وهو يبكى فى وجد، وسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلا :

ـ ما حملك على ما صنعت يا سواد ؟!.

قال سواد، وقد غسل الدمع وجهه :

ـ يا رسول الله، ونحن فى هذا الموقف، توقعت أن أقتل، فأردت أن يكون آخر عهدى بالدنيا أن يمس جلدى جلدك، وأن أعتنقك .

فى مودة، مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس سواد، ودعا له بالخير .

.. ثم دفع صلى الله عليه وسلم برايته إلى مصعب بن عمير، وأمره فوضعها حيث أشار، وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العريش، فاستقبل القبلة، ورفع ذراعيه، وراح يدعو الله ويستنصره، قائلا :

ـ اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم أتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض .

.. فما زال يهتف بربه، حتى سقطت عباءته عن كتفيه، فلما دخل أبو بكر ورأى الحبيب على هذا الحال من شدة الضراعة،رد العباءة على
منكبيه، وأخذ بيده، وقال له مخففا :

ـ يا نبى الله كفاك تناشد ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك .

.. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من العريش ليطلع على المشركين، فلما رأى كثرة عددهم وعتادهم، عاد إلى العريش، فصلى ركعتين، وعن يمينه أبو بكر ، وتوسل إلى الله تعالى قائلا :

ـ اللهم لا تودع منى، اللهم لا تخذلنى، اللهم أنشدك ما وعدتنى .

وخرج عتبة بن ربيعة وعن يمينه أخوه شيبة وعن يساره ابنه الوليد، قاصدين معسكر المسلمين، منادين للمبارزة، فخرج إليهم فتية من الانصار، فلما اقتربوا منهم سألهم عتبة :

ـ من أنتم ؟.

قالوا :

ـ رهط من الأنصار .

قال عتبة :

ـ أكفاء كرام، ليس لنا بكم حاجة، فارجعوا وأخرجوا إلينا أكفاء من قومنا وأبناء عمنا .

.. بلغ الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل من العريش، وطلب أن يرجع من تقدموا للمبارزة، ثم ذهب إلى حيث تجمع المسلمون، وقال :

ـ يا بنى هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، قم : يا على، قم يا حمزة، قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .

فقاموا مسرعين، فلما دنوا من المشركين سألهم عتبة من يكونون، فعرفوا بأنفسهم، فقال عتبة :

ـ نعم، أكفاء كرام .

وتبارز ثلاثتهم، فسرعان ما قتل حمزة τ شيبة، فكبر المسلمون، ونزل الرعب والشؤم فى قلوب قريش وازدادوا فزعا، لما رأوا عليا يجندل الوليد، ثم كر حمزة وعلى على عتبة فقتلاه، بعد أن تمكن من عتيبة فجرحه، وارتفعت كلمة النصر :

ـ الله أكبر .

وحمل عبيدة جريحا إلى العريش، وأفرشه رسول الله صلى الله عليه وسلم ساقه، فنظر طويلا فى وجه الحبيب، ثم قال متسائلا :

ـ يا رسول الله، إذا مت من جرحى هذا، ألست شهيدا ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أشهد أنك شهيد .

ـ ٩ ـ

.. وتواجه الجمعان، فرفع رسول الله وجهه وذراعيه إلى السماء، وقال:

ـ اللهم إنك أنزلت على الكتاب، وأمرتنى بالقتال، ووعدتنى إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد ؛ اللهم هذه قريتى قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة.

وتنزل قول العزيز القدير فى سورة الأنفال :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ صلى الله عليه وسلم ٩)

.. فكان المسلم لا يرى المشركين إلا قلة، وكذلك كان حال المشركين؛ فلما التحم الجيشان، وجدت قريشا المسلمين وقد تكاثر عددهم، بما لا قبل لهم به، فتنزل الرعب فى قلوبهم، ولما

اشتد القتال، غادر رسول الله العريش، ونزل إلى المسلمين يشحذ هممهم، ويقول من سورة آل عمران :
وَسَارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ صلى الله عليه وسلم ١٣٣)
.. ثم يستطرد صلى الله عليه وسلم قائلا :
ـ والذى نفس محمد بيده، لا يقاتل اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة .
.. قال له عمير بن الخمام، وبيده تمرات يأكلهن :
ـ يا رسول الله، أما بينى وبين أن أدخل الجنة، إلا أن يقتلنى هؤلاء.
قال الصادق الصدوق صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم .
فرمى عمير بالتمرات من يده، وقال :
ـ والله لئن حييت حتى آكلهن، إنها لحياة طويلة .
واستل سيفه، ورمى بنفسه فى خضم المعركة يقاتل فى سبيل الله .
.. وتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى، ورمى بها فى وجوه قريش، وقال :
ـ شاهت الوجوه، اللهم أرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم .
ثم نادى المسلمين، قائلا :
ـ شدوا .
واقترب المسلمون بعضهم من بعض، وتلاحموا، حتى أصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، إعمالا لأمر ربهم سبحانه وتعالى فى سورة الصف :
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ صلى الله عليه وسلم ٤)
.. ثم اندفعوا إلى لقاء المشركين، واتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العريش، يتبعه أبو بكر، وأخذ صلى الله عليه وسلم يدعو ربه :
ـ اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد فى الأرض، اللهم أنشدك وعدك وعهدك .
وأبو بكر τ يقول واثقا :
ـ يا نبى الله، إن الله منجز ما وعدك، والله لينصرنك الله، وليبيضن وجهك .
.. وارتعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أفاق فقال مستبشرا لأبى بكر :
ـ أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع .
.. وهبت ريح خفيفة، ثم اشتدت الريح، ثم زادت اشتدادا وقوة، ويقال إنها كانت حركة الملائكة تتنزل بأمر ربها، لتحارب مع المسلمين، وتثبت فؤادهم :
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ صلى الله عليه وسلم ١٢) سورة الأنفال
مع غروب الشمس انهزم المشركون، وقتل منهم سبعون كان منهم كل من عدد رسول الله صلى الله عليه وسلم مصرعهم، كما أسر سبعون، ونكص الشيطان على عقبيه، وفر قائلا للمشركين :
ـ إنى برىء منكم .
ولما جمعت جيف من هلك من المشركين، تم دفنها فى القليب، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، ونادى قائلا :
ـ يا أهل القليب، يا هيبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام، يا.

.. وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعددهم اسما اسما، ثم قال :
ـ بئس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وأوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟..
فقال عمر بن الخطاب :
ـ يا رسول الله، كيف تكلم أجسادا أجيفوا ولا أرواح فيها ؟!.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئا .
.. وراجع المسلمون قتلاهم فكانوا ثلاثة عشر شهيدا، من بينهم الصبى : عمير بن أبى وقاص، وعمير بن الخمام .
.. ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاث ليال، جمعت فيها الغنائم، وكانت مائة وخمسين بعيرا، وعشرة أفراس، ومتاعا وسلاحا وثيابا ..
وقد اختلف المسلمون فى اقتسام الغنائم، فقال الذين قاتلوا العدو :
ـ والله لولانا ما أصبتم الفىء .
وقال الذين سعوا فى جمعه :
ـ هو لنا فلقد عنتنا فى جمعه .
وقال الذين قاموا على حراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ والله ما أنتم بأحق به منا .
.. فنزل قول الله تعالى، من سورة الأنفال :
يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وسلم ١)
ولما سمع عبادة بن الصامت ما تنزل من قول الله، قال آسفا :
ـ نزلت سورة الأنفال فينا معشر أهل بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .
.. عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه إلى المدينة، وقد صحب معه الأسرى والغنائم، ولما مالت الشمس للغروب تخطى مضيق الصفراء، ونزل بكثيب حيث مات عبيدة ابن الحارث متأثرا بجراحه، فصلى عليه ودفن هناك، وفى نفس المكان، تنزل قول الله تعالى، من سورة الأنفال :
وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ صلى الله عليه وسلم ٤١)
فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغنائم لتقسم، ثم أمر أن تقسم الأربعة أخماس على أهل بدر، فقال سعد بن معاذ :
ـ يا رسول الله، أتعطى فارس القوم الذى يحميهم مثل ما تعطى الضعيف ؟!.
قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ وهل تنصرون إلا بضعفائكم ؟.
وانطلق البشير إلى المدينة بخبر النصر، فوجد أهلها قائمين على دفن رقية بنت رسول الله τ، فلما انتهوا، خرجوا لاستقبال الحبيب صلى الله عليه وسلم ، بمثل الحفاوة والفرحة التى استقبلوه بها يوم وفد عليهم لأول مرة .

.. حمل أول من عاد من أرض القتال، خبر الهزيمة إلى مكة، قبل أن تصل فلول جندهم، فأصاب أهلها حزن شديد، وإن لم يصدقوه لهول ما قال، ثم بدأت شراذمهم تقبل، فتدافعوا يتحسسون فلذات أكبادهم بين من فروا، فلم يجدوهم، وسمعوا أبا سفيان بن المغيرة يقول لأبى لهب وهو كبيرهم :

ـ والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحاهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، ومع ذلك لا ألوم من هزموا، فلقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق، لا يقف أمامهم شئ ولا يبقون على شئ .

.. وهنا انطلق الحزن يجأر بين الشعب والأحياء، ومات أبو لهب بعدها بسبعة أيام منبوذا فقد دهمه الطاعون كما دهم من قبله أبرهة الأشرم، فتباعد عنه بنوه ثم دفعوا جيفته بالعصى إلى أن أسقطوه فى حفرة، ثم أهالوا عليه التراب، وظل النواح والبكاء على قتلى قريش قائما لا ينقطع لمدة شهر .

ولما تدبر العقلاء من قريش أمرهم، قالوا :

ـ لنكف عن النواح، حتى لا نشمت فينا محمدا .

.. ثم ادركوا أن العير التى عاد بها أبو سفيان مازالت تحمل تجارتهم، فتعاهدوا على أن يكون عائد ربحها جميعه من أجل قتال محمد وصحبه ثأرا لقتلاهم .

.. وبدأ القرشيون بفداء الأسرى، وكان من بينهم زوج زينب بنت رسول الله τ أبو العاص بن الربيع، ولم يكن صاحب مال، فأرسلت زينب τ بقلادة كانت قد أهدتها لها أمها السيدة خديجة τ عند زواجها، فرق لها قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب من أصحابه أن يعتق " أبو العاص " وترد القلادة لصاحبتها فوافقوه، على أن يرد زينب إلى أبيها، فهى محصورة فى مكة، بعد أن فرق بينهما عدم دخول زوجها فى دين الله .

وانتهى صيام رمضان بثبوت رؤية الهلال لمن خرجوا يستطلعونه، وعند شروق شمس غرة شهر شوال، أذن بلال للصلاة، وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم جموع المسلمين لأول مرة، ليصلوا صلاة عيد الفطر، ولما انتهوا، خطب فيهم، وبين لهم مشروعية زكاة الفطر، وحضهم على إخراجها .

.. وبعد أيام، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة بنت أبى بكر الصديق τ، وكان قد بنى لها دارا، بجانب داره الأولى، لصق المسجد .

أما " أبو العاص " فعندما عاد إلى داره، جهز زينب τ ثم أرسلها إلى المدينة، وفاء لما عاهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى غفلة من قريش، التى أصبح همها الذى يهم أهلها بالليل والنهار، وشغلها الشاغل : تأليب قبائل العرب، على محمد صلى الله عليه وسلم وقومه، وخرجت رسلهم إلى كل وجهة، يقودهم احكم حكمائهم، وزعماء سفرتهم : فتوجهوا إلى تهامة وكنانة والأحابيش وغيرها من القبائل، يستنصرونهم ويستنفرونهم، ويخوفونهم من زيادة نفوذ محمد فى المدينة وما حولها، ويتمثلون بما هو واقع، فلقد أصبح محمد يمسك بزمام تجارتهم ويتحكم فيها، بتحكمه فى طرقها إلى اليمن والشام، كما أن هناك خطورة من انتشار دين محمد وفكره، لأن فيه اندحارا كاملا لنفوذ السادة، ومساواة بين الجميع، وضياعا لجبروت الأنساب والأحساب، المتسلط على رقاب العباد من الضعفاء، فرب محمد قال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ صلى الله عليه وسلم ١٣) سورة الحجرات

.. ومحمد صلى الله عليه وسلم هو من قال :

ـ لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

.. فماذا ينتظرهم جميعا بعد هذا إلا الأفول والضياع ؟!!.

الفصل الخامس عشر :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ سورة الأحزاب

- ١ -

لم تنس قريش قتلاها ببدر لحظة واحدة ، فالنساء لا يكففن عـن مـضغ الأحـزان ، وتفلها فـى وجوه الرجال ، لدفعهم دفعا للتعجيل بقتال محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه .
وبدأت الحشود تتجمع فى مكة من كـل مكـان ، حتـى وصـلت لأكثـر مـن ثلاثـة آلاف رجـل ، وثلاثة آلاف بعير ، وخمسمائة فرس ، وأخذ الخوف والقلق بتلابيب العبـاس ابـن عبـد المطلـب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعث برسالة لابن أخيـه يحـذره ممـا جمعتـه وأجمعـت عليـه قريش .

.. فى غرة شوال ، وبعد أن اكتملت الحشود ، وتم إعداد السلاح والعتـاد ، تحركـت القـوات وقد ولى القيادة أبو سـفيان بـن حـرب ، كمـا انـضمت إلـى الحـشود خمـس عـشرة امـرأة علـى رأسهن هند بنت عتبة ، يحرضن الرجال ، ويحثونهم على قتل المسلمين ، ولقد وعدت هند بـأن تهب ذهبها وحليها لمن يقتل حمزة قاتل أبيها ، وتخيرت لذلك عبدا حبشيا قوى البنيـان ، عـرف بقدرته الخارقة على استخدام الرمح ، اسمه وحشى ، وحين لقيته ، واصلت نفث حقدها فيه ، وقالت له محرضة:
- لو قتلته يا وحشى ، وشفيت غليلى ، سوف أدفع ثمنك لسيدك ، وأعتقك لتصبح حرا .
.. وصل رسول العباس τ إلى مسجد قبـاء ، حيـث كـان رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم يدارس أصحابه ، وقرأ أبى بن كعب الرسالة على رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ، فطلـب منه أن يكتمها ، ولا يذيعها ، ومشى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وبـات ليلتـه ، فأرى فى منامه بقرا يذبح ، وثلما فى ذبابة سيفه ، وأنه أدخل يده فى درع حصينة ، وأنه ذابح كبشا .
.. ولمـا أصـبح، أرسـل نبـى الله صـلى الله عليـه وسـلم بـشابين مـن شـباب المـسلمين، ليستطلعا مداخل المدينة ، وعاد المستكشفان مـسرعين ، فـأخبراه بـأن قريـشا برجالهـا وخيلهـا وعيرها تعسكر على مشارف المدينة، وقد أطلقوا دوابهم ترعى الزرع، حتى أتت علـى كـل مـا هو أخضر !.
.. وتكلم الناس بالخبر ، وتجمعوا بعد صلاة الجمعة حول رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ، وقد تنادوا للقتال ، فأبلغهم بما جاءه من عمه العبـاس ، وبـصدق الرسـالة بعـدما تأكـد وصـول قريش تبغى القتال ، ثم حدثهم بالرؤيا التى رأى ، فتساءل الحضور :
- وما تأويلك لها يا رسول الله ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
- فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى ، وأمـا الدرع الحصينة فهى المدينة ، وأما الكبش فإنى أقتل حامى القوم .
.. ثم قال :
- أشيروا على ، فإن رأيتم فأقيموا بالمدينة وندعهم حيـث نزلـوا ، فـإن أقـاموا أقـاموا بـشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم ، فنحن أعلم بها منهم .
فوافقه أكثر الصحابة من المهاجرين والأنـصار ، وقـالوا إن الـرأى هـو مـا رأى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكد الأنصار على صواب رأيه ، فقالوا :
- يا رسول الله أقم بالمدينة ، ولا تخرج ، فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصــاب منا ، ولا دخلها إلا أصبنــا منـه ، فـدعهم يـا رسـول الله فـإن أقـاموا أقـاموا بـشر مجلـس ، وإن

دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة من ورائهم ، وإن رجعوا ، رجعوا خائبين كما جاءوا .

.. ولكن الكثرة الحاضرة من الشباب ، والراغبين فى الشهادة ، أخذتهم الحمية لدينهم ، وقالوا :

ـ يا رسول الله ، أخرج بنا إلى عدونا .

.. فأعرض عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم يعيدون ما قالوا فى إصرار ، وهنا قال حمزة τ وطائفة من الأنصار :

ـ إنا نخشى يا رسول الله ، أن يظن عدونا فى عدم خروجنا إليهم ، أنا جبنا عن لقائهم ، فيكون منهم جرأة علينا ، ولقد كنت يا رسول الله يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به فساقه الله إلينا فى ساحتنا .

ولم يزالوا يلحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج وهو كاره ، وبدأت أصوات المؤيدين تزداد وتغلب شيئا فشيئا ، حتى ترجح عنده الرأى بالخروج .

ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى داره ، فسارع الناس يتجهزون للخروج ، وتناوبوا حراسة مداخل المدينة ، خوفا من أن يدخلها عليهم القرشيون خلسة ، وقاموا على حراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا .

ـ ٢ ـ

اليوم : السبت ، السابع من الشهر .

الشهر : شوال .

السنة : الثالثة من الهجرة .

صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح، ثم وقف في المصلين خطيبا، وكانوا سبعمائة
رجل ، وبعد أن حمد الله تعالى واثنى عليه ، قال :

ـ يا أيها الناس ، أوصيكم بما أوصانى به الله ، فى كتابه من العمل بطاعته ، والتناهى عن محارمه ، ثم إنكم منزل أجر وزخر لمن ذكر الذى عليه ، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد كريه ، قليل من الصبر عليه إلا من عزم الله له وشده ، فإن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذى أمركم به فإنى حريص على رشدكم ، وإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو مما لا يحب الله ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر .

يا أيها الناس ، إنه قذف فى قلبى أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه ، ومن صلى على صلى الله عليه وملائكته عشرا ، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله فى عاجل دنياه أو آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد .

ما أعلم من عمل يقربكم من الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نفث فى روعى الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ، ولا ينقص منه فى شىء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجملوا فى طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه على معصية ربكم ، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته ، قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شبهات لم يعلمها كثير من الناس ، إلا من عصم الله ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى ، أوشك أن يقع فيه ،

وليس ملك إلا وله حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى إليه سائر الجسد ، والسلام عليكم .
ووقف أبو سفيان بن حرب خطيبا فى المشركين فقال :
ـ يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فنزلت بنا المصائب ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إن هى زلت زلوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه .
.. وثار عليه بنو عبد الدار ، وتوعدوه قائلين :
ـ ستعلم غدا إذا التقينا ، كيف نصنع ؟.
.. وأخفى أبو سفيان ابتسامة الرضا التى علت وجهه ، فلقد استطاع أن يحقق ما يصبو إليه من إثارة حمية أصحاب اللواء .
وحانت صلاة العصر ، وقد تم احتشاد المسلمين ، ووصل عددهم لألف رجل ، وصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دخل بيته ، وتحدث المجتمعون عن مخالفة بعضهم لرغبة رسول الله فى البقاء بالمدينة ، والدفاع عنها من الداخل ، وقالوا للراغبين فى الخروج :
ـ لقد شققتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان ينبغى لكم ، فإذا ما خرج علينا ،
تحدثتم إليه برغبتكم فى إطاعة أمره .
فلما خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد لبس ملابس الحرب ، قالوا له :
ـ يا رسول الله لقد رأيت أن تبقى فى المدينة ، وما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك .
فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلا :
ـ دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، امضوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صبرتم .
.. واستعرض جند الله ، وسار بهم خارجا من المدينة ، ولكن ثلاثمائة رجل من المنافقين وأشياعهم ، نكصوا على أعقابهم ، ودعواهم أن رسول الله لم يستمع إلى مشورتهم ويبق بالمدينة ، بينما واصل جند الله زحفهم فى عزم .
.. وبدأت الحرب ، ورمى حملة النبل فرسان المشركين ، من فوق جبل " أحد " فأثخنوهم بالجراح ، وأبلى المسلمون من الراجلين ، فى مواجهة قريش وأتباعها بلاء حسنا ، فجعلوهم يفرون فرارا من ميدان القتال ، وأخذت الجند المسلمة تجمع الغنائم ، وحين رأى حملة النبل من فوق الجبل ما يحدث أسفله ، حدثتهم أنفسهم بأن ينزلوا عن الجبل ليغنموا كما غنم غيرهم ، ونفث إبليس فيهم أكثر وأكثر ، حتى لم يصبحوا رائين إلا الغنم والغنائم ، وضاعت تحذيرات زملائهم ممن لم ينسوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أوصاهم ألا يغادروا أماكنهم بالجبل ، مهما حدث من أحداث : وَأَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ صلى الله عليه وسلم ٩٢) سورة المائدة
.. وهكذا جاء العصيان الثانى ، وانكسر سهم المسلمين .
.. فلقد انتهز خالد بن الوليد فرصة نزول حملة النبل ، واعتلى الجبل ومعه رماة النبل ، بينما اندفعت جند قريش ملتفة من خلف الذين شغلتهم أمور دنياهم من المسلمين ، فأعملوا فيهم سيوفهم ونبلهم ورماحهم ، واستطاع " وحشى " أن يقتل حمزة τ، وقتل معه أربعة وسبعون من المسلمين ، وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وسال دمه الشريف ، وأشاع المشركون أنه قتل .
ونادى منادى رسول الله : مذكرا بأمر الله وبوعده ، ومبينا أن رسول الله حى ، فارتعدت القلوب بالحب والفرحة واندفع من بقى من المسلمين بأرض المعركة يلتفون حول الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وقد هانت عليهم أرواحهم ، فجعلوا من أجسامهم درعا يدرءون به

الأذى عن الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وصعدوا جبل " أحد " ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحصنوا به ، وأنزل الله عليهم رحمته فأنامهم نوما عميقا أخذهم للحظات ، أفاقوا منها وقد اغتسلت أرواحهم مما أصابها من خوف وهلع ، ونشطت أبدانهم المكدودة ؛ بينما انشغل المشركون بالتمثيل بقتلى المسلمين ، فبقروا منهم البطون وفقئوا العيون ، وقطعوا الآذان والأنوف ، حتى وصل الحال بهند بنت عتبة أن بقرت بطن حمزة ، وأخرجت كبده وقضمت منه بأسنانها ، ولكن الله منعها عن بلعه وجعله نارا أحرقت شدقيها ، فبصقته !!..

ثم أتى أبو سفيان بفرسه الجبل ، ووقف حيث تحصن المسلمون ، ورفع بصره لأعلى وقد أخذه الكبر كل مأخذ ، لكنه لم يبصر شيئا فأرخى جفنيه مخذولا ، واطرق برأسه للحظات وقد أخذه الخوف من أن تكون لعنة محمد قد حلت به ، وسرعان ما أدرك شيطانه الخطر الذى حاق بصاحبه، فنفث فيه فنادى ، والكبر والكفر تفوح رائحتهما عفنة كريهة فى كلماته :

ـ أعل هبل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ قم يا عمر ، فأجبه .

فنهض عمر بن الخطاب ، وقال بصوت أوب معه الجبل ، قال :

ـ الله أعلى وأجل .

قال أبو سفيان :

ـ إنها قد أنعمت علينا ، فهذا يوم بيوم بدر ، إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال ، وحنظلة بحنظلة .

.. وأخذ أبو سفيان بن حرب يعدد قتلى بدر من المشركين ، وقتلى أحد من المسلمين ، ويقول فلان بفلان ، وفلان بفلان ...

فقال له عمر τ :

ـ إنه لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

قال أبو سفيان :

ـ إنكم تقولون ذلك ، لنا العزى ولا عزى لكم .

قال عمر τ :

ـ الله مولانا ولا مولى لكم .

قال أبو سفيان :

ـ قم إلى يا بن الخطاب ، أكلمك ، أنشدك بدينك : هل قتلنا محمدا ؟.

قال عمر τ :

ـ اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

قال أبو سفيان :

ـ أنت أصدق عندى من كل من قالوا .

.. ثم سكت قليلا وقال :

ـ ألا إن موعدكم بدر الصفراء ، فى العام القابل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر :

ـ قل له نعم .

فقال عمر τ :

ـ نعم هو بيننا وبينكم موعدا .

.. وقبل أن يستدير أبو سفيان بفرسه ، قال :

ـ إنكم واجدون فى قتلاكم مثلا ، إلا إن ذلك لم يكن عن رأيى ، وما رضيت به ، وما سخطت ، وما نهيت عنه ، وما أمرت .

.. وانصرف ، وانصرفت معه جند المشركين متوجهين إلى مكة ، حينئذ نزل المسلمون ، ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل أحد ، وأخذوا يتفقدون قتلاهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكف عن سؤال من حوله عن حمزة ، قائلا :

ـ ما فعل عمى ؟.

فلما وقف على جثمانه ، ورأى بطنه وقد بقرت ، وأنفه وأذنيه وقد قطعت ، قال :

ـ لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت أبدا موقفا أغيظ إلى من هذا ، ولولا أن تحزن نساؤنا ، ويكون سنة من بعدى ، لتركته حتى يحشر يوم القيامة من بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين من رجالهم .

وتألم من شهدوا الحبيب صلى الله عليه وسلم أشد الألم ، لحال الأسى والحزن التى كان عليها ،

وقالوا متوعدين :

ـ والله لئن أظفرنا الله بقريش يوما من الدهر ، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

.. وتنزل قول الحق بآيات من سورة النحل موقظا للنفوس الثكلى ، مؤصلا للعدل :

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ صلى الله عليه وسلم (١٢٦)

واستجاب نبى الله صلى الله عليه وسلم لأمر ربه ، وأعلن أنه قد عفا وصبر ، ونهى المسلمين عن التمثيل بالموتى ، ثم أمر بجمع القتلى ، وقال :

ـ لفوهم بدمائهم وجراحهم ، فليس أحد يجرح فى الله تعالى ، إلا جاء يوم القيامة جرحه لونه لون دم ، وريحه ريح مسك .

ولما عاد جيش المسلمين إلى المدينة ، كان كل ما يهم من بقى بها من المسلمين ، السؤال فى لهفة عن الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فلقد أبلغهم اليهود شامتين فرحين مهللين ، أن نبيهم قد قتلته قريش ، وحين اكتحلت عيونهم برؤيته ، توحدت مقالتهم بالصدق :

ـ أما وقد رأيناك سالما ، فلقد هانت كل مصيبة .

.. بينما انتهز اليهود والمنافقون ما حدث لمواصلة الشماتة ، فأظهروا العداوة والبغضاء ، وأخذوا يدعون الناس للانفضاض عن رسول الله قائلين :

ـ إن الأنبياء لا تصاب فى أبدانها ولا فى أصحابها ، وما محمد إلا طالب ملك ، ولو كان من قتل منكم بقوا مثلنا ما ماتوا ، وما قتلوا .

.. وسار عمر بن الخطاب τ بما سمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستأذنه فى قتل كل من يشيع هذا الحديث ، فقال له نبى الله صلى الله عليه وسلم فى ثقة :

ـ يا عمر ، إن الله مظهر دينه ، ومعز نبيه ، ولليهود ذمة وعهد ، فلا أقتلهم .

قال عمر :

ـ فما بال هؤلاء المنافقين ؟!!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أليسوا يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ؟.

قال عمر τ :

ـ بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك خوفا من السيف ، فقد بان لنا أمرهم وظهرت حقيقتهم عند هذه النكبة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ يا ابن الخطاب ، نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؛ وإن قريشا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن .

ـ ٣ ـ

جاوز اليهود حدود الوقيعة بين المسلمين والطعن فى دين الله ، إلى الرغبة فى إيقاع الأذى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمدوا إلى السحر حتى أعياهم السعى ، ولم يصيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذى ؛ فذهبوا إلى لبيد بن الأعصم ، وهو من أعلمهم بالسحر والسم ، وقالوا له :

ـ يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، ولقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا ، وأنت ترى أثره فينا ، وخلافه ديننا ، ومن قتل منا ومن أجلى ، ونحن نجعل لك جعلا على أن تسحره لنا سحرا يؤذيه ، ولك من أموالنا ما تشاء .

.. ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضا شديدا ، فما كان يدرى مما يشتكى ، وطال به المرض ، فتوجه إلى الرحمن الرحيم يسأله أن يكشف عنه الغمة ، فأتاه جبريل وميكائيل ، فجلس الأول عند رأسه ، وجلس الثانى عند رجله ، فقال ميكائيل :

ـ يا جبريل إن صاحبك شاك .

قال جبريل υ :

ـ أجل .

فقال ميكائيل υ :

ـ وما وجع الرجل ؟.

قال جبريل υ:

ـ مطبوب .

قال ميكائيل υ:

ـ فمن الذى طبه ؟.

قال جبريل υ :

ـ لبيد بن الأعصم اليهودى .

قال ميكائيل υ:

ـ فبماذا ؟.

قال جبريل υ :

ـ فى مشط ومشاقة وجف طلع نخلة ذكر .

قال ميكائيل υ :

ـ وأين هو ؟.

قال جبريل υ :

ـ فى بئر ذى أروان تحت صخرة فى الماء .

قال ميكائيل υ :

ـ فما دواء ذلك ؟.

قال جبريل υ :

ـ تنزح البئر ، ثم تقلب الصخرة فتؤخذ الكدية ، فيها إحدى عشرة عقدة فتحرق، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى .

وأرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم عليا وعمار، فاستخرجا الجف، فإذا فيها مشط رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وإذا وتر قوس معقود إحدى عشرة عقدة مغرزه بالإبر .

ونزل جبريل υ بسورة الفلق :
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ صلى الله عليه وسلم ١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ صلى الله عليه وسلم ٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ صلى الله عليه وسلم ٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ صلى الله عليه وسلم ٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ صلى الله عليه وسلم ٥)
.. ثم بسورة الناس ، ومجموع آيات السورتين ، إحدى عشرة آية :
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ صلى الله عليه وسلم ١) مَلِكِ النَّاسِ صلى الله عليه وسلم ٢) إِلَهِ النَّاسِ صلى الله عليه وسلم ٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ صلى الله عليه وسلم ٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ صلى الله عليه وسلم ٥) مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ صلى الله عليه وسلم ٦)
فكان إذا ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم آية منها انحلت عقدة ، وكلما نزع إبرة وجد لها ألما ، ثم وجد بعدها راحة .
.. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبئر فطمرت ، وتسابق فرسان المسلمين إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم يطلبون أن يأذن لهم بقتل لبيد بن الأعصم ، ولكنه رفض أن يقتل الساحر ، وقال مفوضا أمره إلى الله :
ـ ما وراءه من عذاب أشد .
.. وفى شهر ربيع الأول ، من ذات العام الثالث من الهجرة ، عمد يهود بنى النضير إلى محاولة قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذهب إليهم ليدفع دية قتيلين من قتلاهم ، قتلا خطأ ، وتظاهروا بالرضا والقبول بالدية ، بينما هم يمكرون مكرهم ؛ وجاءه الوحى فنبأه بأن اليهود قد اتفقوا على قتله ، وأن هناك يهوديا قد اعتلى الجدار الذى يستند إليه ، وقد تهيأ ليلقى عليه بحجر ليقتله ، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه فجأة ، وغادر ناديهم.
ولما رجع إلى المسجد ، بعث إليهم برسول يكشف نيتهم على الغدر ، ونقضهم العهد الذى عاهدوا عليه الله ورسوله ، ثم أمرهم بالجلاء عن المدينة خلال عشرة أيام ، ومعهم نساؤهم وأبناؤهم وأموالهم ، ومن رؤى منهم بعد ذلك الموعد ، ضرب عنقه .
وسب اليهود من أبلغهم الرسالة ، وسبوا المسلمين ، وطعنوا فى الدين ، مظهرين عداءهم ، وقالوا لن نخرج ، ونحن على حربكم قادرون ، وأغلقوا عليهم أبواب حصونهم ، وتجهزوا لحرب المسلمين .
وخرج المسلمون لقتال اليهود ، وأحاطوا بحصونهم ، ولكن اليهود لم يخرجوا من حصونهم لقتال المسلمين ، وكل ما فعلوه أن راحوا يسبونهم بأقذع الألفاظ من وراء الأسوار ، ويرمونهم بالحجارة وبالسهام ، وأثناء الأيام الستة الأولى من الحصار ، حرمت الخمر ، وتنزل قول الله تعالى من سورة المائدة :
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ صلى الله عليه وسلم ٩٠)
.. وبهذا حرمت الخمر علي المسلمين تحريما كاملا ، بعد أن كانت مباحة فى غير مواعيد الصلاة ، وهو ما كان يسبب الحزن لدى من حسن إيمانه ، فكان عمر بن الخطاب يدعو الله ليل نهار أن يحرمها على المسلمين ، كراهية لها ، لما كانت تحدثه من مهانة لمن يشربها .
.. مضت على الحصار عشرة أيام كاملة ، ثم بدأ المسلمون يدمرون أملاك اليهود ، حتى يقطعوا لديهم باب الأمل فى البقاء ، فشق ذلك على هود ، وبعث سيدهم حيى بن أخطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن بأنه يقبل الخروج هو ومن معه بسلاحهم وأموالهم ، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :
ـ لا أقبله اليوم ، ولكن اخرجوا منها ، ولكم دماؤكم ، وما حملت الإبل إلا السلاح .

.. وثار الخلاف بين اليهود ، فهم بين موافق ورافض ، وآثرت قلة ممن دخل الإيمان قلوبهم ، أن تنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلن إسلامها ، فأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأهليهم .

وبعد أيام أعلن اليهود قبولهم لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، والمسلمون يكملون تدمير ما يتبقى ، ثم حمل اليهود ذريتهم ونساءهم وأموالهم وكل ما استطاعوا حمله ، على ستمائة بعير ، وتحرك موكبهم والنساء يجهرن بالغناء ، ويضربن الدفوف ، معلنات فرحتهم بالرحيل ، وما كانت هذه هى حقيقة مشاعرهم ، فما فعلوا ما فعلوا إلا كراهية لشماتة المسلمين فيهم ، إذا ما هم أظهروا حزنهم الذى يعتمل فى أعماقهم !!.

ـ ٤ ـ

جاء عامر بن الأشهل من أهل نجد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليه رسول الله الإسلام ، لكنه لم يسلم ، وقال :

ـ يا محمد ، إنى أرى أمرك هذا حسنا شريفا، فلو أنك بعثت معى نفرا من أصحابك إلى قومى ، لرجوت أن يستجيبوا لك ويتبعوا دعوتك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ إنى أخاف عليهم أهل نجد .

قال عامر :

ـ لا تخف عليهم ، فأنا جار لهم .

.. وكان هناك من الأنصار سبعون رجلا ، دائبين على تدارس القرآن حتى تفقهوا فيه ، فبعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم مع عامر ، وأعطاهم كتابا إلى عامر بن طفيل يدعوه فيه إلى الإسلام ، فساروا معه حتى إذا وردوا بئرا لبنى سليم ، عسكروا حولها ، وجعلوا على ركائبهم اثنين منهم ، وبعثوا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع واحد منهم إلى ابن طفيل ، فلم يقرأ الكتاب ، بل وثب على الرسول فقتله ، ثم استصرخ قومه ليهبوا لقتال القراء ، ولكن قومه أبوا وقالوا له :

ـ لن نخذل عامر ونقاتل رجالا أعطاهم جواره .

فاتجه إلى قبائل بنى سليم يستعديهم ، فاستجابت له ، وحصروا القراء ، وأعملوا فيهم القتل ، حتى أفنوهم عن آخرهم ، فلما عاد حارسا الركائب ، وجدا أصحابهم قد قتلوا ، فقاتلا بنى سليم فى استماتة ، فقتل أحدهما ، وأسر الثانى ، فلما عرف بنو سليم أنه من قبيلة مضر التى بينهم وبينها عهد ، أطلقوا سراحه ، فعاد إلى المدينة ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حدث ، فحزن على القراء حزنا شديدا ، ودعا الله تعالى أن يجعل ثأرهم فيمن قتلهم .

.. ودارت الأيام دورتها .

وحل موعد بدر الصفراء، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد العدة للخروج، وبعثت قريش بمن دفعت إليه الأموال ، وأغدقت عليه الهدايا ، وأجذلت له العطاء ، ليتسلل إلى صفوف المسلمين ، فيفت فى عضدهم حتى لا يخرجوا ، بعد أن سمعوا بتجهزهم للخروج للقائهم ، وأرجف المنافقون فى المدينة ، حتى دب الوهن والنكوص فى نفوس المسلمين ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

ـ والذى نفسى بيده ، لأخرجن ، وإن لم يخرج معى أحد .

وما إن سمعت كلمات الحبيب صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، حتى دفع الله بالحمية فى نفوس المسلمين ، فتدافعوا خارجين للقاء المشركين ، حتى عسكروا ببدر ، وشعارهم أمام المرجفين بقوة قريش :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .
وتنزل قول رب العالمين بسورة آل عمران ، مبديا رضاه عليهم :
الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ صلى الله عليه وسلم ١٧٤)
.. وشملتهم نعم الوكيل ، فلم يلاقوا عدوا ، ولا خاضوا حربا ، فلقد سار أبو سفيان بن حرب بألفين من قريش ، وهو يشعر بتخاذل شديد ، وعدم رغبة فى قتال المسلمين ، فلقد جاء عامهم هذا عام جدب وقفر ، فالمراعى لا كلأ فيها ، والعير مرهقة ، والناس يشعرون بالهزيمة ، قبل أن يلاقوا عدوا أو يخوضون حربا ، وهو يظن نجاح رسله فى إثناء المسلمين عن الخروج للحرب ، وبهذا يكون قد حفظ ماء وجهه أمام العرب ، وأوفى بما عاهد عليه ، فلما عسكر الحند فى يومهم الأول ، جمع أصحابه ، وقال لهم :
ـ يا معشر قريش ، إن عامكم هذا عام جدب ، ولا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون اللبن ، وإنى راجع ، فارجعوا .
ووافقوه جميعا فيما قال ، وعاد بجيشه بعد يومين من خروجه ، فسخر منه من بقوا بمكة ، وقالوا عن جيشهم :
ـ إنه جيش السويق ، فلقد خرج أبو سفيان وجنوده ليشربوا السويق فى الجبل ، ثم عادوا !!.
وقال صفوان بن أمية لأبى سفيان :
ـ قد والله نهيتك يوم " أحد " ، أن تعد القوم ، وقد ارتقوا علينا الآن ، ورأونا قد خلفناهم ، وتسامع العرب فى كل مكان ، بأن قريشا قد أخلفت موعدها مع المسلمين ، وأن المسلمين قد وفوا وخرجوا لهم ، فازدادت بهذا هيبة الإسلام فى النفوس ، بالقدر الذى ضعفت به الثقة بقريش .
.. وأثارت كلمات صفوان الحمية فى القرشيين ، وجعلتهم يتعاهدون على خوض حرب جديدة ضد محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ، مهما بذلوا من أجلها ، فجمعوا من بينهم المال لإعداد الجيش .
.. بينما مكث جيش المسلمين فى بدر ثمانية أيام، وكانت سوق بدر قائمة، فباعوا ما كان معهم من تمر ودقيق ، وربحوا فى تجارتهم ربحا عظيما، عوضهم به الله عما كانوا سيغنمونه من قريش.

ـ ٥ ـ

تفرق يهود بنى النضير بين الشام وخيبر ، وظل الحقد يأكل صدورهم ، والشيطان ينفث فى نفوسهم ، ويزين لهم قتال محمد صلى الله عليه وسلم ، واجتمع رأيهم على أن ينفثوا عما فى صدورهم ، ووجههم شيطانهم إلى قريش يستنفرونها ، ويحرضونها ، واتجه وفد منهم بزعامة سيدهم سلام بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، وانضم إليهم رأس النفاق والكفر أبو عامر الراهب ، وذهبوا إلى دار الندوة قائلين :
ـ يا سادة قريش لقد جئنا نحالفكم على عداوة محمد ، وسنكون معكم عليه حتى نستأصله .
فنهض أبو سفيان بن حرب كالشيطان مهللا ، يقول :
ـ أهلا بكم ومرحبا ، فأحب الناس إلينا من أعاننا على قتال محمد ومعاداته .
.. ثم أراد أن يتأكد من صدق يهود، فالعرب أعلم الناس بخداعهم ومكرهم، فقال:
ـ يا معشر اليهود ، أنتم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما نختلف فيه مع محمد ، فأخبرونا : أديننا خير ، أم دين محمد ؟.
فقام الفاسق يجأر بصوت الشيطان ، قائلا :

ـ اللهم أنتم أولى بالحق منه ، إنكم لتعظمون هذا البيت ، وتقومون على سقاية الحجيج ، وتنحرون البدن لله ، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم ، ولم تأتوا ببدع جديدة، فدينكم خير من دينه !!.

ولمزيد من التأكد من صدقهم ، قال أبو سفيان :

ـ أفلا نخرج إلى ألهتنا فتتقربون إليها وتنحرون .

وصرخ الشيطان فى وفد اليهود ، محرضا وناصحا ، فقال :

ـ لا تنكصوا اليوم ، مالئوهم تظاهرا ونفاقا .

وذهبت هود إلى : آساف ونائلة ، وود وياغوث ونسرا ، ومناة .. تتظاهر ، فتنحنى ، وتسجد ، وتنحر ، وتتقرب زلفى ، وهم كارهون ، ولأن نفاقهم وكذبهم كان عظيما ، قال فيهم رب العالمين فى سورة النساء ، فاضحا مكرهم :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا صلى الله عليه وسلم (٥١)

وتحت أستار الكعبة ، تعاقدت اليهود مع قريش على ألا يختلفا ، وأن تتوحد كلمتهم ولا يكون لهم هدف أو سعى ، إلا أن يستأصل محمد وصحبه !!.

.. واستمرت اليهود فى تحريضها لقبائل العرب ، إما بإغرائهم بالمال والسلاح ، أو بترهيبهم من زوال نفوذهم وضياع شأنهم ، إن قويت شوكة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى اجتمعت كلمتهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

.. وبلغ نبى الله صلى الله عليه وسلم بما تعاهدت عليه قبائل العرب ، فجمع إليه أصحابه يستشيرهم ويستمع إلى ما يفتح الله به عليهم ، وانسحب سلمان الفارسى من بينهم ، واتجه إلى الخلاء ، وجلس فوق أحد التلال المحيطة بالمدينة ، يتأمل ويتدبر فى كيفية مواجهة هذا الموقف العصيب ، الذى وضعت فيه هود مدينة الإسلام ، فرأى عظيم صنع الله تعالى ، فالمدينة قد تسورت بالجبال من كل جانب ، بينما لم يترك للمرور إليها غير جزء بسيط منبسط ، وتهلل وجه سليمان فرحا بما أراه الله ، وبصره به ، ونزل مسرعا إلى المسجد ، حيث انعقد مجلس المشورة ، وقال :

ـ يا رسول الله ، نحفر خندقا فى الجزء المنبسط من مداخل المدينة ، كذاك الذى كان أهل فارس يتحصنون خلفه إذا ما وفد عليهم مغير .

.. ولم يقل سلمان :

ـ نحفر خندقا مثلما كان يفعل أهلى بفارس .

لأنه كان يعتز دائما بما هداه الله تعالى إليه ، ويقول :

ـ إنما سلمان ابن الإسلام .

.. وسلمان هو النموذج المثالى للإنسان حينما تدركه نعمة الإسلام ، فلقد كان ابنا وحيدا لأب ثرى ، من رجال الدين ببلاد فارس ، ولأن عقيدة أهله عبدة النار لم تتفق وفطرته ، ترك الثراء والنعيم ، وخرج يسعى مهاجرا فى سبيل الله ، يبحث حتى وجد قبولا لدى المخلصين من أهل المسيحية ، وحين قرأ عليه آخر القساوسة الذين عاشرهم ما جاء على لسان المسيح من بشارة بأحمد ، وقال له القسيس معقبا أنه قد قرب موعد ظهور النبى الخاتم ، وأنه سيظهر بطيبة ، ولم ينتظر سلمان ، وشق طريقه إلى حيث الملتقى ، ورضى أن يكون عبدا عند يهودى متغطرس بطيبة ، انتظارا لقدوم البشير ، وحين سمع بنزوله بقباء ، لم يستطع صبرا ، وأسرع خارجا من طيبة ليلقاه هناك ، ولما تكشفت له علامات النبوة التى دله عليها القسيس ، أعلن أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلامه ، وقص على الحبيب قصته ، وسارع اخوة الإسلام يعينونه ، ويجمعون له المال ، ويساعدونه فى العمل ، حتى تحرر من رقه .

.. وحين سمع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، ما أشـار بـه سـلمان ، دعـا لـه بـالخير ، وسـارع المـسلمون يحفـرون خنـدقا عميقـا بطـول الجانـب المكـشوف مـن المدينـة ، كـان الكـل يعملون فى إخلاص ، فمنذ إشراقة النهار ، وحتى مغرب الـشمس ، وهـم يحفـرون ، ويرفعـون التراب ليجعلوا منه سـاترا وعائقـا للعدو ، ورسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم مثلـه مـثلهم ، يعمل ما يعملون ، ويربط حجرا على بطنه إذا ما اشتد عليـه التعـب والجـوع ؛ ولـم ينقطـع عـن العمل قادر، ولم يتخلف عنه فرد من أهل المدينة، إلا المنافقون واليهـود .

ولما انتهوا من حفر الخندق ، وصـل إبلـيس يتبختـر فـى عنجهيـة وخـيلاء ، فيمـا يزيـد علـى العشرة آلاف مشرك وكافر من أنصاره ، ترج حـركتهم الأرض رجـا ، وتثيـر عيـرهم وخـيلهم سحبا من الغبار تغطى عين الشمس ؛ لكنه هلع واستشاط غـضبا ، حـين رأى الـساتر الترابـى ومن أسفل منه الخندق عميقا ، يضرب فى باطن
الأرض ، ليكون سدا بين جنوده ، وجند الله ، وصاح أبو سفيان فى حنق :

ـ والله ما هذا من صنع العرب ، وإنها لمكيدة .

وكتب أبو سفيان إلى رسول اللهصلى الله عليه وسلم ..

: "باسمك اللهم فإنى أحلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك فـى جمـع ، وأنـا أريـد ألا أعـود إليك أبدا حتى أستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، واعتصمت بالخندق ، ولك منـى يـوم كيـوم أحد تبقر فيه النساء ."

وبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرد يقول ..

: " أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، وقديما غرك بـالله تعـالى الغـرور ، وأمـا مـا ذكـرت مـن أنـك سرت إلينا ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فـذلك أمـر يحـول الله تعـالى بينـك وبينـه ، ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر فيـه الـلات والعـزى وإسـاف ونائلـة وهبـل ، حتـى أذكرك ذلك ."

.. وأراد خالد بن الوليد أن يكـرر فعلته ، ويلتف فيجتاز الخنـدق ، مـن جانبـه الـضيق ، لعـل المسلمين يكونون عنه غفلا ، فيأخذهم من خلفهم على حين غرة ، ويعجل بإنهاء الحرب ، كمـا فعل يوم " أحد " ؛ فصحب معه مجموعة من الفرسان ، واندفعوا محاولين اجتيازه ، ولكن ليس ما يدرك مـرة يتكرر فى كل مرة ، فلقـد رماهم المـدافعون عـن المدينـة بالـسهام والحجـارة مـن مرتقاهم بالجبال، وجعلوهم يؤثرون النكوص على أعقابهم فاشلين!.

.. وأعمل إبليس فكره ، فوجد أنه لكى يتحقق له النصر فى أسرع وقت ، لابد من إيجاد حليف داخل المدينة ، يطعن المسلمين مـن خلافهـم ، فيـشغلهم عـن الخنـدق ، بمـا يتـيح لـه ولأنـصاره العبور ، ولم يكن هناك غير يهود بنى قريظة ، وأعلن حيى بن أخطب أنه كفيـل بهـذه المهمـة ، وتسلل فى ظلام الليل إلـى حـصن كعـب بـن أسـد القرظـى ، وحـين رآه كعـب ، أوصـد أبـواب الحصن فى وجهه ، فراح حيي يتوسل إليه ليفتح ، وكعب يرفض ، فأخذ حيى ينـاوره ويحـاوره ، حتى فتح له وأدخله ، فقال له حيى معاتبا :

ـ ويحك يا كعب ، تقفل بابك فى وجهى ، وقد جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش والعرب علـى قادتها وسادتها ، وعاهدونى على ألا يبرحوا ، حتى نستأصل محمدا ومن معه .

قال كعب :

ـ ويحك يا حيى ، إنك امرؤ مشئوم ، وقد جئتنى والله بذل الدهر ، وإنى قد عاهدت محمـدا ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، فلم أر منه إلا صدقا ووفاء .

.. وأخذ حيـى يـزين الكلمـات ، ويمنـى بـالعزة والنـصر ، حتـى لان كعـب ، ووافـق علـى أن ينقض عهده ، وأعلن أنه برئ مما بينه وبين رسول الله ، ولكنه اشترط أن يأخـذ خمسين رهينة

من سادات قريش ، حتى لا تتركه قريش فريسة للمسلمين وترحل إلى ديارها ، إذا ما تراءى لها أن تنكص عن حربها محمدا .
وسمع عمر بن الخطاب بما حدث ، فتكلم به عند رسول اللهτ ، فبعث بمن يستوثق مما يشاع ، فعاد الرسل يؤكدون أن يهود بنى قريظة قد أعلنوهم بنقض عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبشر نبى الله المسلمين ، قائلا :
ـ أبشروا يا معشر المؤمنين بنصر الله تعالى وعونه ، إنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وآخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر ، ولتنفقن أموالهم فى سبيل الله .
.. ورغم بشارة البشير صلى الله عليه وسلم ، توجس المسلمون من هذا البلاء ، الذى زاد موقفهم سوءا ، واشتد بهم الكرب وزلزلوا زلزالا ، وأرجف المنافقون قائلين :
ـ أيبشرنا محمد بملك كسرى وقيصر ، وبيوتنا أصبحت عورة ، وبات الواحد منا لا يأمن على نفسه إذا ما طلب الخلاء .
ثم أخذ المنافقون يوسوسون بين الناس أن عودوا إلى دياركم وانكصوا عهدكم مع محمد ، ولما امتنع المؤمنون عليهم ، بدءوا يفتعلون الحجج ، يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العودة إلى دورهم لأنها عورة ، ونبى الله صلى الله عليه وسلم يأذن لهم ، ولا يمنعهم من ترك موقع القتال ، فلقد كان يعرف أنه لا خير فيهم ، ووصل عددهم إلى ثلاثمائة ، وقد نزل فيهم قول الله تعالى ، من سورة الأحزاب :
وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا صلى الله عليه وسلم ١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا صلى الله عليه وسلم ١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا صلى الله عليه وسلم ١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولا صلى الله عليه وسلم ١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلا صلى الله عليه وسلم ١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا صلى الله عليه وسلم ١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلا صلى الله عليه وسلم ١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا صلى الله عليه وسلم ١٩)
.. أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحصار بنى قريظة ، وسير إليهم من المسلمين ما يزيد على مائتى رجل ، وحين هموا بالغدر ، وتجهزوا بالسلاح للإغارة على المدينة ليلا، فوجئوا بقوات الحصار تحيط بهم ، فزلزلهم الله زلزلة أوقعت الرعب فى قلوبهم ، فنكصوا عائدين يرعدون إلى حصونهم ، وهم يلعنون حيي لأنه هو الذى اشار عليهم بنقض عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة وقد رفض القرشيون مطلبهم بتسليم الرهائن ، بعدما سمعوا أن اليهود سيسلمون رهائنهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم إذا ما هزموا ، وقابلوا عرضهم بعرض مماثل ، وطلبوا خمسين رهينة من سادة اليهود ، وبدت أنياب الغدر ظاهرة بين طرفى التعاهد ، فانفض العقد قبل أن يبرم ، وباءت اليهود بالعار والحصار .
وتمر الأيام تلو الأيام ، وجنود المشركين لا ينفكون عن مناوشة المسلمين ، ولما لم يجدوا لسعيهم نتيجة ، ولما ضاقت بهم السبل ، وطال بهم البقاء فى الخلاء ، خرج سادتهم فاقتحموا بخيلهم جزءا ضيقا من الخندق ، ولكن المسلمين ردوهم بعنف ، فوقف عمرو بن عبد ود العامرى ، يجأر طالبا النزال ، وكان عظيم الجسم شرسا فى قتاله ، ما نازل أحدا إلا صرعه ، وقد صحب معه " الزبير بن عبد الله " و" هبيرة بن أبى وهب " جناحين ، فطلب على بن أبى

طالب τ أن يأذن له رسول اللهصلى الله عليه وسلم بقتاله ، فعممه وأعطاه سيفه ، ودعا له قائلا :
ـ اللهم أعنه عليه .
وخرج " على بن أبى طالب " τ ومن حوله جناحاه : " الزبير بن العوام " ، و" عمر بن الخطاب " وتبارز الخصمان ، ونصر الله عليا ، وقتل المتعاظم بعد أن استتابه فلم يتب ، وهجم عمر والزبير على جناحيه فأصاباهما ، فتراجعا منهزمين ، مخلفين وراءهما جثة عمرو ، وارتفع صوت المسلمين من فوق ذرى الجبال بالتكبير :
ـ الله أكبر .. الله أكبر ..
فأوبت معه السماوات والأرض والطير :
ـ الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ..
وازداد شؤم المشركين ، وأرسلوا يفتدون جثة عمرو بعشرة آلاف درهم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردها إليهم ، ورفض الدية ، قائلا :
ـ لسنا نمنعكم أن تدفنوه ، ولا نأكل ثمن الموتى .
.. ويزداد مر الأيام كآبة على المشركين ، وهم قعود فى صحراء جرداء ، منذ ما يقرب من الشهر ، لا يستطيعون تقدما ولا حربا ، ويتناقص طعامهم ويشح ، فلم يخطر لهم وهم فى كل ذاك الجمع ، وكل تلك القوة والمنعة ، أنهم سيقيمون أكثر من ليلة أو ليلتين بالعراء قبل أن يكونوا فى بيوت المدينة يستدفئون ، ويستحلون حرماتها ، ويسبون نساءها ، وينتهبون أموال المسلمين فيها ؛ ولهذا لم يحملوا معهم من الطعام إلا ما يكفى رحلة المسير من مكة إلى المدينة ، ولقد أمسى حال دوابهم أسوأ من حال رجالهم ، فلقد حصد المسلمون زرعهم قبل أن يصلوا إلى مشارف الديار ، فجاءوا الأرض وهى جدباء ، بلا زرع ولا ماء ، وحين أراد " حيى بن أخطب " أن يسرب إليهم قافلة من عشرة جمال ، محملة بالشعير من بيوت يهود بنى قريظة ، أوقفها الله ومنعها عنهم ، بأن أعثر بها جماعة من المسلمين ، خرجت تشيع جنازة مسلم مات ، فأخذت العير بما حملت ، بينما فر حيى يجر أذيال الخيبة ، ويلعنه المسلمون والكافرون ، وتبدل حال المسلمين ، فطعموا ، وحمدوا الله كثيرا على ما رزقهم .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايكف عن الدعاء والتوسل إلى الله تعالى ، قائلا :
ـ اللهم فادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم ، واغلبهم ، فلا يغلبهم أحد غيرك . اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم .
ولما سأله الناس قائلين :
ـ يا رسول الله ، هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟.
قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم ، قولوا : اللهم أستر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .
.. وحين أظلمت السماء ، قام فى المسلمين فقال ، ووجهه مشرق بالبشر :
ـ يا أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإن لقيتم العدو فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .
.. واشتد الظلام ، حتى كان الرجل لا يكاد يرى بنانه ، ثم أرسل الله بالريح ، فكانت على المشركين ريحا صرصرا عاتية ، تتفجر من خلالها الصواعق والبرد ، فاقتلعت خيامهم ، وأرعبت قلوب رجالهم ، وجعلت كل أمانيهم أن يعودوا من حيث جاءوا !!.
وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حوله قائلا :
ـ أما رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة ؟.

وكان حوله من المسلمين ثلاثمائة رجل ، فلم يجبه أحد ، خوفا من ذاك الهول الذى أنزله الله على الجانب المقابل من الخندق ، فتخير صلى الله عليه وسلم ، حذيفة τ وكان قد جلس يقرقر من شدة البرد ، وقال له :

ـ يا حذيفة ، قم أنت .

قال حذيفة τ وأسنانه تصطك :

ـ يا رسول الله ، ما منعنى أن أقوم إلا شدة البرد ، مرنى بما شئت .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ما بك بإذن الله من برد ولا حر ، اذهب حتى تدخل بين ظهر القوم ، فأت قريشا فقل: يا معشر قريش ، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا : أين قريش ، أين قادة الناس أين رؤوس الناس ؟!.. فيقدموكم ، فتصلوا القتال ، فيكون القتل فيكم ؛ ثم ائت بنى كنانة ، فقل : يا معشر بنى كنانة ، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا : أين بنى كنانة ، أين رماة الخندق ، فيقدموكم ، فتصيبوا القتال ، فيكون القتل فيكم ؛ ثم ائت قيسا فقل : يا معشر قيس ، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا : أين قيس ، أين أحلاس الخيل ، أين الفرسان ، فيقدموكم ، فتصلوا القتال ، فيكون فيكم القتل ؟..

.. وذهب حذيفة فوجد القوم فى شر حال ، والريح تحمل عليهم الحجارة وترميهم بها ، فقال ما قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنادوا بالرحيل ، حتى ان أبا سفيان ركب جمله متعجلا وهو فى عقاله ، فما استطاع النهوض إلا بعد أن فكوا عقاله .

يقول حذيفة τ :

ـ عدت إلى قومى ، وقد رجعت أقرقر من البرد ، فإذا بفارسين ملثمين ، يعترضان طريقى ويقولان لى :

ـ أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم بالجنود والريح .

فلما وصلت مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدته يصلى ، فلما انتهى اقتربت منه فغطانى بفضل بردته ، فأخبرته بما رأيت وأخبرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم ، لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شئ بعده .

وسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لله شكرا على نصره للمؤمنين ، وسجدت خلفه ، ثم اعتدل فحمد الله كثيرا ، ونزل قول رب العالمين ، من سورة الأحزاب :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا صلى الله عليه وسلم ٩)

.. وصرف الله الأحزاب عن المدينة وهم فى شر حال، وأذرى منظر، وانصرف جند الله إلى بيوتهم مهللين مكبرين .

ـ ٦ ـ

كان الوقت قبل الآذان لصلاة العصر بقليل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ، لم ينته بعد من الاغتسال من تراب الطريق ، حين جاءه جبريل بأمر ربه :

ـ لا تنزع عنك لباس الحرب ، وانهض وسر بجندك إلى يهود بنى قريظة الذين خانوا عهد الله ورسوله .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى فى الناس ، قائلا :

ـ يا خيل الله اركبى .

.. وأمر بلال فنادى :

ـ من كان سامعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة .

.. وأسرع النـاس فمن كـان مـنهم قد دخـل داره خـرج ، ومـنهم مـن كـان بـالطريق فتحـول ، واجتمعوا محاصرين لقلاع اليهود ، فاستقبلوهم مـن فـوق أسـوار حـصونهم يـسبونهم ويـسبون رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم بأقـذع الألفـاظ ، وراحـوا يرمـونهم بالنبـل والحجـارة ، والمسلمون يردون عليهم الرمى بمثله ، فلما وصل رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ، حـاول على أن ينزل رسول الله منزلا يبعد عن ديـارهم ، حتـى لا يـسمع شـتمهم ، ووسـخ كلامهـم ، ولكن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال له :

ـ يا على ، أظنك سمعت منهم لى أذى ؟.

قال على :

ـ نعم يا رسول الله .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

.. وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وتقدم أسيد بن حضير τ يسبقه ، جاعلا من جسده درعا يدرأ عن الحبيب أى أذى قد يريده به اليهود ، ولما اقتـرب مـن مـدى يـسمعون فيـه صوته ، رفع أسيد صوته قائلا :

ـ يا أعداء الله ، لا نبرح عن حصنكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر .

فقال اليهود :

ـ يا بن الحضير ، نحن مواليك دون الخزرج .

قال أسيد τ :

ـ لا عهد بينى وبينكم ، ولا إلا ، ولا ذمة .

وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى كبارهم ، ثم قال :

ـ هل أخزاكم الله ، أتشتموننى ؟.

فجعلوا يحلفون قائلين :

ـ ما فعلنا .

.. ثم قالوا متوددين :

ـ يا أبا القاسم ، ما كنت فاحشا .

وعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأحاط الحصن بالرماة ، ثم تعاقب الرمـاة ، فوج من بعد فوج ، يرمون اليهود بالنبل ، وشل الخوف أيدى من خانوا الله ، وتنزل بهم الرعب فلم يعودوا يدرون ماذا هم فاعلون ، وتوقفوا عن رمى المسلمين ، ونادوا قائلين :

ـ دعونا نكلمكم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ نعم .

فبعثوا رسولا منهم ، فتحدث إلى رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم فـى أن ينزلـوا علـى مـا نزل عليه يهود بنى النضير ، فرفض رسول الله .

فقال رسول اليهود :

ـ تحقن دماءنا ، وتسلم لنا النساء والذرية ، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل .

.. فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن ينزلوا على حكمه .

.. ولما عاد رسولهم إلى الحصن ، وقف فيهم كبيرهم سعد بن أسد فقال :

ـ يا معشر بنى قريظة ، والله قد نزل بكم من الأمر ما تـرون ، وإنـى عـارض علـيكم أمـورا ثلاثا ، فخذوا منها ما شئتم .

قالوا :

ـ ما هى ؟.

قال سعد :
ـ نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فو الله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم ، والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبى ، وما منعنا من الدخول فى دينه إلا الحسد للعرب ، وأنه لم يكن من بنى إسرائيل ؛ ولقد كنت كارها لنقض العهد والعقد ..
.. وتوقف عن الكلام ، وأشار حيث جلس حيى بن أخطب ، ثم قال :
ـ ولكن البلاء والشؤم من هذا الجالس ، حين قدم عليكم ؛ أتذكرون قول حبرنا أبى جواس حين قدم علينا يقول : لقد تركت الخمر والخمير والتمير ، ولجأت إلى السقاء والتمر والشعير ، وسألتموه : وما ذاك ، فقال لكم : إنه يخرج بهذه القرية نبى ، فإن يخرج وأنا حى أتبعه وأنصره ، وإن خرج بعدى ، فإياكم أن تخدعوا عنه ، واتبعوه ، فكونوا أنصاره وأولياءه ، وقد آمنتم بالكتابين ، كليهما : الأول والآخر ؛ وأقرئوه منى السلام ، وأخبروه أنى مصدق به .
.. وتوقف كعب قليلا عن الكلام ، ثم قال :
ـ فتعالوا نحكم العقل ، ونتبع وصية حبرنا ، فنتابعه ونصدقه .
.. وهاجت اليهود ، وتصايحوا :
ـ لا نفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره .
قال كعب :
ـ فإذا أبيتم هذا ، فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا نخاف عليه ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء .
.. وتصايح الحاضرون مستنكرين مقولته ، قائلين :
ـ أنقتل هؤلاء المساكين ؟!.. فما خير فى العيش من بعدهم .
قال كعب :
ـ فإن أبيتم هذا ، فإن الليلة ليلة سبت ، وأنه عسى وأن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .
قالوا مستنكرين :
ـ أنفسد سبتنا ، ونحدث فيه ؟!.. ولم يحدث من قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما أصابه من المسخ .
قال كعب فى غضب :
ـ ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ، ليلة واحدة من الدهر حازما .
.. وقال نفر منهم :
ـ يا معشر بنى قريظة ، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأن صفته عندنا ، وحدثنا بها علماؤنا ، وهذا حيى بن أخطب أولهم .
قالوا :
ـ لا نفارق التوراة .
.. ولما رأى هؤلاء النفر ممن شرح الله صدورهم للإسلام ، تسللوا ليلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنوا إسلامهم ، فأمنوا على دمائهم وأموالهم وأهليهم .
وتمر بهم الليالى والأيام ، ولا يقر لهم قرار ، فهم فى شقاق دائم ، فلا هم يريدون القتال ، كما وأنهم لا يريدون دفع الجزية ، لأنهم فيما يرون أنفسهم ، أعظم شأنا من العرب ، وبعد خمسة عشر يوما تنادوا فيما بينهم أن يخرجوا إلى المسلمين بعد أن كادت الذرية تهلك من قلة الطعام والماء ، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم فيهم سعد ابن معاذ ، وقال سعد τ :
ـ يقتل مقاتلوهم ، وتسبى نساؤهم وذريتهم ، وتقسم أموالهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد :
ـ لقد حكمت فيهم بحكم الله .
وأنزل الله تعالى ، قوله بسورة الأحزاب :
وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا صلى الله عليه وسلم ٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا صلى الله عليه وسلم ٢٧)

ـ ٧ ـ

.. أصاب انتصار المسلمين على الأحزاب العرب بالتوتر ، فلما كان ما أنزل بيهود بنى قريظة ، اشتد الخوف والغضب بمن يحيطون بالمدينة من أقوام ، ومنهم الحارث بن ضرار ، سيد بنى المصطلق ، الذى عزم على حرب المسلمين ، ودعا قومه والقبائل من حوله للتجمع للحرب ، ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عزم عليه ، بعث بمن تحرى الحقيقة ، ثم جلس إلى أصحابه وأبلغهم بما عرف ، فأجمعوا على الخروج إلى ديار بنى المصطلق .
وزحف من المدينة جيش كبير انضم إليه جمع من المنافقين بقيادة زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول ، طامعين فى مشاركة المسلمين فيما سيغنمون ، وحين رأت القبائل التى استنفرها الحارث بن ضرار ضخامة جيش المسلمين تفرقوا من حوله ، وتركوه وقومه ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإسلام بدلا من الحرب فأبوا ، ودار القتال، وانتصر جند الله نصرا عظيما ، وغنموا أموال بنى المصطلق ودوابهم ، وأسروا رجالهم، وسبوا نساءهم .
وتزوج نبى الله صلى الله عليه وسلم من ابنة سيد بنى المصطلق ، لعل الله جاعل فى مصاهرتهم خيرا ، ولما سمع المسلمون بذلك أطلقوا أسراهم وقالوا :
ـ أصهار رسول صلى الله عليه وسلم .
وتسابق من أطلقوا من الأسر ، إلى الدخول فى سماحة الإسلام ، واهتاج إبليس ، واشتد غضبه مما يرى من أنصاره القدامى ، فأثار الفتنة بين شابين أحدهم من موالى المهاجرين ، والثانى من موالى الأنصار فاختصما ، فنادى من هو من
الأنصار قائلا :
ـ يا للأنصار .
ونادى من هو من المهاجرين :
ـ يا للمهاجرين .
وتسابق كل فريق يلبى الدعوة ، وكاد الشيطان أن يصيب المسلمين بالفتنة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم بكلمات أماتت نفث الشيطان ، قال صلى الله عليه وسلم :
ـ ما بال دعوى الجاهلية ، من دعا بدعوى الجاهلية كان محشى جهنم .
قال من تابوا وثابوا إلى الله :
ـ يا رسول الله ، وإن صام ، وإن صلى ، وإن زعم أنه مسلم ؟!.
قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ وإن صام ، وإن صلى ، وإن زعم أنه مسلم .
وانصرف المتخاصمون بعد أن تصالحوا ، وكل منهم يشعر بضآلة شأنه ، وأسفه على نفسه لقلة إيمانه ، ولاستجابته لنزغ الشيطان ، وكل منهم يقول :
ـ ليتنى استعذت بالله العلى القدير من الشيطان الرجيم .
.. ولكن هل يكف الشيطان يده ولسانه ، عن بث السم فى النفوس ؟

لقد تلبس نصيره عبد الله بن سلول ، فاجتمع إلى بعض من قومه ، وجيش المسلمين قد عسكر للراحة ، وهو فى طريق عودته إلى المدينة ، وقال لهم :
ـ والله ما رأيت كاليوم مذلة ، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، وأنكروا ملتنا ، والله ما حالنا معشر الأنصار مع جلابيب قريش ، إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .
وكان بين من تكلم إليهم زيد بن أرقم ، فحمل ما سمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بما قال ، فأنكر أن يقول ما قال ، وهو قد قال !!.
.. ثم أذن المؤذن فى الناس ليسيروا ، وقد اشتد الحر ، وعجب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلموا أنه لا يكون إلا لحكمة أرادها نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه من الأنصار أسيد بن حضير ، متسائلا ، قال :
ـ يا رسول الله ، لقد رحلت فى ساعة ما كنت ترحل فى مثلها ؟!!.
فأخبره الحبيب بما قال صاحبهم ، فقال أسيد :
ـ فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الأذل ، وأنت الأعز .
وسمع عبد الله بن عبد الله بن سلول ، بأن هناك من المسلمين من أحل دم أبيه ، بعد أن نزل فيه قرآن يؤكد ما نقل عنه من قول الكفر ، فقال الله تعالى :
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ صلى الله عليه وسلم ٧٤) سورة التوبة
فذهب عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلس بين يديه ، وقال :
ـ يا رسول الله ، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن سلول ، لما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا ، فامرنى أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى إن غيرى يقتله ، فانظر إلى قاتله يمشى فى الناس فأقتله ، فأكون قتلت مسلما بمنافق فأدخل النار .
قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :
ـ لا نقتله ، بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا ..
.. وإن سكنت نار الفتنة ، فإن الشيطان متربص ينفخ فى جذوتها لتشتعل من جديد .

ـ ٨ ـ

عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنها قالت :
ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين زوجاته ، فأيهما خرج سهمها ، خرج بها رسول اللهصلى الله عليه وسلم ، فأقرع بيننا ، فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول اللهصلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل فى هودجى ، وأنزل فيه، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته لبنى المصطلق ، آذنوا بالرحيل .
وذات ليلة مشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى ، أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى ، فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى ، فاحتملوا هودجى فحملوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنى فيه ـ وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يغشهن اللحم ـ فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ورفعوه ، فبعثوا الجمل فساروا ؛ ووجدت عقدى بعدما سار الجيش ،

فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت به ، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى ، فبينا أنا جالسة فى مكانى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش ، يجمع ما نسيه الناس عند رحيلهم ، فرأى سواد إنسان نائم ، فرفع صوته ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ فاستيقظت على استرجاعه ، فخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها ، فقمت فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول ، فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريبنى أننى لا أجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول :

ـ كيف تيكم ؟.

.. ثم ينصرف ، فذلك كان يريبنى ولا أشعر بالشر حتى نقهت ، فخرجت مع أم مسطح وأمها خالة أبى ، فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى ، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ، ثم قال :

ـ كيف تبكم ؟.

فقلت له :

ـ هل تأذن لى أن آتى أبوى ؟.

فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمى :

ـ يا أماه ، ماذا يتحدث الناس ؟!.

قالت :

ـ يا بنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

فقلت :

ـ سبحان الله ، أوقد تحدث الناس بذلك ؟.

فبكيت تلك الليلة حتى أصبح لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم : على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، يسألهما ، ويستشيرهما فى فراق أهله ، أما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يعلمه من براءة أهله، وأما على فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بربرة وقال :

ـ أى بربرة ، هل رأيت شيئا يريبك ؟.

ـ قالت له بربرة :

ـ والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط يسوء ، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبى سلول ، وهو على المنبر ، فقال : " يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى ، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه خيرا ، ولا يدخل على أهلى إلا معى ."

فقام سعد بن معاذ ، فقال :

ـ أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأوس ضـربت عنقه ، وإن كـان مـن إخواننـا مـن الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .
فقام سعد بن عبادة ، فقال له :
ـ كذبت ، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل .
وثار الحيان مـن الأوس والخـزرج حتـى همـوا أن يقتتلـوا ، ورسـول الله صـلى الله عليـه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت ؛ فبكيت يـومى ذلـك كلـه لا يرقـأ لى دمع ، ولا أكتحـل بنوم ، وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوما ، حتى لأظن أن البكاء فالق كبدى .
فبينما أبواى جالسان عنـدى وأنـا أبكـى ، فاسـتأذنت علـى امـرأة مـن الأنـصار فاذنـت لهـا ، فجلست تبكى معى ، فبينا نحن على ذلك ، دخل رسول الله صلى الله عليه وسـلم علينـا فـسلم ثم جلس ، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرا لا يـوحى إليـه فـى شـأنى بـشىء ، فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : " يا عائشة ، إنه بلغنى عنك كـذا .. وكـذا .. فإن كنت بريئـة ، فسيبرئك الله ، وإن كنـت لممـت بـذنب ، فاسـتغفرى الله وتـوبى إليـه ، فـإن العبد إذا اعترف ، ثم تاب ، تاب الله عليه .
فقلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى :
ـ أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى فيما قال .
فقال أبى :
ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
فقلت لأمى :
ـ أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى فيما قال .
قالت أمى :
ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
قلت :
ـ لقد علمت أنكم قد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصـدقتم بـه ، فلـئن قلـت لكـم إنى بريئة ، لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، الله يعلم أنـى منـه بريئـة ، لتـصدقنى ، فـو الله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال : فصبر جميل والله المستعان على ما تـصفون .
.. ثـم تحـولت فاضـطجعت علـى فراشـى ، والله يعلـم أنـى حينئـذ بريئـة ، وأن الله مبرئـى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شـأنى وحيـا يتلـى ، ولكـن كنـت أرجـو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النـوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فـو الله مـا رام رسـول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو فـى يـوم شـات ، ثـم سـرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، فكانت أول كلمـة تكلـم بهـا ، أن قـال : يـا عائشة أما الله قد برأك .
.. فقد نزل قول الله تعالى فى سورة النور :
إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنْ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ صلى الله عليه وسلم (١١)

الفصل السادس عشر :

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ **سورة الفتح**

بشائر الفتح

- ١ -

.. أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومه، أنه دخل مكة هو وأصحابه، آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه صلى الله عليه وسلم دخل البيت واستلم مفتاحه، ووقف بعرفات، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما رأى، فاستبشروا خيرا، وقالوا فيما بينهم :

ـ إنما هى مكة تفتح لنا .

اليوم : الاثنين، الأول من الشهر .

الشهر : ذى القعدة .

السنة : السادسة من الهجرة .

أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجده، وكان قد دعا المسلمين للخروج للعمرة، واستجاب له جمع كبير ممن دعاهم، وخرجوا من المدينة، وقد احرم أكثرهم متجهين إلى بيت الله الحرام بمكة، وقد صحبوا معهم الهدى من إبل وخراف، لا يحملون من أدوات الحرب إلا السيوف فى أغمادها .

ولما بلغ المسلمون الجحفة، خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، قال مما قال :

ـ إنى كائن لكم فرطا، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه .

وسمعت قريش بخروج النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه إليهم، وهاجت شياطينهم، فأهاجت فيهم الشر، فتنادوا، وتعاهدوا، وأقسموا على ألا يدخل عليهم محمد صلى الله عليه وسلم قريتهم فى عامهم هذا، وتجهزوا لحربه، وخرجت فرسانهم ومشاتهم، ومعهم نفر غير قليل من حلفائهم لملاقاة المعتمرين خارج مكة .

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما انتوت قريش، فدعا أصحابه، وقال لهم :

ـ يا معشر المسلمين، أشيروا على، أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟.

قال أبو بكر الصديق τ :

ـ الله ورسوله أعلم، يا رسول الله، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ونرى أن نمضى لوجهتنا، فمن صدنا عن البيت قاتلناه .

وأيده المسلمون فيما رأى، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعلم الرجال بمسالك الجبال ليتقدمهم، فقال بريدة بن الحصيب :

ـ أنا يا رسول الله، علم بها .

فقال صلى الله عليه وسلم ، وقد بدأت الشمس تميل غاربة :

ـ فسيروا على اسم الله .

.. وسار المسلمون، متحاشين المكان الذى عسكر به فرسان المشركين، بقيادة خالد بن الوليد، وأنار الله لهم ظلمة الليل، حتى لا يشق عليهم السير بين مخانق الجبال، وبعد أن صلى بهم نبى الله صلى الله عليه وسلم الصبح، بشرهم بأن الله تعالى قد غفر لهم جميعا ما تقدم من ذنوبهم .

.. ثم عسكروا بالحديبية .

وجاء من تهامة رجال من خزاعة، وبينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق، ومنهم من اسلم ومنهم من وادع، وأبلغوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قد قدموا من مكة، وأن قريشا قد جمعت أمرها، وخرجت فى جند كثير، عازمة على ألا تدع رسول الله وصحبه يدخلون مكة، إلا بعد أن يبيدوا كبيرهم وصغيرهم، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يأت لحرب قريش، إنما جاء للطواف بالبيت، ولكن إذا صدوه عنه قاتلهم .

.. وذهب وفد خزاعة إلى نادى قريش، وقالوا لهم :

ـ إنكم لتعجلون على محمد رسول الله ، إنه لم يأت لقتال، إنما جاء معتمرا .

.. ولم يسلم سادة قريش بصدق ما قيل، لمعرفتهم لما بين خزاعة وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من ود، وبعثوا بعروة بن مسعود الثقفى ليتحرى ، فجاء رسول الله وهو بين أصحابه، فقال :

ـ يا محمد، تركت كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى، على أعداد كمياه الحديبية، معهم أقوى المقاتلين، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، قد لبسوا جلود النمور، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت ومن قاتلهم بين أحد أمرين، أن تجتاح قومك، ولم يسمع برجل اجتاح قومه وأهله قبلك، أو بين أن يخذلك من ترى معك، وإنى والله لا أرى معك وجوها، وإنى لا أرى إلا أخلاطا من الناس، لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم، وخليقا أن يفروا ويدعوك فتؤخذ أسيرا ..

وأثارت كلمات عروة غضب أبى بكر الصديق τ فسبه سبة عظيمة، ثم قال له:

ـ أنحن نخذله أو نفر عنه !!.

.. بهت عروة من قسوة الرد، وتقافزت شياطين الغضب متحفزة للنزال، لكنه سكت ولم يعقب، بعد أن عرف أن المتكلم كان أبا بكر، فلقد سبقت للصديق مكرمة عليه تمنعه من أن يبذأ فى حقه .

انصرف عروة من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أعاد عليه ما قاله من قبل، فلما لقى سادة قريش، وقف فيهم، وقال :

ـ يا قوم، إنى وفدت إلى الملوك : كسرى وقيصر والنجاشى، وإنى والله ما رأيت ملكا قط أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، وهو ليس بملك، فهو إذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه أيهم يظفر بشىء منه، وإذا تكلم خفضوا صوتهم عنده، وما يحدقون النظر إليه تعظيما له، ولا يتكلم رجل منهم حتى يستأذن، فإن هو أذن له..تكلم، وإن لم يأذن له سكت ؛ وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

.. وضرب الشيطان على أفئدتهم، فلم يقبلوا نصيحة عروة، فانصرف غاضبا إلى دياره بالطائف، بينما أجمع الرافضون على إرسال من يتحسس أخبار رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فبعثوا بالحليس بن علقمة الكنانى، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا من بعيد عرف صفته، وعرف أصحابه بأنه من قوم يعظمون البدن، ثم أمر بالهدى أن تساق فى مواجهته، فلما رآها الحليس وقد أكلت أوبارها وعلت أصواتها بالحنين تختلط معها أصوات المسلمين بالتكبير والتلبية، صاح قائلا :

- والله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، هلكت قريش ورب الكعبة إن صدوهم .

.. ورجع الحليس غاضبا، ولم يواصل تقدمه ليلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتجه إلى دار الندوة، وهو يغالب غضبه، فلما جلس قال لصحبه :

- إنى رأيت ما لا يحل منعه، رأيت الهدى فى قلائده قد أكل أوباره، معكوفا من محله، والرجال قد شعثوا وقملوا راغبين أن يطوفوا بهذا البيت، والله ما على هذا حالفناكم ولا عاقدناكم، على أن تصدوا عن البيت من جاءه معظما لحرمته مؤديا لحقه، والذى نفسى بيده، لتخلن بين محمد وما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقالوا يسترضوه :

- اجلس يا حليس، فإن ما رأيت من محمد، إنما هو مكيدة .

- ٢ -

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبين لقريش ما جاء له، فأرسل خراش بن أميه على جمل ليخبرهم، فعقر عكرمة بن أبى جهل الجمل، وتكاثر المشركون على خراش يريدون قتله، فحال الأحابيش بينهم وما يريدون، فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبأه بما حدث، فقرر أن يبعث إليهم بمن هو عزيز عليهم .

وقال عمر بن الخطاب τ:

- يا رسول الله، هل أدلك على رجل أعز على مكة، وأكثر عشيرة وأمنع، وأنه يبلغ لك ما أردت .. عثمان بن عفان .

.. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان τ ، وطلب منه أن يبلغ أهل مكة أنه إنما جاء معتمرا يريد بيت الله الحرام، وأن يدعوهم إلى الإسلام، وليذهب إلى من تخفوا بينهم مسلمين يبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله تعالى وشيكا أن يظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

.. وانطلق عثمان بن عفانτ، فلقيه أبان بن سعيد، فرحب به وأجاره، ودخل معه مكة، وفى المساء، قال عثمان لمن اجتمعوا فى دار الندوة :

- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوكم إلى الإسلام، ويخبركم أنه لم يأت لقتال أحد، إنما جاء معتمرا، معه الهدى، عليه القلائد، ينحره وينصرف .

فردوا عليه قائلين :

- قد سمعنا ما تقول، ولا كان هذا أبدا، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا ..

ثم قالوا لعثمان τ :

- إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

فقال :

- ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

.. وفضل عثمان أن يزور أهله بمكة فضيفوه عندهم، وهو ما أراد الزيارة، ولكنه أراد أن يتحرك فى حرية ليبلغ رسالة نبى الله صلى الله عليه وسلم للمتخفين بإسلامهم، وحين سجى الليل أمكنه الله من ذلك، بينما بعثت قريش بخمسين من محاربيها الأشداء ليطوفوا حول جند المسلمين، عسى أن يصيبوا منهم شيئا وهم نائمون .

.. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر الصحابة بالحذر، وتناوب الحراسة ليلا، فلما قدم فرسان المشركين، ترامى حرس المسلمين والمغيرين، فقتلوا مشركا وأوقعوا بهم الهزيمة، وأسروهم جميعا، إلا واحدا منهم استطاع الفرار إلى مكة، فنبأ أهله بما حل بفلذات أكبادهم، فتنافرت قريش، وخرج جمع منهم إلى الحديبية فتراموا مع المسلمين، وتواصل نصر الله، وأسر المسلمون منهم اثنى عشر فارسا .

.. وأشاع بعض من الأسرى بين المسلمين، أن قريشا قد قتلت عثمان، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشرة رجال ليدخلوا مكة سرا، ويستطلعوا أمر عثمان، فعلمت قريش بأمر خروجهم، فكمنوا لهم وأسروهم، وبلغ المسلمين أن قريشا قد قتلتهم كما قتلت من سبقوهم .

فلما وصل الأمر مسامع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعا إلى البيعة، وقال :

ـ لا نبرح حتى نناجز القوم .

وبايع الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن يصمدوا فى وجه المشركين حتى يأتى نصر الله، وتجهزوا للحرب .

وعلمت قريش بتعاهد المسلمين على قتالهم، فانتابهم فزع عظيم، فها هم أولاء كلما لقوا جند الله باءوا بخسران عظيم، حتى أخذهم الشؤم كل مأخذ فأظلمت الدنيا فى عيونهم، حتى لم يعودوا يرون أنفسهم إلا أسرى عند رسول الله، ولولا بقية من الكبر، لسارعوا إليه رافعين رايات الاستسلام، وها هم أولاء يبعثون سفراءهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلين :

ـ يا محمد، إن أصحابك بخير، أما ما كان من حبسهم بمكة، وما كان من قتال من قاتلك، فلم يكن من رأى ذوى رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا، ولم نعلم به، وكان من سفهائنا : فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة، والذين أسرت آخر مرة .

فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثيهم، رافضا أن يطلق سراح أسرى قريش، قبل أن تطلق قريش سراح أصحابه .

.. وقد كان .

.. وعاد عثمان مع العشرة الذين أسرتهم قريش، بينما أطلق المسلمون أسرى قريش؛ فلما لقى جمع من المسلمين عثمان سألوه، قائلين :

ـ أشفيت من البيت يا أبا عبد الله ؟.

عقب عثمان على ما قالوا، غاضبا :

ـ بئس ما ظننتم بى، فو الذى نفسى بيده، لو لبست مقيما بمكة سنة، ورسول الله   صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية، ما طفت حتى يطوف رسول اللهصلى الله عليه وسلم ، وقد دعتنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت .

فقالوا له :

ـ هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه ما ظنناه بك .

قال عثمان τ :

ـ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخابت ظنتكم .

ـ ٣ ـ

اجتمع أهل الرأى من قريش، وقد أخذ الشيطان بذيله فى خوف، وجلس بينهم مخذولا لا يوسوس، فخمدت حمية الجاهلية فيهم، ونهض العقل بدوره فى رشاد، فلم يطل نقاشهم، بل أجمعوا على مهادنة محمد، على أن ينصرف عنهم عامهم هذا، ولا يخلص إلى البيت، فتتحدث العرب بأنه قد دخله عليهم راغما لأنوفهم، أما إذا رضى وانصرف عنهم عامهم هذا، فسوف

تتسامع العرب بأنهم قد صدوه صدودا، وتظل هيبتهم رافعة ألويتها، أما إذا شاء فليرجع فى قابل حسب عهدهم، فيقيم ببلدهم ثلاثا، وينحر هديه، ولا يدخل بيوتهم ولينصرف .
وقالوا لسهيل بن عمرو :
ـ آت محمدا فصالحه على ما اتفقنا عليه .
فلما أهل سهيل وصحبه من بعيد، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لمن حوله :
ـ سهل أمركم .
.. جلس سهيل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجرى بينهما القول، حتى اتفقا على الصلح، وأن تمنع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضا، وأنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ـ حتى وإن كان على دين محمد رسول الله ـ رده إلى وليه، وأنه من أتى قريشا ممن تبع محمدا لم يردوه عليه، وأن بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عيبة : ان يمتنع بينهم السرقة والخيانة، وأنه من أحب أن يدخل من قبائل العرب فى عقد وعهد محمد رسول الله دخل فيه، ومن أراد أن يدخل فى عقد وعهد قريش دخل فيه .
وهنا تواثب من حضر من خزاعة، وقالوا :
ـ نحن فى عقد محمد رسول الله وعهده .
بينما تواثب من حضر من بنى بكر، وقالوا :
ـ نحن فى عقد قريش وعهدهم .
.. كره المسلمون هذه الشروط، وامتعضوا منها، فلما جاء وقت المكاتبة، وثب عمر بن الخطاب مغاضبا، وقال :
ـ يا رسول الله، ألست نبى الله حقا ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم .
قال عمر :
ـ ألست على الحق، وهم على الباطل ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم .
قال عمر τ :
ـ أليس قتلانا فى الجنة، وقتلاهم فى النار ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم .
قال عمر :
ـ علام نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ إنى عبد الله ورسوله، ولست أعصيه، ولن يضيعنى، وهو ناصرى .
قال عمر :
ـ أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف حقا ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم، أفأخبرتك أنك تأتيه العام .
قال عمر :
ـ لا .
قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ فإنك آتيه ومطوف به، يا عمر ترانى رضيت وتأبى ؟.

فخجل ابن الخطاب، وسكت فلم يعقب بعدها بكلمة واحدة .
فقال سهيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ هات، أكتب بيننا وبينك كتابا .
فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا τ، وقال له :
ـ أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .
فقال سهيل :
ـ أما الرحمن الرحيم، فلا أدرى ما هو ؟.. أكتب باسمك اللهم .
فثار المسلمون، وقالوا :
ـ لا تكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم .
وقال نبى الله صلى الله عليه وسلم لعلى :
ـ أكتب باسمك اللهم .
فكتب على، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله .
فاعترض سهيل، وقال :
ـ والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، أكتب فى قضيتنا ما نعرف، أكتب : محمد بن عبد الله .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى :
ـ أمحه .
فتلكأ على τ، وقال :
ـ ما أنا الذى أمحك .
فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أكتب، فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد .
.. ولما أراد على τ أن ينفذ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذ أسيد بن حضير وسعد ابن عبادة بيده، ومنعاه أن يمحها، وقالا :
ـ هى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فالسيف بيننا وبينهم .
.. وارتفعت أصوات المسلمين مؤيدة لرأيهما، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بيديه ليسكتهم، ثم طلب من على أن يريه الكتاب، فناوله له، فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لعلى :
ـ أكتب محمد بن عبد الله .
فكتب "على " ، وحين أراد أن يستطرد كاتبا، اعترضوا على أن يرد من جاءهم مسلما إلى قريش، ولا ترد قريش من ذهب إليها، فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم، أنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم إلينا سيجعل الله له فرجا ومخرجا .
.. ولما قرب الانتهاء من كتابة وثيقة الصلح، إذا أبو جندل بن سهيل قد فر من القيود التى كبله بها أبوه، ونزل على معسكر المسلمين مستجيرا، وكان على الإسلام، فلما رآه سهيل قام إليه يضرب وجهه بغصن شوك، وهو يقول لرسول الله غاضبا :
ـ يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده .
فرجاه الحبيب صلى الله عليه وسلم أن يكف عن إيذائه لابنه، وهو لا يستحى ولا يستجيب، فلما أجبره الصحابة على أن يكف يده، أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طلبه، وقلبه يتمزق ألما، قائلا لأبى جندل :
ـ اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا مع القوم صلحا، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا، وإنا لا نغدر .

ورجع أبو جندل مع أبيه مكبلا فى الأغلال، والمسلمون فى غاية الحزن، والكرب من هذه المعاهدة التى كبلتهم فلم يقدروا على نجدة أخ فى الله، فلما نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطالبهم بنحر الهدى، مرة ومرة ومرات، لم يستجب أحد، فاشتد عليه الأمر، ودخل حزينا على زوجه أم سلمة ونبأها بما كان من أمر المسلمين معه، فقالت له :

ـ يا رسول الله لا تلمهم، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم، مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح، يا نبى الله أخرج ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق شعرك .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حربة وأهوى بها على البدن يذبحها، رافعا صوته يقول:

ـ بسم الله، والله أكبر .

فتواثب المسلمون ينحرون هديهم مسمين مكبرين، وبعد أن انتهوا حلق البعض وقصر البعض الآخر، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قبته، وهو يقول باسما :

ـ رحم الله المحلقين .

قال المسلمون :

ـ يا رسول الله، والمقصرين .

قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ رحم الله المحلقين، رحم الله المحلقين، رحم الله المحلقين، والمقصرين .

قال من سمعوا :

ـ يا رسول الله، ما بال المحلقين قد أكثرت عليهم الترحم ؟.

قال ابن عباس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم :

ـ لأنهم لم يشكوا .

.. وهبت الريح شديدة فحملت شعر المحلقين والمقصرين فألقته فى الكعبة، وهكذا شاء الله أن يستقر شعرهم حيث كان يجب أن يستقر .

.. وجمع المسلمون أغراضهم، وطووا خيامهم، وأعلن عن الرحيل للعودة إلى الديار .

ـ ٤ ـ

.. فى الطريق أصاب المسلمين الجوع، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يذبحوا ما يركبون من بعير، فأذن لهم، ولكن عمر بن الخطاب قال :

ـ يا رسول الله أنذبح ما نركب، فنرهق بالسير، فإذا ما لقينا عدوا لقينا جياعا رجالا، ولكن إذا رأيت أن ندعو الناس ببقايا زادهم فنجمعها ثم تدعو فيها بالبركة، فإن الله سيبلغنا بدعوتك .

ودعا الناس لأن يأتوا بما لديهم من زاد، ووضع مجموعا على بساط، فكان قليل القليل، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا الله بما شاء أن يدعو، واستجاب ربه لدعائه فكثر القليل، واجتمع الناس فأكلوا حتى شبعوا، ثم حشوا أوعيتهم من رزق الله، وبقى مثل ما أكلوا وحملوا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم فى سعادة، قائلا :

ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله : والله لا يلقى الله تعالى عبد مؤمن بهما، إلا حجب من النار .

وأمطرت السماء والوقت صيف، فشرب المسلمون وارتوت بهائمهم، ثم أذن للرحيل، وفى أثناء المسير إلى المدينة، وسوس الشيطان لبعضهم، فقالوا :

ـ ما هذا بفتح، فلقد صددنا عن البيت، وصد هدينا .

وعن عروة أن رسول الله قال :

ـ بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألونكم القضية، ويرغبون إليكم الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله تعالى عليهم، وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟.. أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار،وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنون ؟!.

فقال المسلمون :

ـ صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتح، والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا .

.. وأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم سورة الفتح، فكان أول من طلب أن يلقاه عمر بن الخطاب، وحين جلس بين يدى نبى اللهصلى الله عليه وسلم ، شكر الله على ما بشره به، ثم قرأ عليه قول الله تعالى:

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا صلى الله عليه وسلم ١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا صلى الله عليه وسلم ٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا صلى الله عليه وسلم ٣)

فقال عمر :

ـ صدق الله العظيم، وصدق نبيه .

ـ ٥ ـ

بعد عودة المعتمرين إلى المدينة، قدمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مهاجرة من مكة إلى المدينة هربا بدينها، فلقد كانت زوجة لمشرك، وحين أراد أهلها استردادها، أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم آية من سورة الممتحنة :

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ صلى الله عليه وسلم ١٠)

.. فامتنع نبى الله صلى الله عليه وسلم عن تسليمها لهم، وبقيت بين المسلمين وقد طلقت من زوجها، ثم قدم أبو بصير عتبة بن أسيد من مكة، ماشيا على قدميه فارا من حبس قومه له، ومعه خمسة ممن كانوا قد احتجزهم المشركون من مستضعفى المسلمين، ومكثوا بين المسلمين ثلاثة أيام، ثم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحمل إليه كتابا من أهل أبو البصير يطالبونه بحق العهد الذى بينهم وبينه، أن يعيد أبا البصير إليهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا البصير أن يعود مع الرجلين إلى أهله، بعد أن بشره بأن الله سيجعل له فرجا ومخرجا؛ وقبل أبو البصير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضض، وقد أضمر فى نفسه شيئا، وسار جمع من المسلمين يبشرونه بمقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلين :

ـ يا أبا البصير أبشر، فإن الله جاعل لك فرجا ومخرجا .

ورغم بشارة نبى الله صلى الله عليه وسلم ، راحوا يحرضونه على قتل من جاءا لأخذه، فلما وصل ركب أبو البصير ذى الحليفة، صلى صلاة المسافر ركعتين فى مسجدها، ودعا من معه إلى الطعام، فلما أكلوا قام رسول قريش يهز سيفه ملوحا، ثم قال مفاخرا :

ـ لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل .

فقال له أبو البصير :

ـ أصارم سيفك هذا ؟.

قال الرجل :
ـ نعم .
قال أبو البصير :
ـ ناولنيه أنظر إليه إن شئت .
فناوله لأبى البصير، ففاجأه بضربة قتلته، فلما رأى الدليل ما أصاب صاحبه، انطلق يعدو فى هلع متجها إلى المدينة، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنه فأمنه، فقدم أبو البصير متمنطقا سيف الرسول، راكبا راحلته، ووقف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :
ـ يا رسول الله، قد وفت ذمتك وأدى الله عنك، وقد أسلمتنى بيد العدو، وقد امتنعت بدينى من أن أفتن .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ويل لمسعر حرب .
فلما سمع أبو البصير قولة نبى الله صلى الله عليه وسلم ، خرج فى صحبة مجموعة ممن فروا بدينهم، حتى وجدوا مأمنا فى مكان قريب من طريق البحر، فنزلوا به متحصنين، فلما سمع المحبوسون بقريش من المستضعفين بأمرهم، فروا متسللين إلى حيث أقام أبو البصير، فأقاموا معه، ووصل عددهم أكثر من سبعين رجلا، منهم أبو جندل بن سهيل، وكان طعامهم الحيتان التى يلقى بها البحر إليهم، ثم اجتمع إليهم أناسى كثيرة، حتى بلغ أصبحوا فيما يزيد على الثلاثمائة رجل، فكانوا كلما مرت بهم قافلة لقريش أخذوا بضاعتها، وقتلوا رجالها، فضاقت قريش بصنيعهم، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنجدون به، ويرجونه أن يضم إليه أبا البصير وأبا جندل، ومن فر بدينه من مكة، ولا حرج عليه فيهم !!.
.. وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى بصير وأبى الجندل ومن معهما أن يقدموا عليه، فوصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى بصير، وهو على فراش الموت، فأخذ ينظر إلى كتاب الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم فى حب، حتى فارقته الروح.
ورجع أبو الجندل ومن معه إلى المدينة، وأقاموا بين أهلها .

ـ ٦ ـ

.. كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيصر الروم، وحمل كتابه دحية الكلبى، فسلمه إلى عظيم بصرى، فأرسله بدوره إلى القيصر فى القدس، فقرءوه عليه :
" بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد بن عبد الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعوة الإسلام ؛ أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الآرسيين :
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ صلى الله عليه وسلم ٦٤) سورة آل عمران
فقال الملك :
ـ ابحثوا لنا عن أحد من قوم محمد رسول الله، نسأل عنه .
.. وجاءوا له بأبى سفيان بن حرب ومن معه من القرشيين، وكانوا فى تجارة لهم بالشام، فطلب قيصر من مترجمه أن يسألهم :
ـ أيكم أقرب نسبا لمحمد ؟.
فقال أبو سفيان :
ـ أنا .

فأدناه قيصر منه، ثم أمر مترجمه أن يطلب من أصحابه، رد أبا سفيان إذا كذب فى أمر من الأمور التى سيسأله عنها، ثم سأل أبا سفيان :

ـ كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟.

قال أبو سفيان :

ـ هو فينا ذو نسب .

قال قيصر :

ـ هل تكلم بما يقول محمد رسول الله، أحد منكم من قبل ؟.

قال أبو سفيان :

ـ لا .

قال قيصر :

ـ هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟.

قال أبو سفيان :

ـ لا .

قال قيصر :

ـ فهل كان من آبائه ملك ؟.

أجاب أبو سفيان :

ـ لا .

سأل قيصر، قال :

ـ ومن يتبعونه : أأشراف الناس، أم ضعفاؤهم ؟.

قال أبو سفيان :

ـ بل ضعفاؤهم .

قال قيصر :

ـ وهل يزيدون أم ينقصون ؟.

قال أبو سفيان :

ـ بل يزيدون .

قال قيصر :

ـ هل يرتد أحدهم سخطا على دينه ؟.

قال أبو سفيان :

ـ لا .

قال قيصر :

ـ هل يغدر إذا عاهد ؟.

قال أبو سفيان :

ـ لا، ونحن الآن معه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل بها .

قال قيصر :

ـ فهل قاتلتموه ؟.

قال أبو سفيان :

ـ نعم، والحرب بيننا سجال، مرة لنا ومرة علينا .

قال قيصر :

ـ فيم يأمركم ؟.

قال أبو سفيان :

ـ يقول : اعبدوا الله ولا تشركوا بـه شيئا، وينهى عما كـان يعبده آباؤنـا، ويـأمر بالـصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .
قال قيصر :
ـ إنى سألتك عن نسبه، فقلت : إنه فيكم ذو نسب، وكـذلك الرسـل تبعـث فـى نـسب قومهـا ؛ وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فقلت : لا، فلو كان أحد قبله قال هذا القـول، لقلـت : رجل يأتى بقول قيل قبله ؛ وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فقلت : لا، فما كان ليذر الكذب على الناس ليكذب على الله ؛ وسألتك هل من آبائـه ملـك، فنفيـت ذلـك، فلـو كان من آبائه من ملـك، لقلـت : رجـل يطلـب ملـك أبيـه، وسـألتك : أأشـراف النـاس يتبعونـه أم ضعفاؤهم، فقلت : بل ضعفاؤهم، فالضعفاء أتباع الرسل ؛ وسألتك : هل يزيدون أو ينقـصون، فقلت بل يزيدون ولا يرتد أحد منهم، وكذلك الإيمان حين تخالطه بشاشة القلوب يزيد حتى يتم ؛ وسألتك : هل قاتلتموه، فقلت : نعم، وإن الحرب بيـنكم وبينـه سـجال، وكـذلك الرسـل تبتلـى ثـم تكون لها العاقبة ؛ وسألتك : بماذا يأمر وهل يغدر، فذكرت بما يأمر، وقلت أنه لا يغـدر، وهكـذا الرسل تأمر بالخير ولا تغدر ؛ فتيقنت أنه نبى، وقد كنت أعلم أنه مبعوث، ولـم أظـن أنـه فـيكم، وإن كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمى هاتين .
.. وعلا صوت من كان حاضرا من قومه مستنكرين ما قال قيصر، فأمرهم بالصمت، ثم أمر بالقرشيين فأخرجوا من المجلس .
.. سار قيصر إلى حمص، وقد مال للدخول فى دين الإسلام ميلا شديدا، ولما وصـل حمـص، أمر بجمع عظماء قومه فى قصر له، ثم أمر العسكر فغلقـوا علـيهم الأبـواب، ثـم عـرض علـيهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهادة أعدائه له، وقال :
ـ يا معشر الروم، هل أدلكم على سبيل الرشد والفلاح، وأن يثبت ملككم ؟.. بايعوا هذا النبى .
وانتفض الـشيطان غاضـبا أشـد الغـضب، فتـصايح الحاضـرون، ونفـروا غاضـبين يريـدون الأبـواب، عـازمين علـى الانقـلاب علـى القيـصر، ولكـنهم فوجئـوا بـالأبواب مغلقـة، فلمـا رأى القيصر غضب قومه مما عرض عليهم، وعزمهم على الغدر به وبسلطانه ؛ قال للعسكر :
ـ ردوهم إلى .
.. فلما اكتمل شملهم، هداه شيطانه إلى أنه لا سبيل للخـلاص مما هو فيه، إلا بـالنكوص عمـا كان عازما عليه، فقال لهم :
ـ يا معشر الروم، إنما قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم .
فلما عقلوا مقولته، ذهب عنهم الغضب، ورضوا عن مليكهم، وخمد غضب الـشيطان، وتبـسم منتصرا .

ـ ٧ ـ

.. أرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم رسالة مماثلة إلى كسرى ملك الفرس، قال له فيهـا : " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمـد رسول الله إلى كـسرى عظـيم الفـرس، سـلام علـى مـن اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، اشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وأن محمـدا عبـده ورسوله، أدعوك بدعوة الله، فإنى رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحـق القـول على الكافرين . أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس ."
.. فلما قرأ كسرى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، مزقه شر ممـزق ؛ وبلـغ مـا فعله كسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
ـ مزق الله ملكه كل ممزق .
فما مرت عليه شهور قلائل، إلا وثار عليه ابنه فقتله، وانتزع الملك منه .

.. كما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم ، كتابا إلى المقوقس بن متى، عظيم القبط بالإسكندرية، فلما قرأه قال :
ـ ما منعه إن كان نبيا، أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟!!.
فقال من حمل الكتاب :
ـ ألست تشهد أن عيسى بن مريم υ رسول الله ؟.
قال المقوقس :
ـ بلى .
قال حامل الكتاب :
ـ فماله حين أخذه قومه ليقتلوه، ألا يكون دعا عليهم، قبل أن يرفعه الله، أن يهلكهم الله ؟!!.
قال المقوقس :
ـ أنت حكيم، جئت من عند حكيم .
وكتب المقوقس ردا على كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط ؛ سلام عليكم، أما بعد : فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وظننت أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط، وبثياب، وببغل تركبها، والسلام ."
.. كما أرسل صلى الله عليه وسلم برسل حملوا كتبه إلى كثير من الملوك والحكام، فلم يسلم منهم غير النجاشى ملك الحبشة، هو والمنذر بن ساوى ملك البحرين، ولقد كتب بعد إسلامه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أما بعد، يا رسول الله، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فكثر منهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه ؛ وبأرضى مجوس ويهود، فأرسل إلى فى ذلك أمرك ."
فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، فإنى أحمد الله إليك، الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله ؛ أما بعد،فإنى أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فلنفسه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم، ومن أقام على يهوديته أو ماجوسيته، فعليه الجزية ."

ـ ٨ ـ

الشهر: ذى القعدة .
السنة : السابعة من الهجرة .
.. وقد مر عام على معاهدة الحديبية، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بأن يتجهزوا للعمرة، ولا يتخلف أحد ممن شهدوا صلح الحديبية، وطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفل أهل المال من لا يملك زاده.
فقالوا :
ـ يا رسول الله، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئا ؟.
فقال صلى الله عليه وسلم :
ـ بما كان، ولو بشق تمرة .
وخرج المسلمون ممن شهدوا الحديبية، فلم يتخلف منهم أحد، وأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم

من باب مسجده، وساق معه ستين بدنة، وصحب المسلمون معهم أسلحتهم، تحسبا لأى عدوان من الكفار، وبينهم مائة فارس، فلما طلعت بشائر الحجيج على قريش أصابهم الرعب مما رأوا، وقالوا:
ـ والله ما أحدثنا حدثا، وإنا على كتابنا، ومدتنا، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه؟!.
وبعثوا إليه بنفر منهم، فقالوا :
ـ والله يا محمد، ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف فى القرب .
فقال لهم صلى الله عليه وسلم ، أنه لن يدخلها عليهم بسلاح، فقالوا له :
ـ هو ما تعرف به، البر والوفاء .
ورجعوا إلى قومهم فطمأنوهم، وكره ناس من الكفار رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عقر دارهم، فهجروا دورهم إلى ذرى الجبال، بينما أغلق غيرهم أبواب بيوتهم عليهم، لا يخرجون منها ولا تدخل عليهم، بينما خرج الصبية يدفعهم الفضول ينظرون إلى ما يجرى .
دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة على ناقته، ثم نزل عنها، واستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت سبعا، بعد أن اضطبع بأن كشف عن كتفه اليمنى، وأدخل رداءه من تحت إبطه، وحوله المسلمون يفعلون مثلما يفعل، فرملوا ثلاثة أشواط، ومشوا بين الركنين : اليمانى والأسود وهم يرددون :
ـ لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده .
فلما انتهى رسول الله، ركب راحلته، واتجه إلى الصفا، وسعى راكبا بين الصفا والمروة، وحوله المسلمون ما بين راجل وراكب، فلما أتمها سبعا عند المروة، حيث تجمعت الهدى، حلق شعره، ثم نحر، وقال :
ـ هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر.
ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة بعد صلاة العشاء، فمكث فيها، حتى أذن بلال من فوق سطح الكعبة لصلاة الصبح .
ومكث رسول الله بمكة ثلاثة أيام، لم يدخل دارا من دورها، ثم غادر وصحبه عائدين إلى المدينة، وقد لحقت به قلوب ثلاثة من قادة قريش، بعد أن تعاقدوا على الإسلام .
يقول عمرو بن العاص τ :
ـ بعد وقعة الخندق، كنت قد عقدت العزم على الهجرة لأقيم بالحبشة عند النجاشى، حتى إذا ظهر محمد كنت فى حمى بلد غير مكة، فحملت للنجاشى جلودا كثيرة، فلقد كان يحب هذه الهدية، وبينما أنا عنده، إذا برسول يأتى من عند نبى الله، فطلبت منه أن يسلمه لى لأقطع عنقه، فغضب النجاشى أشد الغضب، وقال :
ـ أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه النموس الأكبر لتقتله ؟!!.
قلت بعد أن اعتذرت للملك لأنى أغضبته :
ـ أيها الملك، فكذلك هو ؟!.
قال النجاشى :
ـ ويحك يا عمرو، أطعنى واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .
فقلت له :
ـ أتبايعنى على الإسلام ؟!.
فبسط يده فبايعنى، وخرجت إلى أصحابى وكتمت عنهم إسلامى .

فلما عدت إلى مكة، قررت أن أخرج مهاجرا لألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وبينما أنا خارج، إذا بى أجد خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، قد سبقانى فى الخروج، معا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنا إسلامنا عنده .

ولقد بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلنى بكتاب إلى جيفر وعياذ ملكى عمان، فلما وصلت إليهما بدأت بعياذ، فقرأ كتاب رسول الله، فرق قلبه بعد أن علم بمبادئ الإسلام، وقال :

ـ لو كان أخى يطاوعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعا .

فقلت له :

ـ إن أسلم أخوك، ملكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم، وردها على فقيرهم .

فصحبنى إلى أخيه جيفر، فتكلمت معه بما ألان قلبه للإسلام، فأسلم هو وأخوه .

ـ ٩ ـ

الشهر : جمادى الأولى .

السنة : الثامنة من الهجرة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية من ثلاثة آلاف مقاتل، للقصاص ممن قتلوا رسوله إلى أمير بصرى ؛ وعسكر جند الله بمنطقة الجرف، فلما صلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس إليهم، وأعلمهم بأن اللواء منعقد لزيد بن حارثة فهو أمير الناس، فإذا ما قتل، فلجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحه .

.. فلما تهيأ الناس للمسير أوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقوى الله، وأن يقاتلوا من كفر بالله، وألا يغدروا، ولا يغلوا، ولا يقتلوا وليدا، ولا امرأة، ولا صغيرا ضرعا، ولا كبيرا فانيا، ولا يغرقوا نخلا، ولا يقلعوا شجرا، ولا يهدموا بيتا، ولا يتعرضوا لرجال فى الصوامع معتزلين الناس .

وقال عبد الله بن رواحه :

ـ يا رسول الله، عظنى بشىء أحفظه عنك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أنت قادم غدا بلدا السجود فيه قليل، فأكثر السجود .

قال عبد الله :

ـ زدنى يا رسول الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب .

.. ومضى عبد الله، ثم عاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ يا رسول الله زدنى الثالثة فإن الله وتر يحب الوتر .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ابن رواحه، ما عجزت فلا تعجزن، إن أسأت عشرا فعليك أن تحسن واحدة .

ـ ١٠ ـ

.. لقى المسلمون طلائع جند شرحبيل بقيادة أخيه سدوس، فقاتلوهم وهزموهم شر هزيمة وقتلوا سدوس، ثم بلغهم أن هرقل قد خرج إليهم فى مائة ألف من الروم، ومائة

ألف من قبائل العرب، فقال رجال من المسلمين : " نكتب إلى رسول الله، فنخبره بأمر عدونا، فإما يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضى له .
فقام فيهم عبد الله بن رواحه، قائلا :
ـ يا قوم، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيل؛ ما كنا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما الظهور، وإما الشهادة .
وأثارت كلمات ابن رواحه الحمية فى النفوس، وقالوا :
ـ قد والله صدق ابن رواحه .
.. وساروا إلى قرية يقال لها مؤتة فلقوا حشود هرقل، ورأوا ما لا قبل لهم به من العدد والعدة، ورغم ما رأوا قاتلوا جند هرقل قتال الشهداء، فقتل زيد، وتناول منه جعفر الراية فقاتل، فقطعت يمينه، فأمسك الراية بيساره، فقطعت يساره، فأمسك الراية بعضديه، فشطره رجل من الروم بسيفه فشقه نصفين، فتناول ابن رواحه الراية وتردد قليلا، ثم أقدم فقاتل حتى قتل، فسقط اللواء، فاختلط الجند، وانهزم المسلمون، وكروا متراجعين، فالتقط اللواء ثابت بن أقرم ورفعه عاليا، وصاح :
ـ إلى أيها الناس .
فالتف حوله الجند فخطب فيهم قائلا :
ـ يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم .
قالوا :
ـ أنت .
فدفع باللواء إلى خالد بن الوليد، وقال :
ـ خذ اللواء يا أبا سليمان .
وتناول خالد لواء المسلمين ودافع، وثبت فارتد الكفار، وحل الظلام فتوقف القتال.
.. وفى ذات اللحظة، كان نبى الله صلى الله عليه وسلم يجلس على المنبر وحوله صحابته، فأخذ يصف لهم ما يحدث للمسلمين، فنبأهم بموت زيد شهيدا، ثم بموت جعفر شهيدا، ثم تغير وجهه قليلا وسكت، ثم قال وقتل ابن رواحه شهيدا، وعقب قائلا : لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت سرير ابن رواحه فيه ازورار عن
سريرى صاحبيه، فقلت : عم هذا ؟. فقيل لى : مضيا، وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى
.
وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجلسه، وخرج شاقا طريقه إلى دار جعفر، ولما وصل، استأذن من أهلها، ثم دخل على أسماء بنت أبى بكر، امرأة جعفر، فقال لها :
ـ يا أسماء أين بنو جعفر ؟.
فجاءت بهم إليه، فضمهم الحبيب صلى الله عليه وسلم إليه وشمهم، وهو فى غاية التأثر، ثم زرفت عيناه فبكى، وقال :
ـ اللهم إن جعفرا قد قدم إلى أحسن الثواب، فأخلفه فى ذريته بأحسن ما أخلفت أحدا من عبادك فى ذريته .
فقالت زوجة جعفر :
ـ أى رسول الله، لعله بلغك عن جعفر شئ ؟.
فقال صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم، قتل اليوم، يا أسماء ألا أبشرك ؟.
قالت :
ـ بلى، بأبى أنت وأمى .

قال صلى الله عليه وسلم :
ـ فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة .
وارتعد بدن أسماء ، وهى تحاول أن تخفى حزنها وتتحمل مصيبتها ، للحظات ، ثم بدأت تصيح، فاجتمعت إليها النساء، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ يا أسماء، لا تقولى هجرا، ولا تضربى صدرا .
وذهب الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى ابنته فاطمة، فقال لها :
ـ اصنعوا لآل جعفر طعاما، فلقد شغلوا عن أنفسهم اليوم .
.. ولما كان الغد عدل خالد من أوضاع الجند، فجعل الميمنة مكان الميسرة والميسرة مكان الميمنة، فلما رآهم جند هرقل فزعوا ورعبوا ومالوا منهزمين، فناور خالد τ، ثم عاد بجند الله إلى المدينة سالمين .
فلما رآهم الناس، اخذوا يرمونهم بالتراب، وقولون :
ـ يا فرار، أفررتم فى سبيل الله .
فكانوا يسارعون إلى بيوتهم ويغلقون عليهم الأبواب فلا يفتحون لأحد، فأرسل إليهم الحبيب صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا، وصار يقول لهم :
ـ أنتم الكرار فى سبيل الله .
.. وحين بلغت مقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أسماع المسلمين، كفوا ألسنتهم، وتحفزوا مترقبين تحقق بشارة نبى الله صلى الله عليه وسلم ، ليروا إخوانهم كرارا على أعداء الله .

الفصل السابع عشر :

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣

سورة النصر

الفتح الأكبر

ـ ١ ـ

السنة : الثامنة من الهجرة .
الشهر : شعبان .

بعد مرور أقل من عامين على معاهدة الحديبية، عدا بنو بكر وهم فى عقد قريش، على قبيلة خزاعة وهم فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساعدتهم قريش بالسلاح والرجال، فقتلوا منهم الضعاف من الشيوخ والنساء والأطفال، وفر من بقى منهم حتى احتموا ببيت الله الحرام .

وسار عمر الخزاعى فى أربعين رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة،ودخل عليه المسجد يستصرخه، وقص عليه ما كان من الأمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ نصرت يا عمرو بن سالم .

ثم قام الحبيب غاضبا، وهو يقول :

ـ لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القبائل من يقول : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ؛ فتجهز خلق كثير، ومع إشراق هلال شهر رمضان، جاءوا بسلاحهم وعتادهم من كل حدب، وهم بين ظان يظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الشام، وآخر يظن أنه إنما يريد هوزان ..

.. ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه، قائلا :

ـ اللهم خذ على أبصارهم، فلا يرونى إلا بغتة، ولا يسمعوا بى إلا فجأة .

.. ثم خرج فأعلم الناس بوجهته، وأمر نفرا من أصحابه أن يؤمنوا مخارج المدينة، حتى لا يبلغ أحد قريشا بتجهيزهم، ونبئ النبى بأن حاطب بن بلتعة قد بعث امرأة إلى مكة بكتاب يحذر فيه قريشا من غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى على بن أبى طالب و"الزبير بن العوام"، وحدد لهما مكان المرأة، وأمرهما أن يلحقا بها، وهكذا فشلت المحاولة الوحيدة لإفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا حاطبا، وكان ممن شهدوا بدرا، وسأله عما حمله على فعل ذلك، فاعتذر حاطب، قائلا :

ـ يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى المدينة أهل ولا أصل، ولى بين أظهرهم فى مكة ولد وعشيرة، فأردت أن أصانعهم عليه .

فقال عمر بن الخطاب :

ـ يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعنى أضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق .

فقل له الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ وما يدريك يا عمر، لعل الله تعالى قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم .

ـ ٢ ـ

اليوم : الأربعاء، العاشر من الشهر .

الشهر : رمضان .

السنة : الثامنة من الهجرة .

صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين، ثم نادى مناديه :

ـ من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم صائما، ومعه المهاجرون والأنصار، وجماعات من العرب، فى عشرة آلاف مقاتل، يركبون الخيل والإبل، وفعل الناس مثلما فعل الحبيب فأمسكوا على صيامهم، وفى اليوم الثانى من الخروج للجهاد، أجهدهم السير فى هجير الصحراء، وبلغ الحبيب صلى الله عليه وسلم أن الناس قد شق عليهم الصيام، وكان وقت صلاة العصر قد حل، وهو على راحلته ،فطلب إناء به ماء، ورفعه لأعلى حتى يراه الناس جميعا وشرب، ثم ناوله لمن يجاوره فشرب، وشرب من يليه، وهكذا أفطر المسلمون .

فلما وصل جيش المسلمين بمر الظهران، وحل الظلام، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقد كل رجل نارا، فأوقدت عشرة آلاف نار، جعلت الصحراء وكأنها فى نور الظهيرة .

وكانت قريش فى قلق شديد من أن يغزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن عدوا على أهل عهد رسول الله، فخرج أبو سفيان بن حرب، ومعه اثنان من أصحابه، يستطلعون مشارف مكة، والتفت نبى الله صلى الله عليه وسلم إلى من حوله، وأخبرهم بمكان أبى سفيان، وأمر بإحضاره هو ومن معه، فخرجت إليه جماعة من المسلمين، وعادت به وبصحبه، فلما اقترب ورأى النيران، فزع فزعا شديدا، وتساءل قائلا :

ـ من القوم ؟!.

قالوا :

ـ هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

قال أبو سفيان فى عجب :

ـ هل سمعتم بمثل هذا الجيش، نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم .

.. ثم ساروا بهم إلى العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجار أبا سفيان وصاحباه، ثم صحبهم وذهب إلى المسجد، ودخل بهم على الحبيب، فدعاهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم للإسلام فأسلم صاحبيه، وشهد أبو سفيان بأنه لا إله إلا الله، لكنه تردد فى أن يشهد بأن محمدا رسول الله، وقال :

ـ أما هذه ففى النفس منها شئ، فأرجئها .

فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمه العباس أن يبيته، ويعود به فى الصباح، فلما أذن لصلاة الصبح، ردد جند الله مع المؤذن، ففزع أبو سفيان، وقال :

ـ ما يصنع هؤلاء، أأمروا فى بشىء ؟!.

قال العباس τ :

ـ كلا، بل هم يستعدون للصلاة .

قال :

ـ وكم يصلون ؟.

قال :

ـ خمس صلوات فى اليوم والليلة .

وأمره العباس بالوضوء فتوضأ، ودخل معه المسجد، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة كبر، فكبر الناس، وركع فركعوا، ثم رفع فرفعوا، وسجد فسجدوا، فلما انتهوا، قال أبو سفيان فى إعجاب وعجب :

ـ ما رأيت كاليوم طاعة، قوم جمعهم من هنا وهنا، جعلهم ولا أهل فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون أطوع منهم؛ يا أبا الفضل، أصبح والله ملك ابن أخيك عظيما .

فقال له العباس τ :

ـ إنه ليس بملك، ولكنها النبوة .

قال :

ـ أو ذاك .

ثم دخل به العباس τ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له :

ـ يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟.

قال أبو سفيان :

ـ بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك، إنه لو كان مع الله إله لنصرنى، ولقد استنصرت إلهى، واستنصرت إلهك، وفى كل مرة، أرى أنك قد نصرت على .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله .

قال له العباس يستحثه هامسا :

ـ ويحك اشهد قبل أن تضرب عنقك .

فشهد أبو سفيان شهادة الحق، ثم قال :

ـ يا رسول الله، جئت بأوباش الناس، من يعرف ومن لا يعرف، إلى أهلك وعشيرتك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أنتم أظلم وأفجر، لقد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله تعالى وأمنه .

قال أبو سفيان آسفا :

ـ صدقت يا رسول الله .

قال العباس τ :

ـ يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب أن يحمد فى قومه، فاجعل له شيئا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

قال أبو سفيان :
ـ وما تسع دارى .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ومن دخل المسجد فهو آمن .
قال أبو سفيان :
ـ وما يسع المسجد .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ومن أغلق بابه عليه فهو آمن .
قال أبو سفيان فى ارتياح :
ـ هذه واسعة .
.. ولما أراد أبو سفيان العودة إلى مكة، حبسه العباس، فقال :
ـ اغدرا يا بنى هاشم ؟.
قال العباس τ :
ـ آنا لسنا بغدر، ولكن أريدك أن تنظر إلى جند الله، وما أعد الله للمشركين .
.. وفى الصباح، مرت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها، وقد أظهرت ما تحمل من سلاح، فأخذ أبو سفيان يسأل العباس كلما مر به قوم، والعباس يجيبه، فلما مر سعد بن عبادة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء، ورأى أبا سفيان، قال :
ـ اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا .
وحين اقترب رسول الله صلى الله عليه وسلم من موقف أبى سفيان، قال :
ـ يا رسول الله، أمرت بقتل قومك، ألم تعلم بما قال سعد بن عبادة ؟!.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ وما قال ؟.
قال أبو سفيان ما قاله سعد، ثم أردف :
ـ وإنى أنشدك الله فى قومك، فأنت أبر الناس، وأوصل الناس، وأرحم الناس .
قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :
ـ كذب سعد يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم يوم تكسى الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا .
وأخذ اللواء من سعد ودفعه إلى ابنه، بينما أسرع أبو سفيان يسبق الجميع حتى دخل مكة، واتجه إلى دار الندوة حيث تجمعت رجالات قريش، وصرخ بأعلى صوته :
ـ يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسلموا تسلموا، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .
فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه وصاحت فى الناس، قائلة :
ـ اقتلوا السمين الذى لا خير فيه، قبح من طليعة قوم .
فقال أبو سفيان :
ـ ويلكم، لا تغركم هذه من أنفسكم، فإن محمدا قد جاءكم بما لا قبل لكم به .
فانفض الناس من حوله، مسرعين كل إلى مهرب، ولكن إبليس نفث فى بعض الفتية من قريش ليهلكهم، فوسوس لهم :
ـ لا تدعوا محمدا يأخذ قريتكم غصبا، أو ليست هى بلدكم، ألستم السادة وورثة السادة، أتتركونها ليتيم، خرج من بينكم خوفا، وهو لا يملك شق تمرة، واليوم يأتى ليحكمكم ويضيعكم بين العرب، فلا تقوم لعزتكم بعدها قومة ؟!!.

.. وحاول سماع إبليس أن يقاتلوا جند الله، ولكن خالد بن الوليد سرعان ما كر عليهم، وهزمهم شر هزيمة، فقتل منهم من قتل، وفر الباقون إلى دورهم فغلقوا عليهم الأبواب، وهم فى هلع مما ينتظرهم من القتل، ولم يسمع عن مقاومة بعدها !!.

ـ ٣ ـ

حين أشرق رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبواب مكة، راكبا راحلته، تلقته الجن ترميه بالشرر، فقال له جبريل υ أن يتعوذ بهذه الكلمات الحافظات بأمر الله تعالى :

ـ " أعوذ بكلمات الله التامات، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما بث فى الأرض، وما يخرج منها، ومن شر الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير، يا رحمن ."

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وقد حنى هامته شكرا لله تعالى، وقال :

ـ هذا ما وعدنى ربى .

ثم قرأ من سورة الفتح بصوت مسموع ثلاثا :

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ صلى الله عليه وسلم ١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا صلى الله عليه وسلم ٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا صلى الله عليه وسلم ٣)

وسأله أسامة بن زيد :

ـ يا رسول الله، ألن تنزل فى دارك ؟.

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دار .

.. ورفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل بدور قريش، ونزل هو وزوجتاه : سلمة وأم ميمونة، فى قبة ضربت له بالحجون .

ورن إبليس رنة حزن عظيمة، سمعها كل أبنائه، فاجتمعوا إليه، فقال :

ـ أيئسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا، ولكن أفشوا فيها النواح والشعر .

.. استراح رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلا، ثم اغتسل وركب ناقته، واتجه إلى الكعبة،
يحيط به أصحابه ويفسحون له الطريق من الناس الذين اجتمعوا من كل صوب، وهم ينزاحون سريعا، خوفا من إغضاب المسلمين، وطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة سبعا، وكان يستلم الركن بعصا قصيرة كانت فى يده، وكان يشير بها إلى الأصنام التى أحاطت بالبيت، كلما مر بصنم منها فى طوافه، فتسقط الأصنام على أقفيتها، وهو يقول :

ـ جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا .

.. وأكمل المسلمون تحطيم ما بقى من الأصنام .

.. فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من طوافه، أرسل بلالا إلى عثمان بن طلحة يطلب منه مفتاح الكعبة، وكان عثمان قد أسلم قبل الفتح، فقال له :

ـ نعم، ولكن هو عند أمى سلافة .

فرجع بلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قال عثمان، بينما أرسل عثمان إلى أمه برسول يطلب منها المفتاح، فقالت، وقد علمت بإسلامه :

ـ لا، واللات والعزى، لا أدفعه إليك أبدا .

وقال عثمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ يا رسول الله، أرسلنى أخلصه لك منها .

فأرسله صلى الله عليه وسلم ، فقال عثمان لأمه :

ـ يا أمه، ادفعى إلي المفتاح، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أرسل إلى وطلب منى أن آتيه به .

فقالت :

ـ لا، واللات والعزى لا أدفعه إليك أبدا .

فقال عثمان :

ـ لا، لات، ولا عزى، إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه، وإنك إن لم تفعلى، قتلت أنا وأخى، فأنت قتلتنا، فو الله لتدفعنه أو ليأتى غيرى فيأخذه منك .

فأعطته المفتاح، وذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتناوله منه، وفتح به باب الكعبة، ودخلها، وأخذ يكبر، ويحمد الله، ثم صلى بها ركعتين، وقام يتأمل جدرانها، فوجد تمثالا لحمامة فحطمه، كما رأى صورا للملائكة، ولإبراهيم υ وبيده الأزلام يستقسم بها، فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم الأزلام، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما، وما كان من المشركين .

.. ثم طلب من أصحابه محو تلك الصور .

وحين أطل رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الكعبة، تعلقت به عيون القرشيين فى خوف، يترقبون ما سينزله بهم من عقاب، جزاء ما قدمت أيديهم من إساءات لرسول الله وصحبه، أما أولئك الذين قسوا واشتدوا على النبى صلى الله عليه وسلم أيام أن كان يقيم بينهم، فحاربوه وآذوه بالفعل والقول الظالم تطاولا علي دين الله، وعلى نبى الله صلى الله عليه وسلم بالكذب والبهتان والسوء، فقد هربوا لائذين بذرى الجبال، أو فروا خارجين من مكة، وقد قصد بعضهم القبائل التى ما تزال على غير الإسلام يحتمون بها، بينما رأى البعض الآخر ممن يخافون على أنفسهم العذاب، أن يطلب البحر خلاصا من حياته، خوفا من أن ينزل به المسلمون ما كان ينزله بهم من تعذيب .

وتدافع الناس من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فراح خالد بن الوليد يدفعهم عنه حتى نزل من باب الكعبة، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا، متأملا فضل الله تعالى عليه، وفى صدق وعد الله تعالى له، ولقد مرت هذه اللحظات على أهل مكة، وكأنها السنوات الطوال، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده .

.. ثم التفت إلى أهل مكة، وقال :

ـ يا معشر قريش، ماذا تقولون، ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟.

قال القرشيون فى نفس واحد :

ـ نقول خيرا، ونظن خيرا : نبى كريم، وأخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت .

فقال الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ فإنى أقول كما قال أخى يوسف لاخوته : " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرحمين "، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

.. وما إن انتهى الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم من كلامه، إذا بمكة ترتج بالتكبير، وإذا بالقرشيين يدخلون فى دين الله أفواجا، وانقلب الحال، فانكب الكارهون والمحاربون لدين الله تعالى، على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الصفا يعلنون إسلامهم، فجعل يقبل عليهم، فيضعون أيديهم فى يده، ويأخذ عليهم عهدا بالسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وعمر بن الخطاب τجالس أمامه، وحين انتهى، تحدث الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فقال :

ـ ألا كل ربا فى الجاهلية أو دم مأثرة أو مال يدعى، فهو تحت قدمى هاتين، ألا وفى قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد دية مغلظة مائة ناقة، منها أربعون
فى بطونها أولادها، ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها، كلكم لآدم وآدم من تراب :" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ."

يا أيها الناس، الناس رجلان : فبر تقى كريم، وكافر شقى هين على الله تعالى، ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ووضع هذين الأخشبين، فهى حرام بحرام الله، لم تحل لأحد كان قبلى، ولن تحل لأحد كائن بعدى، لم تحل لى إلا بساعة من نهار يقصرها بيده هكذا، ولا ينفر صيدها، ولا يعضد عضدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يختلى خلاها، إلا الأزخر فإنه حلال، ولا وصية لوارث، وإن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها، والمسلم أخو المسلم، والمسلمون اخوة، والمسلمون يد واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، وهم يرد عليهم أقصاهم، ويعقل عليهم أدناهم، ومشدهم على مضعفهم، ومثريهم على قاعدهم، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد فى عهد، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا جلب ولا جنب، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفنيتهم، ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، والبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، وأنهاكم عن صيام يومين : يوم الأضحى، ويوم الفطر، وعن لبستين : ألا يحتبى أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء، وألا يشتمل الصماء .

.. فقام رجل فقال :

ـ يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنى قد عاهرت فى الجاهلية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ من عاهر بامرأة لا يملكها، أو أمة قوم آخرين لا يملكها، ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له، ولا يرث، ولا يورث، ولا أخالكم إلا قد عرفتموها .

.. يا معشر المسلمين : كفوا السلاح، وأستغفر الله تعالى لى ولكم .

ـ ٤ ـ

وأقبلت النساء يعلن دخولهن فى دين الله تعالى، ونبذهن لعبادة ما دون الله تعالى
من صنم وطاغوت، ولم يصافحن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن يمس جلده جلد امرأة لم
يحلها الله تعالى له، وكانت بين النساء : هند بنت عتبة، امرأة أبى سفيان، وقد تنقبت متخفية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفا مما فعلته بعمه حمزة، فقال لهن :

ـ بايعننى على ألا تشركن بالله شيئا، ولا تسرقن ..

فقالت هند بصوت مسموع :

ـ والله إنى كنت أصبت من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدرى أكان ذلك حلالا أم حراما .

فقال لها أبو سفيان :

ـ أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل، عفا الله عنك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ولا تزنين .

قالت هند :

ـ يا رسول الله، أو تزنى الحرة ؟!!!.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ولا تقتلن أولادكن .
فقالت هند :
ـ قد ربيناهم صغارا، وقتلتهم كبارا، فأنت وهم أعلم .
فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك عمر ، واستطرد صلى الله عليه وسلم ، فقال :
ـ ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن .
فقالت هند :
ـ والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ولا تعصين .
قالت هند :
ـ .. فى معروف .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب :
ـ با يعهن واستغفر لهن الله، إن الله غفور رحيم .
قالت هند بنت عقبة :
ـ الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتمسنى رحمتك يا محمد، إنى امرأة مؤمنة بالله، مصدقة به ..
.. ثم كشفت عن وجهها، واستطردت :
ـ يا رسول الله، أنا هند بنت عتبة .
فقال النبى صلى الله عليه وسلم :
ـ مرحبا بك .
قالت هند :
ـ يا رسول الله، ما كان من أهل الأرض أريد أن يذلوا إلا ناسك، ثم ما أصبح اليوم على وجه الأرض ناس أحب إلى من أن يعزوا من أهلك .
وحين انتهت بيعة النساء، استجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم نساء الفارين من رجال قريش، وطلبن منه العفو عن أزواجهن، فعفا صلى الله عليه وسلم عنهم، فعادوا ودخلوا فى دين الله راغبين غير مجبرين .
.. ولما سمع النواح على الذين قتلوا من قريش، جاء سفيان بن حرب، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ فداك أبى وأمى، البقية فى قومك .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ لا يقتل قريشى صبرا بعد اليوم .
ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره .
.. وكسرت قريش أصنامها .

ـ ٥ ـ

لما رأى الحبيب صلى الله عليه وسلم ، حال الفاقة التى أصبح عليها فقراء المسلمين، ممن حضروا الفتح، لأنهم لم يغنموا من مكة شيئا، أرسل إلى صفوان بن أمية ليقترضه خمسين ألف درهم، وإلى عبد الله بن أبى ربيعة ليقرضه أربعين ألف درهم، وإلى حويطب بن عبد العزى ليقرضه أربعين ألف درهم ؛ فأقرضوه، فأخذ يوزعها بين أصحابه من أهل الضعف .

ولقد سرقت امرأة فى الفتح، فقال أهلها :
ـ من يكلم فيها رسول الله متشفعا ؟.
واتفقوا على أن يكلمه أسامة بن زيد، فلما تكلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلون وجهه، وقال :
ـ يا أسامة، أتشفع فى حد من حدود الله ؟!.
قال أسامة :
ـ يا رسول الله، استغفر لى .
فلما كان وقت العشاء، صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين، ثم خطبهم قائلا بعد أن اثنى على الله تعالى بما هو أهله :
ـ أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفسى بيده،لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا .
وتخوف الأنصار من أن يحن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله فيبقى بمكة، ولا يعود معهم إلى المدينة، فسألوه، فقال لهم صلى الله عليه وسلم :
ـ معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم .

ـ ٦ ـ

لما فتح الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم مكة، تنافرت قبيلتا هوزان وثقيف، وتنادوا للحرب، وقال أصحاب الرأى فيهما :
ـ قد فرغ لنا، فلا ناهية له دوننا، والرأى أن نغزوه، وإن محمدا لم يلق قوما أهل حرب، وإنه علينا أن نرده عن باقى العرب، ونحرر القرشيين من كيده.
وكان دريد بن الصمة هو صاحب الرأى فيهم، وقد بلغ من العمر مائة وستين عاما، وفقد بصره، لكنه عرف بينهم بالشجاعة والإقدام والدهاء ؛ فلما أجمعوا رأيهم على حرب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولوه رئاستهم، فقال لهم :
ـ وماذا وقد عمى بصرى وما استمسك على ظهر فرس، ولكن أحضر معكم على أن أشير عليكم على ألا أخالف، فإن كنتم تظنون أن أخالف أقمت ولم أخرج .
قالوا له :
ـ لا نخالفك فى أمر تراه .
فاتفقوا على أن يجعلوا كمينا لجيش المسلمين فى الجبل، حتى إذا ما كر المسلمون عليهم، نزل الكمين من الأجناب وفاجأهم، فيتشتت جيش المسلمين .
وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر هوزان، وما أجمعوا عليه، فجمع أصحابه، من أهل المدينة ومكة، فقالوا وقد أعجبتهم كثرتهم :
ـ الآن نقاتل حين اجتمعنا، لن نغلب من قلة .
.. فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعقب .
وأرسلت هوزان جواسيسها، فتفرقوا بين المسلمين، ولقد رأى أحدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما تحت شجرة وقد علق قوسه وسيفه فى غصن من أغصانها، فاقترب منه يريد أن يأخذه غيلة، ولما انتبه نبى الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل قائم بالسيف على عنقه يسأله فى غلظة وكبر، قائلا :
ـ يا محمد، من يمنعك اليوم منى ؟.

قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ الله تعالى .
فسقط السيف من يد الكافر، فحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشل حركته، ثم نادى أحد صحابته، وقص عليه ما حدث، فقال الصحابى :
ـ يا رسول الله، دعنى أضرب عنق عدو الله، فإنه من عيون المشركين .
فمنعه، وأطلق الرجل، وقال :
ـ إن الله تعالى، مانعى وحافظى، حتى يظهر دينه على الدين كله .
.. وعادت إلى هوزان عيونهم، وقد أصابهم الرعب، وقالوا :
ـ رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، والله ما أصابنا إلا ما تروننا عليه، والله ما نقاتل أهل الأرض، إن نقاتل إلا أهل السماء، وإن أطعتمونا رجعنا بقومنا .
.. ولكن إبليس وسوس لمن استمعوا إليهم بأنهم واهمون، وقال لهم انشروا جندكم على جانبى الوادى ومن تحته، واتركوا الإبل والغنم والنساء والصبيان فى الوادى، ليتوهم المسلمون أنهم الجند ؛ وأقبل جيش المسلمين مع خيوط الفجر منحدرا إلى وادى حنين، فما إن وطئوا أرض الوادى، حتى استقبلتهم جنود هوزان بالنبل من على الأجناب، وكان فى المقدمة ألفان من فتية قريش لا خبرة لهم بالحرب، ففروا سراعا، وانكشف جند المسلمين متراجعين، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتقهقر خطوة واحدة،وقال :
ـ اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان .
.. ثم تقدم مخترقا صفوف المشركين، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار، قائلا :
ـ يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة .
.. ونادى على المهاجرين، قائلا :
ـ يا أيها الذين بايعوا تحت الشجرة .
.. فإذا المهاجرين والأنصار يكرون ملبين، ويحيطون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إحاطة المشتاق الذى يبغى اللقاء والفداء، ورمى الحبيب صلى الله عليه وسلم بحفنة من الحصى فى وجوه أعداء الله، وقال :
ـ شاهت الوجوه، حم لا ينصرون .
.. فإذا بالدائرة تدور على الكفار فينقلبوا خاسرين، ما بين قتيل وأسير، وفرت القلة الناجية إلى الطائف ؛ ومكن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم منهم، وجعل له أموالهم، فأعطاها للمؤلفة قلوبهم من أشراف العرب، فمنهم من أعطى مائة بعير وأكثر، ومنهم من أعطاه خمسين .
ولما لاحظ الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعطهم شيئا من الغنم، قال قائلهم :
ـ يغفر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، إن هذا لهو العجب، يعطى قريشا، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؛ إذا كانت شديدة، فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة لغيرنا، وددنا أنا نعلم ممن كان هذا ؟.. فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا، وإن كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم استعتبناه .
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار فجمعهم، وقال :
ـ ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟.
قالوا :
ـ وما نقول يا رسول الله ؟.. وماذا نجيبك، المن لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :
ـ والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتكم : جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك، ومكذبا فصدقناك .
قالوا :
ـ المن لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .
قال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :
ـ وما حديث بلغنى عنكم ؟!.
قالوا :
ـ أما رؤساؤنا، فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا يغفر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : يعطى قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم ..
فقال الحبيب صلى الله عليه وسلم :
ـ إن قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم ؛ أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله تعالى لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟.. فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، أنتم الشعار، والناس دثار، الأنصار كرشى وعيبتى، ولولا أنها الهجرة لكنت امرأ من الأنصار : اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار .
فبكى الأنصار حتى ابتلت لحاهم بالدمع، وقالوا :
ـ رضينا بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حظا وقسما .
وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب لهم خراج البحرين من بعده، فقال الأنصار :
ـ لا حاجة لنا بالدنيا بعدك .
فقال الحبيب صلى الله عليه وسلم :
ـ إنكم ستجدون بعدى أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض .
.. وأرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم بمن رد القرض إلى الثلاثة الذين أقرضوه حين فتح مكة، قائلا لكل فرد منهم :
ـ بارك الله لك فى مالك وولدك .
ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن حوله معلما :
ـ إنما جزاء السلف، الحمد والأداء .

ـ ٧ ـ

.. زحف جند الله إلى الطائف، يقودهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار كبيرهم عبد يا ليل على أهلها أن يلجوا إلى الحصون، فتزودوا بقوت كثير يكفيهم لعام، وحين حاصرهم المسلمون أعلنوا أنهم لن يفتحوا حصونهم، ولن يدخلوا فى دين الله، وتراشقوا بالنبل والحجارة، ثم انصرف المسلمون عائدين، بعد أن سأل رسول الله ربه أن يكفيه حربهم، وأن يقدموا عليه مسلمين، وهذا ما كان، وبدأ بلجوء من فر من سادة هوزان وثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنين إسلامهم، فردت إليهم نساؤهم وعيالهم .
وأثناء العودة إلى المدينة لحق عروة بن مسعود الثقفى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن إسلامه، ثم طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن له بالعودة إلى قومه

بالطائف ليدعوهم للدخول فى دين الله ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم رفض مرارا،فلما ألح عروة قال له النبى صلى الله عليه وسلم :

ـ إنهم قاتلوك .

قال عروة :

ـ كيف يا رسول الله، لأنا أحب إليهم من أبكار أولادهم ؟!..

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ إن شئت فاخرج .

وعاد عروة إلى الطائف، وهو مستبشر بدخول قومه فى دين الله .

وعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنطقة الجعرانة، ثلاث عشرة ليلة، نوى خلالها بعمرة، ونزل إلى مكة فطاف على رجليه وسعى على راحلته، ثم رجع إلى عسكره فى ليلته، وولى عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن واحد وعشرين سنة، ومعه معاذ ابن جبل وأبو موسى الأشعرى، يعلمان الناس القرآن والشريعة .

.. وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فلما أهل عليها قال :

ـ هذه طابه .

وماتت زينب ابنة الحبيب محمد رضى الله عنها، فلقد ظلت عليلة الصحة منذ عادت من مكة مجهضة نتيجة ما فعله بها خسيسان من مشركى قريش، فأوقعاها من فوق راحلتها، وحزن الحبيب صلى الله عليه وسلم لفراقها حزنا شديدا، وكذا لم يبق له من الأبناء غير فاطمة الزهراء رضى الله عنها، ولكن الله تعالى أراد أن يسرى عنه، ففى شهر ذى الحجة من سنة ثمان للهجرة، رزقه الله تعالى بابنه إبراهيم من مارية القبطية، فسر بمولده سرورا عظيما .

.. ولكن ما هى إلا شهور، ومرض إبراهيم مرضا خيف على حياته منه، فقامت أمه مارية، وأختها سيرين على تطبيبه، وأرسل إلى الحبيب ليحضر لحظاته الأخيرة، فذهب متحاملا على عبد الرحمن بن عوف، ونفسه تقطر ألما، وحين وجد فلذة كبده يرسل زفراته غير منتظمة، وضعه فى حجره، وفاض حنانه ودمعه، وقال فى أسى:

ـ إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا .

فلما، حتى أتاه ملك الموت، ورفع روحه الطاهرة إلى بارئها، وسكتت أنفاسه، وسكن جسده، قال صلى الله عليه وسلم :

ـ يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك أشد من هذا.

وعلى قبره، قال الصابر الرحيم صلى الله عليه وسلم :

ـ تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون

.. فلما أشفق عليه أصحابه لشدة حزنه، ذكروه بنهيه عن إظهار الحزن، قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ ما عن الحزن نهيت، وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة، ومن لم يبد الرحمة، لم يبد غيره عليه الرحمة .

ـ ٨ ـ

السنة : التاسعة من الهجرة ..

سميت هذه السنة بسنة الوفود لكثرة ما وفد على المدينة من وفود العرب، قادمة من كل حدب، قاصدة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدخول فى دين الله، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجمع الزكاة من الذين آمنوا من العرب، فدفعوها راضين، إلا ما كان

من بنى تميم، وكانوا على غير الإسلام، فلم يدفعوا الجزية، فلقد استكثروا الصدقات التى جمعت، فشهروا سيوفهم ومنعوها، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث، فبعث عيين بن حصن الفزارى فى خمسين فارسا لحرب بنى تميم، فوجد بنو خزاعة قد طردوهم من ديارهم، فسار فى أثرهم، فلما رأوه هربوا بعد أن أخذ منهم أحد عشر رجلا وأحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا، فجاء بهم أسرى إلى المدينة .

وقدم وفد من كبار بنى تميم، ودخلوا المسجد قبل الظهر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزل عائشة، فنادوه من وراء الحجرات طالبين خروجه إليهم، فخرج إليهم وجلس فيهم وقد آذاه صياحهم .

وتحدث خطيبهم فقال :

ـ الحمد لله الذى له الفضل علينا، والذى جعلنا ملوكا، وأعطانا الأموال نفعل فيها المعروف، وجعلنا أهل المشرق وأكثرهم مالا، وأكثرهم عددا، فمن مثلنا فى الناس، ألسنا برءوس الناس ؟.. وذوى فضلهم ؛ فمن يفاخر فليعدد مثلما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحى من الإكثار فيما أعطانا الله، أقول قولى هذا، لأن نؤتى بقول هو أفضل من قولنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس أن يقوم ليرد عليهم، فقام، وقال :

ـ الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كل شىء علمه، فلم يكن شىء إلا من فضله، ثم كان ما قدر أن جعلنا ملوكا، ولكن اصطفى لنا من خلقه رسولا، أكرمهم نسبا، وأحسنهم زيا، وأصدقهم حديثا، نزل عليه كتابه، وأتمنه على خلقه، وكان خيرته من عباده، فدعا إلى الإيمان، فآمن به المهاجرون من قومه، وذوى رحمه، أصبح الناس وجها، وأفضل الناس فعالا، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله، فنحن أنصار الله ورسوله، نقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه فى ذلك، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، وللمؤمنين والمؤمنات .

واختلى وفد تميم فتشاوروا، ثم خرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنين إسلامهم، وأطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سباياهم من الرجال والنساء، ورد عليهم صبيانهم .

وفى شهر رجب من هذه السنة مات النجاشى، وأخبر نبى الله صلى الله عليه وسلم بموته من السماء، فصلى عليه صلاة الغائب .

وفى ذات الشهر، جاءت بعض الوفود بخبر خروج الروم واحتشادهم لحرب المسلمين، وحض رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين على النفقة فى سبيل الله تجهزا للقتال، فكان أول من حمل صدقته أبو بكر الصديق ، فسأله الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ هل أبقيت شيئا لأهلك ؟.

فأجاب الصديق، قائلا :

ـ أبقيت لهم الله ورسوله .

ولقد حاول المنافقون، وكانوا يجتمعون فى بيت ليهودى، أن يثبطوا من همم المسلمين، فقالوا لا تنفروا فى الحر، فلما لم يستجيبوا لقولهم، قالوا : إن موسم حصاد ما زرعتم قد حان، أفتتركون زرعكم من أجل حرب ستنقلب عليكم وبالا ؟!.

وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكرهم، أرسل بمن يحرق دار النفاق، فخاف أهل النفاق وكفا الله المؤمنين أذاهم.

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين ألفا، فيهم عشرة آلاف فرس،واثنا عشر ألف بعير؛ وفى الطريق تخلف أناس من المنافقين واليهود، وعجز جمل أبى ذر الغفارى عن

حمله، فتركه وحمل متاعه على ظهره، وسـار حتـى لحق برسـول الله، وقد أصـابه الإجهـاد والعطش، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- مرحبا بأبى ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده .

.. وحين وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، خطب فـى المـسلمين، فقـال بعـد أن حمد الله تعالى بما هو أهل له :

- أيها الناس، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخيـر الملـل ملة إبراهيم، وخير السنن سنن محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتـل قتـل الشهداء، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمـال مـا نفـع، وخيـر الهـدى مـا أتبـع، وشـر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير ممـا كثـر وألهـى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يـأتى الجمعـة إلا نذرا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا، ومن أعظم الخطايا اللسان الكـذوب، وخيـر الغنـى غنـى النفس، وخير الزاد التقـوى، ورأس الحكمـة مخافـة الله، وخيـر مـا ألقـى فـى القلـب : اليقـين، والارتياب من الكفر، والنحاحة من عمل الجاهلية، والغلـول مـن جمـر جهـنم، والـشكر كـن مـن النار، والشعر مـن إبليس، والخمـر جمـاع الإثـم، والنـساء حبالـة إبلـيس، والـشباب شـعبة مـن الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المـال أكـل مـال اليتـيم، والـسعيد مـن وعـظ بغيـره، والشقى من شقى فى بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربـع أذرع والأمـر إلـى آخـرة، وملاك العمل خواتمه، وشر الرؤيا رؤيا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فـسوق، وقتل المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمـه، ومـن يتـأل علـى الله يكذبه، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغـيظ يـؤجره الله، ومـن يـصبر يـضاعف الله لـه، ومن يعص الله يعذبه ؛ اللهم اغفر لى ولأمتى، اللهم اغفر لى ولأمتى، أستغفر الله لى ولكم .

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طاف على ناقته بالناس، وهو يقول : " يـا أيهـا الناس، يـد الله فـوق يـد المعطـى، ويـد المعطـى الوسـطى، ويـد المعطـى الـسفلى، أيهـا النـاس، استغنوا عن سؤال الناس ولو بحزم حطب، اللهم قد بلغت، اللهم قد بلغت، اللهم قد بلغت .

ومات بتبوك عبد الله بن عبد نهم المزنى، وهو شاب أسلم تاركـا كـل خيـر عمـه، وفـضل أن يأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما، علـى أن يبقـى فـى نعـيم الـدنيا، فجـاء وهـو ملتف فى قطعتى قماش، بعد أن جرده عمه من ثوبه، وقد نـزل الحبيـب صـلى الله عليـه وسـلم قبره، ووسده بيديه الشريفتين، ودعا له قائلا :

- اللهم، إنى أمسيت عنه راضيا، فارض عنه .

ويقول عبد الله بن مسعود فى ذلك :

- يا ليتنى كنت صاحب هذا اللحد .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعيون يتحسسون جموع الروم، فعادوا قائلين أنهم لـم يجدوا أثرا لجمعهم، وتبين أن ما قيل لم يكن صدقا، فتشاور رسول الله مع أصحابه، فسألوه :

- إن كنت أمرت بالسير فسر .

فقال صلى الله عليه وسلم :

- لو أمرت به ما استشرتكم فيه .

.. استقر العزم على العودة، وخلال ذلك أمر رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم خالـد بـن الوليد أن يأتيه بأكيدر ملك كنده، فسأله خالد عاجبا : كيف يأتى به وهو بين أهله، وليس مع خالد غير أربعين فارسا، فـأخبره نبـى الله صـلى الله عليـه وسـلم بأنـه سـيجده يـصيد البقـر، فليأخذه ولا يقتله، وليأت به

وحين وصل ابن الوليد، كان القمر مكتملا ، وجاءت البقر تتمسح بحصن أكيدر فخرج إليها على فرسه وبيده رمحه، وظهر خالد ومن معه من مكمنهم، وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحقن دمه وصالحه على الجزية وأعطاه عهد الأمان، بعد
أن رفض الدخول فى الإسلام، فلما سمعت أهل آيل وتيماء وما حولها بما حدث، جاءت وفودهم، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وأعطاهم عهد الأمان .
.. وفى طريق العودة، شكا الناس شدة الجوع بعد أن نفد زادهم، وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم فى ذبح عيرهم، فأذن لهم، فلما رأى عمر بن الخطاب ما يفعله الناس، ذهب إلى رسول الله محذرا من أن يفاجئهم العدو وهم مجهدون من السير، وقال له :
ـ يا رسول الله، اطلب منهم أن يأتوك بما تبقى لديهم من زاد، وأدع الله تعالى
فيه بالبركة، فإن الله يستجيب لك .
وبارك الله فيما تبقى من طعام المسلمين، فكفاهم حتى وصلوا إلى المدينة، ولم يذبحوا ركائبهم .

ـ ٩ ـ

.. وما إن أهل شهر رمضان حتى أقبل وفد من الطائف يتقدمهم عبد يا عين، ولم
يكن بينهم عروة الثقفى، فلقد تحققت فيه نبوءة نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد رماه قومه بالنبل حين سمعوه يؤذن للصلاة، فأصابوا كاحله فظل ينزف حتى مات، وسأله قومه قبل أن يموت، ليحدد لهم ممن يؤخذ ثأره :
ـ ما ترى فى دمك ؟ .
قال عروة τ :
ـ هو كرامة أكرمنى بها الله، وشهادة ساقها الله إلى، فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى معهم .
فدفنوا عروة مع من أستشهد بالطائف، فلما بلغ الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
ـ " مثل عروة، مثل صاحب يس : دعا قومه إلى الله تعالى فقتلوه ."
وقال الناس حين رأوا وفد ثقيف يدخل المسجد :
ـ يا رسول الله، أيدخلون المسجد وهم مشركون .
فقال صلى الله عليه وسلم :
ـ إن الأرض لا ينجسها شىء .
وأمر أن تضرب لهم ثلاث خيام بناحية من المسجد، فكانوا يستمعون إلى ما يتلى
من القرآن فى الصلوات، وإلى خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظلوا على هذا الحال أياما، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام، وهم مترددون، بينما شرح الله قلب عثمان بن أبى العاص، وهو أصغرهم سنا، فكانوا إذا أخلدوا إلى النوم، ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فى أمور الدين، حتى فقه وأعلن إسلامه، وحين أراد الوفد العودة، سأل
عبد يا ليل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلا :
ـ ألن تصالحنا حتى نرجع إلى قومنا ؟.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ إن أنتم أقررتم بالإسلام، قاضيتكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بينى وبينكم .
فقال عبد يا ليل :
ـ إن أقررنا، أرأيت أن تبح لنا الزنا، فإنا قوم عزاب ولا يصبر أحدنا على العزبة، ولابد لنا منه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ هو مما حرم الله .
قال عبد يا ليل :
ـ أرأيت أن تترك لنا الربا ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ الربا حرام .
قال عبد يا ليل :
ـ فإن أموالنا كلها ربا .
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ لكم رءوس أموالكم .
قال عبد يا ليل :
ـ أرأيت الخمر، فإنها عصير أعنابنا، ولابد لنا منها ؟.
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ فإن الله حرمها .
قال عبد يا ليل :
ـ أفرأيت أن تدع لنا معبودتنا الطاغية، فلا تهدمه ثلاث سنين ؟.

.. فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذوا ينقصون المدة سنة فسنة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرفض، حتى وصلوا إلى شهر حتى لا يروعوا قومهم بهدمه منذ اللحظة الأولى من دخولهم فى الإسلام، فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحدد مدة تترك فيها معبودتهم، فسألوه ألا تكسر أصنامهم بأيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ هذه نعفيكم منها .

وأسلم الوفد، وصاموا ما باقى من أيام رمضان، وشاركوا المسلمين فى صلاتهم، وكتب رسول الله لهم كتاب أمان، وأمر عليهم أسبقهم إلى الإسلام وأصغرهم سنا، وأوصاه قائلا :

ـ يا عثمان، تجاوز فى الصلاة، وأقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير، والضعيف وذا الحاجة، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا .

.. ودخل أهل الطائف فى دين الله أفواجا، وحسن إسلامهم .

ـ ١٠ ـ

وفى شهر ذى القعدة مات رأس الكفر عبد الله بن أبى بن سلول، بعد أن اشتد عليه المرض عشرين يوما، ولقد عاده فى مرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين مات وضع فى موضع الجنائز، وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه، فاعترض عمر τ ، قائلا :

ـ يا رسول الله، أتصلى على عدو الله، القائل كذا يوم كذا، والقائل كذا ...

وأخذ عمر بن الخطاب يعدد ما قال، فقال له الحبيب صلى الله عليه وسلم :

ـ يا عمر، أخر عنى، فإنى خيرت، فاخترت، قد قيل لى :" استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ."، فلو أعلم أنى زدت على سبعين غفر له لزدت .

وصلى عليه، وحضر دفنه، وعزى ابنه عبد الله τ وانصرف، ونزل قول الله تعالى من سورة التوبة : وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ صلى الله عليه وسلم ٨٤)

.. ومنذ نزلت هذه الآية، لم يصل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحد مات من المنافقين .

وحين أذن فى الناس بالحج كره رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج بالناس، لأنه كان قد عاهد بعض الكافرين على أن يسمح لهم بالحج مع المسلمين فى عامهم هذا، ولقد كان كثير منهم يطوفون بالبيت وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ظانين أنهم بفعلهم هذا إنما يزدادون تقربا للبيت ويزيدونه بذلك تعظيما !! .

.. اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر τ، وأمره على الحجيج، وأوصاه النبى صلى الله عليه وسلم بمخالفة الكفار، وعلمه المناسك، فخرج فى ثلاثمائة رجل، وهو مفرد بالحج، وقد صحب معه الهدى، وبعد خروجه من المدينة، نزلت سورة التوبة على نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل عليا τ ليلحق بأبى بكر ويصحبه فى الحج، وليقرأ السورة على الناس بعد تمام الحج .

ولما وصل أبو بكر مكة، خطب فى الناس بعد صلاة الظهر قبل يوم التروية بيـوم، وحين زاغت الشمس من يوم التروية طاف بالبيت سبعا، ثم ركب راحلته واتجه إلى منى وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبات فيها، ثم صلى الصبح، ومع مشرق الشمس سار إلى نمرة فقيل فيها، ومع غروب الشمس سار إلى عرفات، فخطب فى الناس، وصلى الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين، ثم ركب راحلته ووقف بالناس على هضاب عرفات ودعا الله بما فتح عليه به الله، ومع الغروب سار إلى جمع، ولما بزغ الفجر صلى الصبح، ورمى بعد ذلك الجمرة بسبع حصيات وهو راكب راحلته، ورجع إلى المنحر، فنحر الهدى ثم حلق ومعه الناس، وهنا قرأ على بن أبى طالب τ سورة التوبة كما أمره الحبيب صلى الله عليه وسلم :

بَرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ صلى الله عليه وسلم ١) فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ صلى الله عليه وسلم ٢) وَأَذَانٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ صلى الله عليه وسلم ٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ صلى الله عليه وسلم ٤) فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ صلى الله عليه وسلم ٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ صلى الله عليه وسلم ٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ صلى الله عليه وسلم ٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ صلى الله عليه وسلم ٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ صلى الله عليه وسلم ٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ صلى الله عليه وسلم ١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ صلى الله عليه وسلم ١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ صلى الله عليه وسلم ١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وسلم ١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ صلى الله عليه وسلم ١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ صلى الله عليه وسلم ١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ صلى الله عليه وسلم ١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ

اللّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ صلى الله عليه وسلم ١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ صلى الله عليه وسلم ١٨)

وقال على τ، موضحا للناس :

ـ لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد خاص فهو له إلى مدته إلا من نقض، إعمالا لما أمر الله .

وبعد صلاة الظهر خطب أبو بكر فى الناس وهو على راحلته، وذهب إلى منى يرمى الجمار ماشيا، فلما رمى يوم الصدر، ركب وعاد إلى مكة فصلى المغرب والعشاء، وخرج من ليلته عائدا بالحجيج إلى المدينة .

.. فكانت الحجة الأولى للناس فى ظل الإسلام .

الفصل الثامن عشر :

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ سورة المائدة

ـ ١ ـ

السنة : العاشرة من الهجرة .

.. وكأنما كان نزول سورة التوبة، هو الفيصل عند من بقوا على شركهم أو كفرهم، وبين حيرتهم وترددهم بين : الرغب فى والرغب عن دين الله الخاتم، فلقد تزايد وصول وفود العرب والروم والفرس، ما بين راغب فى الدخول فى دين الله، وراغب فى دفع الجزية إقرارا بقوة وجود أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كما بقى البعض فى أرض اليمن من اليهود لا يبدون رأيا، ومنهم بنو الحارث ابن كعب، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، فى أربعمائة مقاتل، وطلب منه أن يمكث بينهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، ولا يحاربهم، فلما وصل إليهم جند الله، أرسل خالد بالمسلمين فى كل ناحية، يدعون الناس إلى دين الله، قائلين :

ـ يا أيها الناس، أسلموا تسلموا .

فأقبلوا عليهم مسلمين، فأخذ خالد يعلمهم كتاب الله، وسنة نبيه، ثم كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

" بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد بن الوليد : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، يا رسول الله صلى الله عليك، بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب، وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام ؛ فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم .

وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركبانا، قالوا : يا بنى الحارس، أسلموا تسلموا .

.. فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب إلى رسول الله، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ."

فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

" بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبى رسول الله، إلى خالد بن الوليد، سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فإن كتابك جاءنى مع رسلك بخبر أن بنى الحارث، قد أسلموا قبل أن يقاتلوا، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه ؛ فبشرهم وأنذرهم، وأقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ."

ـ ٢ ـ

اعتاد جبريل υ منذ فرض الصيام، أن يدارس رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن أثناء اعتكافه فى العشر الأواخر من الشهر، ولكنه عجل فى قدومه، فاعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين، مرة فى العشر الأواسط، ومرة فى العشر الأواخر .

وحين انتهت أيام الاعتكاف، خرج نبى الله صلى الله عليه وسلم إلى صحابته، فأكثر من الجلوس إليهم، يفقههم فى أمور دينهم، ويفيض عليهم مما علمه الله، ويوصيهم بالتمسك بشرع

الله، ويبشر الصابرين منهم بجنات النعيم، ويحذرهم من مغريات الدنيا فكل ما فيها إلى زوال، وأما ما عند الله فى الآخرة فهو خير وأبقى .
ولم يكن ما يقوله الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم بغريب عليهم، فهو إمامهم، وهو لهم القدوة فى القول والعمل .
.. فلما كان شهر شوال، أرسل على بن أبى طالب صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فيما يزيد على الثلاثمائة من جند الله، ليدعو القبائل التى لم تدخل الإسلام بعد، وأوصاه ألا يقاتلهم، وأن يبدأ بدعوتهم إلى قول : لا إله إلا الله، فإن قالوا : نعم، فأدعهم إلى إخراج صدقة أموالهم ليردوها على فقرائهم، ثم قال صلى الله عليه وسلم لعلى :
ـ والله لأن يهدى الله على يديك رجلا واحدا، خير مما طلعت به الشمس، أو غربت .
ودخلت أقوام كثيرة فى الإسلام مختارين، وقاتلت " على " قلة منهم، فنصره الله عليهم، وغنم منهم غنما عظيما، قسمه بين الجند، وأبقى الخمس لله، ورفض أن يتصرف فى شىء منه، حتى يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه فيه، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ـ ٣ ـ

ولما آن موعد الحج، أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عزمه على الخروج إلى مكة أداء لفرض من فروض الله، ولركن الإسلام الخاتم ، وسمع من حول المدينة بعزم الحبيب صلى الله عليه وسلم على الحج، فتقافز الشوق لبيت الله يهز القلوب هزا، وتوافد الناس أفواجا، وقد زاد من شوقهم رغبتهم رفقة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم لأطول مدة، ليسعدوا
بنوره، ويأتموا به، ويشربوا من حوضه، ويقتدوا بهداه .
وتزينت المدينة وازدادت نورا، والمسلمون يفدون عليها من كل حدب بالآلاف، يسوقون الهدى، ويلبون، ويكبرون، ويحمدون الله على ما هداهم، وعلى ما رزقهم، وجميعهم قاصدون إلى حيث الإمام والقائد والحبيب محمد صلى الله عليه وسلم .
تحرك الموكب المهيب، خارجا من المدينة، قاصدا بيت الله الحرام، وكلما مر بمكان، انضم إليه أهله، حتى وصل عدد الحجيج على مشارف مكة، لما يزيد على المائة وأربعة عشر ألفا، وتجسد فيهم التصوير الربانى فى سورة الحج، كل التجسد :
وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ صلى الله عليه وسلم ٢٧)
.. فالناظر من فوق جبل، يرى أمامه رجالا من كل القبائل، قد ضمرت أبدانهم جهادا فى سبيل الله، فبدوا عماليق تتطاول جباههم لتلامس ذرى الجبال الشامخات،
يسعون فى إصرار وعزم، يرددون تلبية نبيهم صلى الله عليه وسلم فى عقيدة، مستجيبين لدعوة
الداعى العظيم :
ـ لبيك اللهم لبيك .
ـ لبيك لا شريك لك لبيك .
ـ إن الحمد والنعمة لك والملك .
ـ لا شريك لك .
.. وترتج الجبال رجا من صدق الترديد وقوته، بينما تتصاعد سحابات الغبار إلى عنان السماء تحمل التلبية، وتعبر عن مكابدة المخلصين سعيا لإرضاء الله، فتضيف على الموكب مهابة ورهبة، تزلزل قلوب اللائذين بوساوس الشياطين ..

فهؤلاء والله هم أهل الحق .
.. ولما وصل رد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى، وفيه أعلمه بخروجه للحج، وطلب منه أن يلحق به، فولى " على " إمارة الجيش لأبى رافع، وأسرع ليلحق بالحبيب فى مكة .

ـ ٤ ـ

.. وصلت جموع الحجيج إلى مشارف مكة، تسبقها أصوات التكبير والتهليل، وكان من انتوى الحج ومن لم ينتو من أهلها، قد خرجوا من مساكنهم ينتظرون حجاج بيت الله، أملين فى رؤية نور الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقاء الأقارب من المهاجرين .
.. ولما أهلت طلعة البيت الحرام، رفع الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء،ودعا ربه، قائلا :
ـ اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبرا .
.. ثم نزل الحبيب صلى الله عليه وسلم عن راحلته، وتوضأ من ماء زمزم، وتوجه إلى الكعبة فكبر ثلاثا واستلم الحجر الأسود، وابتدأ طواف القدوم : أسرع فى ثلاث طوافات، ومشى فى الأربع المتبقية، ولما انتهى من طوافه، اتجه إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين بقراءة سورتى : الفاتحة والكافرون فى الركعة الأولى، وقرأ فى الركعة الثانية سورتى : الفاتحة والإخلاص ؛ وحين انتهى من صلاته، قرأ من سورة البقرة قول الله تعالى :
وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ صلى الله عليه وسلم ١٢٥)
.. وأستلم الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود، ثم اتجه إلى زمزم فشرب من مائها، وحث الخطى إلى الصفا، فلما استوى فوقه، قرأ من سورة البقرة قول الله تعالى :
إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ صلى الله عليه وسلم ١٥٨)
ثم قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :
ـ نبدأ بما بدأ الله تعالى به .
ثم اتجه ببدنه ناظرا إلى البيت، وكبر، وقال :
ـ لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله، وحده، أنجز وعده، وصدق وعده، وهزم الأحزاب وحده .
ودعا الله تعالى بما شاء، ثم نزل، ورمل ومشى، حتى إذا رقى المروة نظر إلى البيت، وقال مثلما قال وهو على الصفا، ودعا ربه، ونزل فرمل ومشى ؛ فلما أتمها سبعة أشواط، قال :
ـ يا أيها الناس، لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لم أسق الهدى، ولجعلتها عمرة، فمن لم يكن معه هدى فليحل، وليجعلها عمرة .
فقال سراقة بن مالك :
ـ ألعامنا هذا يا رسول الله ؟.
فقال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :
ـ للأبد، للأبد، دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة .
فحل الناس إحرامهم، وحلقوا وقصروا، وخلعوا ملابس الإحرام ولبسوا المخيط، إلا الحبيب صلى الله عليه وسلم لأنه صحب معه هديه .
مكث صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثة أيام هى : الثلاثاء والأربعاء والخميس، وكان يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين، وقد رفض أن ينزل بدار من دورها، ونزل فى خيمة ضربت له بجوار المسجد .

وقد وصل على بن أبى طالب عائدا من اليمن، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ثم لحق به أصحابه، فخرج يستقبلهم ليدخل بهم على الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فوجد أكثرهم قد لبسوا من الخمس الذى جعل لله، فغضب " على " غضبا شديدا، وطلب منهم أن يخلعوا ما لبسوا نهبا، فشكوه إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فسكت ولم يعقب .
فلما كان يوم الخميس، قال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم للناس :
ـ من استطاع أن يصلى الظهر بمنى، فليفعل .
.. وركب الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى منى .

ـ ٥ ـ

اليـوم : الجمعة، يوم التروية، الموافق الثامن من الشهر .
الشهر : ذى الحجة .
السنة : العاشرة من الهجرة .
أحرم من تحللوا بعمرة، وأهلوا للحج، وركب الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وخرج بالحجيج إلى منى، وهناك صلى بها الجمعة، وخطب فى الناس، فبين لهم مناسك الحج .
.. وقد صلى الحبيب صلى الله عليه وسلم بمنى صلوات : العصر والمغرب والعشاء والصبح، ومكث حتى طلعت الشمس، ثم سار إلى عرفة، فنزل بخيمة ضربت له بنمرة .
.. ولما أذن للصلاة، صلى الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الظهر، ثم أقام فصلى صلاة العصر، ولم يصل بينهما شيئا، حتى إذا زاغت الشمس أمر بناقته،
وركبها إلى وادى عرفة، وقد تحلق حوله الحجاج، ما بين ماش وراكب، فلما وصل بطن الوادى، حمد الله وأثنى عليه وخطب فى الناس، فنهاهم عن الصوم فى يومهم هذا، وقال :
ـ إن دعائى ودعاء من كان قبلى من الأنبياء : لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير .
ثم ركب ناقته واتجه إلى الموقف بعرفة، فاستقبل القبلة وأخذ يدعو الله تعالى، بما فتح عليه به : فقرأ آية :
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ صلى الله عليه وسلم ١٨) سورة آل عمران
.. ثم أعقبها بقوله :
ـ وأنا على ذلك من الشاهدين .. يا رب .
.. وكان من دعاء الحبيب صلى الله عليه وسلم فى هذا الموقف العظيم :
ـ اللهم اجعل فى بصرى نورا، وفى سمعى نورا، وفى قلبى نورا، اللهم اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وشر فتنة القبر، وشر ما يلج فى الليل، وشر ما يلج فى النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق الدهر .
اللهم إنك تسمع كلامى، وترى مكانى، وتعلم سرى وعلانيتى، ولا يخفى عليك شىء من أمرى، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الذليل، أدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا، وكن ربى رءوفا رحيما، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين .
ولقد دعا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم لأمته بالرحمة والمغفرة، فأكثر الدعاء، فأوحى له الله
: أنى قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضا، وأما ذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها .

.. وتنزل على نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى هذا الموقف، قول الله تعالى فى الآية الثالثة من سورة المائدة :

.. الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

.. حتى إذا ما غربت الشمس حرك الحبيب صلى الله عليه وسلم ناقته، وهو يقول للناس :

ـ أيها الناس، السكينة .. السكينة .

ولما وصل المزدلفة صلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد، وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئا، وجمع حصوات العقبة، ولما قرأ ما تنزل عليه، بكى عمر بن الخطاب، فسأله الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :

ـ ما يبكيك ؟.

قال عمر τ :

ـ أبكانى يا رسول الله، أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص .

قال نبى الله صلى الله عليه وسلم :

ـ صدقت .

وتوافد عليه أصحابه، فلما خرجوا من عنده، اضطجع حتى طلع نور الفجر، فصلى بهم الفجر بأذان وإقامة، ومكث حتى تبين له الصبح، فركب ناقته حتى أتى
المشعر الحرام، فاستقبل القبلة : ودعا لله تعالى، وحمده، وكبره، وهلله، ووحده.

.. وقبل أن تطلع الشمس، سلك إلى الجمرة الكبرى فرماها بسبع حصايات، مكبرا مع رمى كل حصاة، ثم انصرف إلى أرض النحر، وقال صلى الله عليه وسلم : كل أرض مكة منحر، فذبح الأضاحى، وساعده على ، ثم طلب تقسيمها وتوزيعها، وأخذ قطعة لحم فطبخت، وأكل من لحمها وشرب من مرقها، وتلا قول الله تعالى
من الآية الثامنة والعشرين من سورة الحج :

..وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ صلى الله عليه وسلم ٢٨)

.. ودعى الحلاق، فحلق له شعره، وركب إلى البيت فطاف طواف الإفاضة، وصلى بالناس صلاة العيد، وخطب فيهم، فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهل له :

ـ أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه، فإنى والله لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا، رحم الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ؛ أيها الناس، أى شهر هذا ؟.

فسكت أغلب الناس، وقال بعضهم :

ـ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أعلم .

وسكت الحبيب صلى الله عليه وسلم قليلا، ثم قال :

ـ هذا شهر حرام، وأى يوم هذا ؟.

فسكت الناس، فقال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :

ـ هذا يوم حرام، وأى بلد هذا ؟.

فسكتوا، فقال :

ـ هذا بلد حرام .

.. ثم أستطرد الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فقال :

ـ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت ؟.

قال الناس :

ـ اللهم نعم .
قال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :
ـ اللهم فاشهد .
.. ثم قال :
ـ إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، وإن ربا عمى العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيع بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .
أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم .
أيها الناس، إن النسىء زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب الذى بين جمادى
وشعبان .
أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، وألا يعصين فى معروف، فإن عصين، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وانكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت .
وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا : كتاب الله، وسنة نبيه .
اسمعوا قولى واعقلوه، إن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين جميعا اخوة،
فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم قد بلغت .
قال المسلمون :
ـ اللهم نعم .
فقال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :
ـ اللهم فاشهد .

ـ ٦ ـ

.. عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منى، فأقام بها أيامها، يرمى الجمرات، ثم نزل إلى مكة، فطاف طواف الوداع، وأخذ طريقه راجعا مع الحجيج إلى المدينة .
وفى الطريق تحدث إلى الناس بما يبين لهم قدر أهله عنده، قاصدا محو ما علق
فى أذهان بعض من صحبوا عليا فى رحلته إلى اليمن، من مظنة أنه يقسو فى معاملته لهم، فقال :
ـ أيها الناس لا تشكو عليا، فوالله إنه لأخشن فى سبيل الله من أن يشكى .
ثم أخذ بيد على وقال :
ـ من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه .
.. وفى المدينة، وقف الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم على المنبر، وخطب فى الناس قائلا :

ـ أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤنى قط، فاعرفوا ذلك له، إنى عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين راض، فاعرفوا ذلك لهم .
أيها الناس، احفظونى فى أصحابى وأصهارى وأحبابى، لا يطلبكم الله بمظلمة أحد منهم .
أيها الناس، ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين، وإذا مات أحد منهم فقولوا فيه خيرا:
جلس صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد بعد صلاة المغرب فقالوا :
ـ لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء .
واستراحوا لما قالوا، فجلسوا، حتى خرج إليهم الحبيب صلى الله عليه وسلم فقال :
ـ ما زلتم ها هنا ؟.
قالوا :
ـ نعم .
قال صلى الله عليه وسلم :
ـ أحسنتم .
ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال :
ـ النجوم آمنة إلى السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابى، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون، وأصحابى أمنة لأمتى، فإذا ذهب أصحابى، أتى أمتى ما يوعدون .
.. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ سألت ربى عز وجل، عن اختلاف أصحابى من بعدى، فأوحى إلى : يا محمد إن أصحابك عندى بمنزلة النجوم فى السماء، بعضها أقوى من بعض، ولكل نور، فمن أخذ بشىء مما هم عليه من اختلافهم، فهو عندى على هدى .
ـ أصحابى كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم .
.. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قدر صحابته رضوان الله عليهم :
ـ لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده، لو أن أحدا أنفق مثل " أحد " ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه .
ـ ما من أحد يموت من أصحابى بأرض، إلا بعث لهم نورا وقائدا يوم القيامة.
ـ خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر
فيهم السمن، ويحلفون ولا يستحلفون، تسبق أحدهم يمينه ويمينه شهادته .
ـ أرحم أمتى بأمتى : أبو بكر، وأشدهم فى أمر الله تعالى : عمر، وأشدهم حياء : عثمان، وأقضاهم : على، وأعلمهم بالحلال والحرام : معاذ بن جبل، وافرضهم : زيد بن ثابت، وأقرأهم :أبى بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة : أبو عبيدة بن الجراح، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من : أبى ذر، أشبه بعيسى عليه السلام فى ورعه .
ـ إنى لا أدرى ما قدر بقائى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى " وأشار إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما " واهدوا بهدى عمار بن ياسر، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه .
ـ رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرمضاء امرأة أبى طلحة رضى الله عنهما، وسمعت خشخشة، فقلت : من هذا ؟. قالوا : بلال . ورأيت قصرا بفنائه جارية،
فقلت : لمن هذا ؟. قالوا : لعمر بن الخطاب . فأردت أن أدخله فأنظر إليه،فذكرت غيرتك، فوليت مدبرا .
فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله .
.. قال له نفر من أصحابه رضى الله عنهم :
ـ يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك ؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ نعم، أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى أخى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام .
ـ إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسك الماء، فنفع الله تعالى بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ؛ فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به.
ـ إنما مثلى ومثلكم، كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار، تقع فيها، فجعل ينزعهن، ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها .
.. سأل جماعة من الصحابة، أمهات المؤمنين رضى الله عنهن وأرضاهن، عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما اخبروا بما كان يفعل، قالوا :
ـ أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ .
وعزموا أمرهم، فقال أحدهم :
ـ أما أنا فأصلى الليل أبدا .
وقال الآخر :
ـ وأنا أصوم الدهر ولا أفطر .
وقال الثالث :
ـ وأنا أعتزل النساء، ولا أتزوج أبدا .
ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا، جاء إليهم، فقال :
ـ أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟.
قالوا :
ـ نعم .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر، وأصلى، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى .
سألت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت :
ـ كان " قرآن " يمشى على الأرض .
قال أنس بن مالك :
ـ خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقل لى عن شئ لم أفعله، لم لم تفعله، ولا عن شئ تركته، لم تركته .
سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ ما بالك تقوم الليل والنهار عابدا ذاكرا لله مستغفرا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟!.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ أفلا أكون عبدا شكورا .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ـ آني لأستغفر ربى فى اليوم أكثر من مائة مرة .

- ٧ -

اليوم : الأربعاء، الثانى من الشهر .
الشهر : صفر .
السنة : الحادية عشرة من الهجرة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ببيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، مريضا، فنهض من نومه فى جوف الليل، ولما هم بالخروج، سألته قلقة عليه :

- أين يا رسول الله، بأبى وأمى ؟.

فأخبرها بأنه أمر بأن يستغفر لأهل البقيع، وخرج ومعه مولاه أبو مويهبة وسارا حتى أتيا البقيع، حيث مدافن المسلمين، فوقف أبو مويهبة على مبعدة تأدبا، وتقدم الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، ووقف عليهم وأخذ يستغفر الله لهم، وأطال فى الوقوف وأكثر من الاستغفار، ثم قال مخاطبا من سبق إلى الموت من صحابته رضى الله عنهم وأرضاهم :

- هنيئا لكم ما أصبحتم فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع بعضها بعضا، يتبع آخرها أولها، والآخرة منها شر من الأولى .

وحين انتهى، استدار وسار إلى حيث وقف أبو مويهبة، وقال له صلى الله عليه وسلم :

- يا أبا مويهبة، إنى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى، والجنة .

قال أبو مويهبة :

- بأبى وأمى يا رسول الله، فخذ خزائن الدنيا والخلد، ثم الجنة .

قال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :

- يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى، والجنة .

المكان : بيت عائشة رضى الله عنها .
الوقت : ضحى .
اليـوم : الاثنين، الثانى عشر من الشهر .
الشهر : صفر .
السنة : الحادية عشرة من الهجرة .

قال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :

- اللهم أعنى على كرب الموت .

=======

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ صلى الله عليه وسلم ١٤٤) آل عمران

صدق الله العظيم

.. وإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

***

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه يوم الاثنين الموافق ٤ من جمادى الآخر سنة ١٤١٨ هجرية- ٦ أكتوبر من عام ١٩٩٧ ميلادية .

المصادر

القرآن العظيم	الاستشهاد بالآيات
صحيح البخارى	الاستشهاد بالحديث

المراجع

تفسير ابن كثير	ابن كثير
تفسير القرطبى	القرطبى
صفوة التفاسير	للصابونى
تفسير الشيخ الشعراوى	للشعراوى
أسباب ورود الحديث	للسيوطى
الأذكار المنتخبة	للنووى
الإسراء والمعراج	للإمام ابن عباس τ
جامع العلوم والحكم	لابى الفرج
جوامع السيرة النبوية	لابن حزم
دلائل النبوة	للبيهقى
فتاوى رسول الله صلى الله عليه وسلم	ابن القيم الجوزية
فقه السنة	محمد الغزالى
فقه السيرة	د. محمد سعيد البوطى

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن هشام
البداية والنهاية لابن كثير
تاريخ الطبرى للطبرى
سبل الهدى والرشاد للمحمد بن يوسف الشامى
الدرر لابن عبد البر

قراءات

حياة محمد صلى الله عليه وسلم د. محمد حسين هيكل
فى منزل الوحى د. محمد حسين هيكل
النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن د. عبد الحليم محمود
السيرة المحمدية فى ظلال القرآن د. أحمد حسن الباقورى
السيرة النبوية د. محمد الطيب النجار
على هامش السيرة د. طـه حسين
عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم عباس محمود العقاد
من وحى السيرة محمد الغزالى
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد متولى الشعراوى
معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم محمد متولى الشعراوى
مشرق الرسالة والسابقون د. سيد رزق الطويل
فى بيت النبوة د. عائشة عبد الرحمن
فى رياض السيرة د. أحمد عمر هاشم
من دروس الهجرة د. سعد ظلام
السيرة فى ضوء القرآن والسنة د. عبد المهدى عبد الهادى
مشاهد من السيرة العطرة د. عبد المنعم خفاجى
الرسول حول الكعبة د. محمد سيد أحمد المسير
الرسول فى مكة والمدينة محمد مهدى عامر
دولة الرسول فى المدينة د. محمد ممدوح العربى
العبقرية العسكرية للرسول صلى الله عليه وسلم محمد فرج ، أنور السادات
القصص القرآنى د. حمزة النشرتى
محمد قرآن يمشى على الأرض فتحى العسال
السياسة المالية للرسول صلى الله عليه وسلم قطب إبراهيم محمد
مع النبى فى رمضان سامح كريم
محمد الحقيقة العظمى عزيز السيد جاسم
المحمديات فتحى الابيارى
محمد صلى الله عليه وسلم نظمى لوقا

وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحاب	عبد العزيز الشناوى
الرحيق المختوم	صفي الرحمن المبارك فوري

كتب للمؤلف

اجتهادات إسلامية:

الله : الخالق والخلق	تأمــلات	١٩٩٦ نفد
العـودة إلى الله	تخريج من الأركان	١٩٩٧ نفد
الحبو إلى الجنة	ســـــيرة	١٩٩٩ نفد
الصابر المنتصر **صلى الله عليه وسلم**	قيد الطبع	
محمد **صلى الله عليه وسلم** قدوة تقتدى		قيد الطبع
فلسفة السيرة	قيد الطبع	
معانى من القرأن العظيم	قيد الطبع	

كتابات للأطفال:

الله واحــــــد	تربية إسلامية	١٩٩٥
طفل نظيف ، طفل يتوضأ	تربية إسلامية	١٩٩٥
بين يدى ربى	تربية إسلامية	١٩٩٥
العودة إلى البيت	قصـــــــــة	قيد الطبع

أعمال روائية :

حياة مكشوفة	مجموعة قصص	١٩٦٧ نفد
هكـذا هــى	روايـــة	١٩٧١ نفد
ليال مصرية	روايـــة	قيد الطبع
ديار الحب	روايـــة	١٩٩٥ نفد
نسأل الله السلامة	قصص قصيرة	قيد الطبع
كيدهم وكيدهن	قصص قصيرة	قيد الطبع

كتب عن المؤلف :

مقالات فى الحداثة	للأستاذ دكتور كمال اسماعيل
المـحمديات	للكاتب الأستاذ فتحى الإبيارى